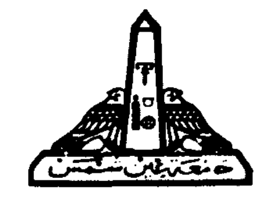




كلية الآداب

التعليم المفتوح

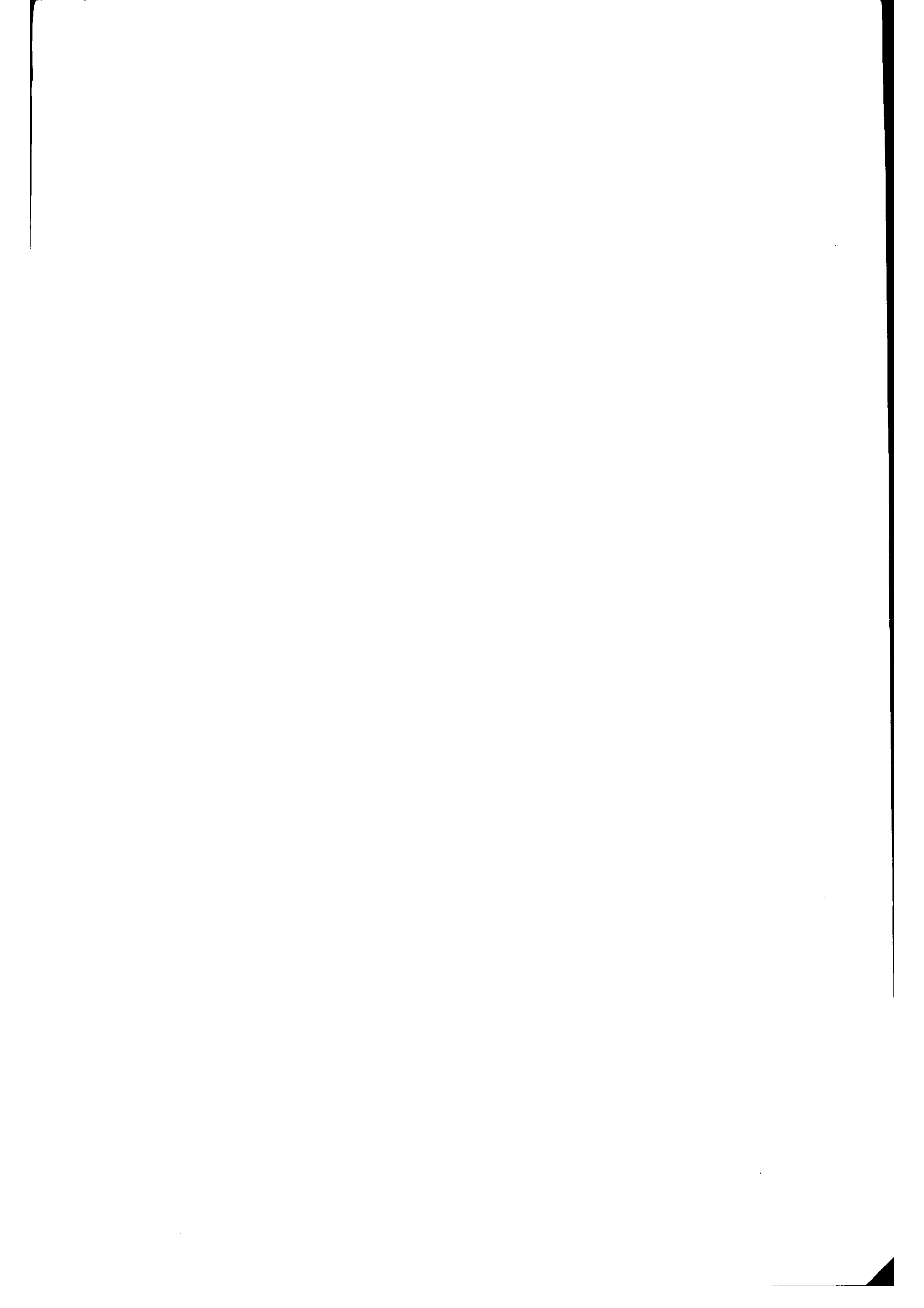
تاريخ العرب الحديث والمعاصر

دكتـور

حمدنا الله مصطفى حسن

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - جامعة عين شمس



مقدمة

العالم العربى جزء كبير وهام من العالم أجمع ؛ فهو يضم إثنتين وعشرين دولة، عشر منها فى قارة افريقيا وهى جمهورية مصر العربية، جمهورية السودان الديمقراطية ، والجماهيرية العربية الليبية ، والجمهورية التونسية ، والجمهورية الديمقراطية الجزائرية ، والمملكة المغربية ، وجمهورية موريتانيا الإسلامية وجمهورية جيبوتى ، والجمهورية الديمقراطية الصومالية ، وجمهورية جزر القمر .

أما قارة آسيا فتضم إثنتى عشرة دولة هى : فلسطين والمملكة الأردنية الهاشمية ، وجمهورية لبنان ، والجمهورية العربية السورية ، والجمهورية العراقية ، ودولة الكويت ، ومملكة البحرين، ودولة قطر، ودولة الإمارات العربية المتحدة ، وسلطنة عمان ، وجمهورية اليمن ، والمملكة العربية السعودية .

ولايقتصر العالم العربى على هذا العدد من الدول بل إن مساحته بلغت نحو ١٤ مليون كم٢، تمتد من خط طول ٦٠° شرقاً إلى خط طول ١٧° غرباً ، ومن دائرة عرض ٢° جنوباً إلى ٣٧,٥° شمالاً عدا دولة جزر القمر الواقعة فى المحيط الهندى بين شمالى جزيرة مدغشقر والساحل الافريقى عند دائرة عرض ١٢° جنوباً .

ووفقاً لإحصاء عام ١٩٩٥ بلغ سكان العالم العربى نحو ٢٥٨,٥ مليون نسمة . وهؤلاء السكان يعيشون فى منطقة تمتد شمالاً حتى جبال طوروس وجنوباً حتى بحر العرب والمحيط الهندى والصحراء الكبرى، وشرقاً عند الخليج العربى وجبال كردستان وزاجروس، وغرباً إلى المحيط الأطلنطى .

وللعالم العربى تاريخ حافل وطويل يضرب بجذوره فى التاريخ

القديم والوسيط والإسلامى والحديث حتى التاريخ المعاصر، وهذا التاريخ يمثل واحدة من أهم حلقات التاريخ العالمى المتشابك المتصل، ولاسيما فى الحقبة الحديثة والمعاصرة التى تتمحور موضوعات هذا الكتاب حولها . ولاشك أن العالم العربى لعب دوراً كبيراً فى هذه الحقبة الهامة المؤثرة فى مجريات الأحداث العالمية، لذلك حق علينا أن نعرض لها فى عدة فصول لاندعى أننا أجبنا على كل التساؤلات وعلامات الاستفهام المطروحة، أو أننا قلنا فصل الخطاب ، لكننا حاولنا محاولات المجتهد والمقل كى نعرض لبعض جوانب هذا التاريخ الحديث والمعاصر وبعض قضاياه فى محاولة لعرض أكبر مساحة زمنية ومكانية لهذا التاريخ علها فى نهاية الأمر تجلو بعض الغموض أو حتى تلقى بعض الضوء وتؤكد أو تنفى بعض الآراء ان لم تضف القليل.

حوى هذا الكتاب بين دفتيه عدة فصول ، جاء أولها عن التوسع العثمانى فى العالم العربى حيث عرض لعوامل هذا التوسع والفتوحات التى صاحبته وطبيعة هذه الفتوحات ، ثم جاء الفصل الثانى ليعرض لمرحلة هامة فى تاريخ العرب إتسمت بتصارع الأفكار والرؤى ، وكان هذا الفصل بعنوان (العالم العربى بين الفكر الدينى والاتجاه القومى) وفيه جرى الحديث عن الموحدين فى شبه الجزيرة العربية، والسنوسية فى ليبيا، والمهدية فى السودان ، وحركة محمد بن عبد الله حسن فى الصومال، ثم حركة الجامعة الإسلامية، وأخيراً التيار القومى العربى .

أما الفصل الثالث فقد عرض للمشرق العربى إبان الحرب العالمية الأولى . ولاشك أن العرب ودول الوسط خلال هذه الحرب قد راودتهم أحلام راح كل طرف يحققها بواسطة أو على حساب الآخر . فدول الوسط ارادت كسب الحرب فى هذه المنطقة وحل المعادلة الصعبة فى كيفية إبعاد المسلمين عن الدولة العثمانية فراحت تخرج لهم من جعبتها مفهوم

القومية، وحرضت على إشعال الثورة العربية الكبرى، ومن ناحية اخرى كان العرب يريدون الخلاص من الدولة العثمانية لتحقيق أحلام الاستقلال عند البعض وتكوين دولة عربية كبرى عند البعض الآخر . وفى سبيل ذلك كله جرت محادثات الحسين مكماهون (٩١٥ - ١٩١٦) وعقدت اتفاقية سايكس - بيكو ، وتأججت نار الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ ، وكانت الطامة الكبرى بصدور تصريح بالفور عام ١٩١٧ .

وفى الفصل الرابع حاولنا رصد أوضاع المشرق العربى السياسية فى ظل الإنتداب الذى أعلن فى بعض البلدان الغربية مثل سوريا ولبنان والعراق والاردن .

وجاء الفصل الخامس ليعرض لقضية العرب الكبرى وهى قضية فلسطين تحت عنوان (فلسطين بين الصهيونية والإستعمار البريطانى حيث جرى عرض لتاريخ الحركة الصهيونية وتأثيرها على فلسطين ، وتطور الأحداث داخل فلسطين حتى قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

وقد ختمت هذه الدراسة بفصل سادس عن الدول المغاربية فى شمالى افريقيا ، وفيه جرى تتبع تاريخ الأطماع الأوربية فى هذه المنطقة (ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب) وكيف لعبت التوازنات الدولية دورها فى تثبيت أقدام كل من إيطاليا وفرنسا فى هذه البلدان العربية . ولم نغفل بعد ذلك حركة المقاومة الوطنية ضد المستعمرين والدور الذى لعبته شعوب وزعماء هذه المنطقة فى الزود عن حياضها ابتغاء طرد المستعمر ووصولاً إلى الاستقلال التام .

إن تاريخ العرب الحديث والمعاصر تاريخ ملئ بالآلام والجراح وحتى الآمال أيضاً ، فأحداثه منذ القرن السادس عشر متشابكة ومتصلة

حيناً بالامبرطورية العثمانية وحيناً آخر مع أوربا وبالاطماع الإستعمارية بعد أن تم القضاء على الامبراطورية العثمانية، حيث بدأت أوربا تلعب بمقدرات الشعوب العربية حتى تركتها منهكة القوى، وسلمت بعض أجزائها للصهيونية، فدقت بذلك إسفيناً لايزال يمزق أحشاء العالم العربى ويؤثر فى أحداث ومقدرات بل ومستقبل العرب.

وفى الختام أرجو من الله العلى القدير أن تكون هذه الصفحات المتواضعة قد عرضت بأمانة لبعض زوايا تاريخ العرب الحديث والمعاصر وآثارت بعض الأفكار والرؤى عند القارئ، أملاً فى كتابة تاريخ أمة حق على أبنائها أن يفيقوا من رقدتهم ويقلبوا صفحات تاريخهم بحلوها ومرها وصولاً إلى غد مشرق بإذن الله.

والله من وراء القصد

دكتور

حمدنا الله مصطفى حسن حمد

القاهرة - مصر الجديدة

٢٢ سبتمبر ٢٠٠٤م

الفصل الأول

التوسع العثمانى فى العالم العربى

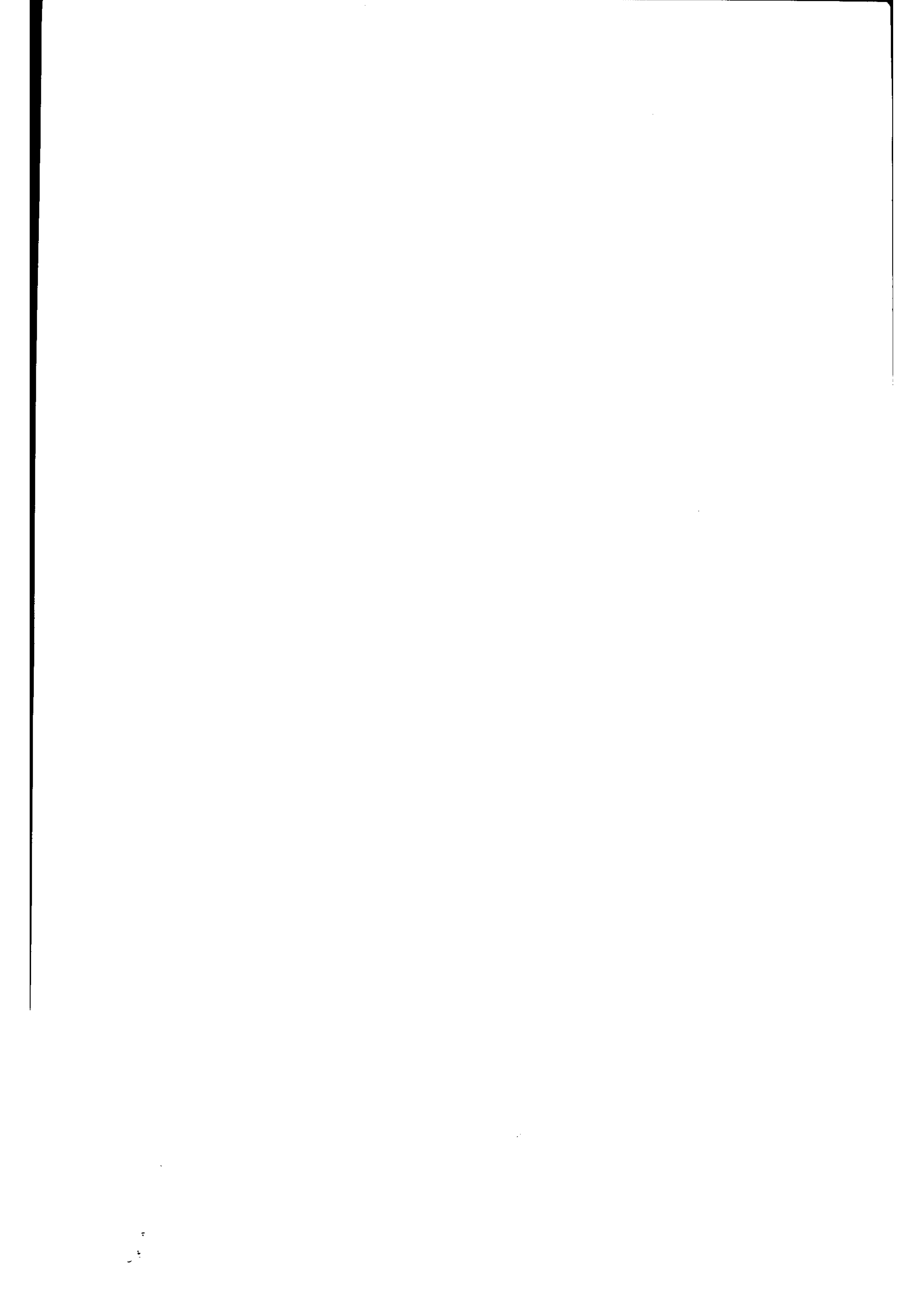
- نشأة الدولة العثمانية .
- التوجه العثمانى صوب المشرق .
- الصدام العثمانى الصفوى .
- الصدام العثمانى المملوكى :
  - ا- فتح الشام .
  - ب- فتح مصر .
  - ج- ضم الحجاز .
  - د- فتح اليمن .
  - - فتح العراق .
  - - العثمانيون وشمالى افريقيا .



الفصل الأول (التوسع العثماني في العالم العربي)

الأهداف :

- مناقشة قضية ما إذا كان العثمانيون من خلال توسعهم في المشرق يدخلون في عداد المستعمرين أم لا .
- معرفة العقلية التي كان يفكر من خلالها المماليك في أوائل القرن السادس عشر الميلادي و العوامل التي أدت إلى هزيمتهم .
- التعرف على أوضاع مسلمي شمال أفريقيا و مواجهتهم للأخطار الأوربية .



الفصل الأول

التوسع العثماني فى العالم العربى

نشأة الدولة العثمانية :

فى الثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادى وصل الأتراك العثمانيون إلى منطقة آسيا الصغرى كواحدة من القبائل التركية النازحة من مناطق الإستبس فى آسيا إلى منطقة الأناضول غرباً .

وقد اختلفت الآراء حول ميلاد ونشأة الدوله العثمانية وأفاض المؤرخون فى ذلك كثيراً . ومرد هذا الخلف أو الإختلاف يعود إلى ذلك الغموض، أو تلك الروايات الأسطورية التى نسجت حول قيام هذه الدولة، رغم أن هذه الروايات كانت مستقاة من الحوليات العثمانية القديمة، وراح البعض يلقى عليها ظلالاً كثيفة من الشك والريبة ويخالها شكلاً من أشكال الدعم التاريخى والإلهى لشرعية هذه الدولة ومن ثم إضفاء هالة ضخمة حولها تليق بالمكانة والمساحة الشاسعة التى حازتها فى قارات ثلاث : أوربا وآسيا وأفريقيا .

وتقول واحدة من هذه الروايات إن قبيلة (قابي) التركية التى إتجهت من أواسط آسيا إلى الغرب يقودها (أرطغرل) قد أسدت فى عام ١٢٣٢م خدمة جليلة إلى السلطان علاء الدين (١٢١٩ - ١٢٣٥م) سلطان دولة الأتراك السلاجقة، أو (دولة الروم السلاجقة) كما تسمى أحيانا؛ ذلك أنها شهدت جيشين يصطرعان، وكان أحدهما لا يقدر على الآخر فانضمت إليه ونصرته بعد أن كادت الدائرة أن تدور عليه، وحين انقشع غبار المعركة تبين أن ارطغرل قد تدخل لنصرة واحدة من القبائل التركية من بنى جلدتهم وهم الأتراك السلاجقة ضد واحدة من الفرق

المغولية التى كانت تفتح فى آسيا الصغرى . وكانت المكافأة التى قدمها السلطان علاء الدين لأرطغرل وقبيلته تتمثل فى قطعة من الأرض مترامية الأطراف تابعة له فى شمال غربى الأناضول تسمى منطقة (سكود) على الحدود السلجوقية البيزنطية، وأنعمت عليه بلقب (محافظ الحدود) جريا على التقاليد فى دولة الأتراك السلاجقة فى منح رؤساء العشائر الذين يعظم أمرهم، إلا أن أرطغرل لم يكن من أولئك الرجال الذين يقنعون بهذا القليل، كمهمة حفظ الحدود، بل كانت تدور فى مخيلته أطماع سياسية لا تحدها حدود، وعلى هذا النحو راح يهاجم بإسم السلطان علاء الدين ممتلكات الدولة البيزنطية فى الأناضول حتى نجح فى ضم منطقة (أسكى شهر) إلى منطقته الحدودية . وقد توفى أرطغرل فى عام ١٢٨٨م ليخلفه ابنه عثمان الذى تنسب إليه هذه الأمبراطورية والذى اعتنق الإسلام، ومن ثم أصبح هذا الدين عقيدة للأتراك العثمانيين منذ عهد السلطان عثمان، ومن قبل لم تكن عقيدتهم قد تبلورت بعد، فقد كانوا فى مرحلة تحول من الوثنية أو بعض العقائد الأخرى إلى الإسلام [١].

أما بداية علاقة الأتراك بالإسلام فيمكن أن نتبينها من خلال روايتين أو أسطورتين وردتا فى الحوليات العثمانية القديمة أوردهما (جيبونز) من خلال دراسته عن تأسيس الامبراطورية العثمانية .

. The Foundation of the Ottoman Empire

تقول الأسطورة الأولى إن عثمان قضى ليلة فى منزل أحد الزهاد المسلمين، وقبل أن يأوى إلى فراشه جاء الزاهد بكتاب فسأله عثمان عن هذا الكتاب، فأجابه بأنه القرآن الكريم وهو كلام الله عز وجل أنزله على نبيه الكريم محمد عليه الصلاة والسلام، وراح عثمان طوال ليلته يقرأ هذا

---

(١) عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها . الجزء الأول ص ٣٥ – ٣٦ .

الكتاب واقفا ثم نام فرأى فى منامه ملاكاً يبشره بأنه هو وذريته سوف تكون لهم مكانة عالية لقاء احترامه للقرآن الكريم [١] .

أما الأسطورة الثانية فتقول بأن عثمان كان يتردد على شيخ يدعى (أده بالى) تطلق عليه المراجع العربية إسم (أدب عالى)، وطلب إلى الشيخ أن يزوجه ابنته فرفض . وفى إحدى الليالى رأى عثمان وهو نائم فى بيت الشيخ كأن قمراً يخرج من صدر أده بالى ويقع فى صدر عثمان وتخرج من ظهره شجرة ضخمة يغطى ظلها الأرض كلها . وقد أول الشيخ أده بالى هذا الحلم إلى أن أسرة عثمان ستحكم العالم، وهنا وافق على أن يزوجه إبنته [٢] .

وقد حمل بعض المؤرخين حملة شديدة على ذكر هاتين الروايتين ذات البعد الأسطورى وهو ما يتنافى مع الحقائق العلمية . ومن هؤلاء الذين وقفوا فى وجه ذلك المؤرخ الألمانى (جيزة) Giesé الذى أعتبرهما محاولتين لتدعيم حكم العثمانيين على سائر القبائل العثمانية فى آسيا الصغرى من خلال تدخل إلهى [٣] .

ويبدو أن جيبونز وهو يسوق مثل هذه الأساطير كان يرى أنه من الجائز حين تعوزنا المصادر التاريخية فى دراسة حقبة تاريخية ما أن نرجع – فى حذر – إلى مثل هذه الأساطير لأنها تعتبر إنعكاساً للواقع التاريخى الذى حرفه الخيال الشعبى .

وهكذا يكتنف الغموض قيام الدولة العثمانية وتبرز الأساطير ويظل هذا الغموض يخيم على تاريخ هذه الدولة فى الفترات الأولى من تاريخها . وربما يكون تفسير ذلك فى أن ولادة أى شعب من الشعوب تبدو

---

(١) محمد فؤاد كوبريلى : قيام الدولة العثمانية . ترجمة د . أحمد السعيد سليمان . ص ١٣ .
(٢) نفس المرجع . ص ١٣ .
(٣) نفس المرجع . ص ١٤ .

فى حينها أمراً هينا لا يستحق التأريخ حتى يكبر هذا الشعب ويتدعم كيانه السياسى داخليا وخارجيا ويلعب دوراً هاماً فى الأحداث التاريخية . وحين يصل إلى هذه المرحلة يبدأ الناس فى تدوين تاريخه، أما الفترة الأولى وهى فترة الميلاد فتظل غامضة ومتضارية يصعب الإعتماد عليها من الناحية العلمية . وهكذا تكون دوماً نشأة الشعوب والأمم محاطة بالأساطير التى يتناقلها الشعب جيلاً بعد جيل . وينطبق هذا القول تماماً على تاريخ العثمانيين فى بواكيره الأولى حتى سقوط القسطنطينية فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر [1] .

ولم يتقبل المؤرخ التركى محمد فؤاد كوبريلى مثل هذه الروايات الخيالية ومن ثم راح يشكك فيها ويحمل عليها حملات شعواء ويرفض قول جيبونز إن قبيلة عثمان التى وفدت على الأناضول فراراً من زحف جنكيزخان لم تكن على دين الإسلام رغم أنها عاشت أجيالاً كثيرة على الحدود الإيرانية، وأنها لم تترك الوثنيه إلى الإسلام إلا بعد أن توطنت غربى الأناضول بين الأتراك المسلمين، ومن ثم وجه الاتهام إلى جيبونز بأنه لم يكن واقفاً على الأحوال الدينية فى الأناضول إبان القرنين الثالث عشر والرابع عشر . كما يرفض كوبريلى مثل هذه الهجرة إستناداً إلى المصادر الخاصة بالعصر السلجوقى التى خلت تماماً - كما يقول - مما يثبت وجود هجرة فى ذلك الوقت صوب الحدود الغربية للأمبراطورية السلجوقية . ويرجح كوبريلى بأن قبيلة عثمان كانت واحدة من القبائل التى وفدت إلى الأناضول عقب فتحه على أيدى السلاجقة أول مرة .

ويتساءل كوبريلى عن كيفية دراسة هذه المشكلة (قيام الدولة العثمانية) فيجيب بأننا لم نتخلص حتى الآن من أقاصيص أصحاب الحوليات العثمانية الساذجة، وأننا إذا أردنا إيجاد حل لهذه المشكله فينبغى

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ - ١٩١٤) ص ١٢ .

الوقوف قبل كل شئ على عواملها الداخلية وضرورة الإجابة على عدة أسئلة وهى : إلى أى بطن ينتمى مؤسسو الأمبراطورية العثمانية ؟ ومتى جاءوا للإستقرار فى شمال غربى الأناضول؟، وكيف كان وضعهم الإجتماعى بدواً أم أنصاف بدو أم حضراً ؟، وهل تزايدت أعدادهم البشرية بتزايد دورهم السياسى ؟، وما حجم العناصر التركية التى التحقت بهم ؟، وما هو حجم العناصر الأجنبية الوافدة إلى العناصر المحلية ؟، وما هو مشكل العلاقة بين المسلمين والنصارى ؟، وما هو الدور الذى لعبته الطبقات الإجتماعية فى تأسيس الامبراطوريه وغيرها من التساؤلات[١] .

التوجه العثمانى صوب المشرق :

كانت وجهة الدولة العثمانية - بصفة عامة - متجهة نحو أوربا، وقليلاً ما توترت علاقاتها مع جارتها الجنوبية، الدولة المملوكية، باستثناء حربين محدودتين بينهما بسبب الحدود فى عامى ١٤٨٩، ١٤٩٠م، الأمر الذى جعل العثمانيين يركزون نشاطهم جنوبى البلقان .

وفى أوائل القرن السادس عشر وعلى عهد السلطان سليم الأول تبدلت إستراتيجية الدولة العثمانية حيث توقف الزحف والفتح فى أوربا وبدأت تولى وجهتها شطر الشرق الإسلامى والعربى . فما هى أسباب ذلك؟

إختلف المؤرخون حول تفسير هذا التغير الإستراتيجى، فمن قائل إن الدولة العثمانية قد بلغت مرحلة التشبع فى فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر وكان عليها أن تبحث لها عن ميادين جديدة للنشاط والتوسع .

ومع وجاهة هذا الرأى إلا أن هناك من يدحضه إستناداً إلى أنه

(١) محمد فؤاد كوبريلى : المرجع السابق . ص ٢٦ .

بمجرد وفاة السلطان سليم الأول عام ١٥٢٠م إستأنف ابنه السلطان سليمان القانونى الفتوحات العثمانيه فى أوربا، وتوغل فى قلبها حتى استولى على بودابست عاصمة المجر، كما انتزع سهول المجر من امبراطورية النمسا، ووصل إلى مدينة فيينا عام ١٥٢٩[١] .

وهناك من يعزو السبب فى هذا التحول الإستراتيجى إلى ما كان يدور فى منطقة الشرق العربى وما حوله من أحداث فى أوائل القرن السادس عشر الأمر الذى دفع الدولة العثمانية إلى الدخول فى ميدان الشرق العربى والإسلامى . وقد اختلف البعض حول المقصود بأحداث الشرق العربى . فالبعض يفسره بالزحف البرتغالى نحو الشرق العربى ومنافذه البحرية، وأن خروج العثمانيين إلى هذه الأجزاء إنما كان الهدف منه الوصول إلى حدود ومنافذ الشرق العربى الإسلامى قبل البرتغاليين وحمايته من هذا الخطر . وتوجد إشارات تدل على إهتمام السلطان سليم . بمقاومة التوسع البرتغالى فى مياه المحيط الهندى وتخطيطه للقيام بعملية كبيرة لمواجهة هذا التوسع . وقد اكتظت الأستانة ومدن الشرق الأخرى بالمسلمين واليهود الفارين فى أعقاب سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م، وكان بعضهم على علم تام بكل التفاصيل التقنية للمشروعات الأطلسية والمشروعات القديمة لارتياد وكشف أفريقيا . وقد حث البنادقة – الذين كانوا يلعبون دوراً وسيطاً فى التجارة الشرقية – المماليك على توحيد الجهود ضد البرتغاليين حفاظاً على مصالحهم التجارية المشتركة .

ويذكر البعض أنه قد جرى تعاون بين الفرس والبرتغاليين كان موجهاً فى الأساس ضد العثمانيين، فقد كان الفرس على أستعداد لتموين السفن البرتغالية مقابل مساعدتهم لهم ضد العثمانيين على الرغم من أن الشاه إسماعيل الصفوى لم يكن مرحباً باحتكار البرتغاليين للتجارة

(١) محمود صالح ملسى : تاريخ العرب الحديث والمعاصر . المشارقة والمغاربة . ص٥ .

الشرقية . وقد أجاب السلطان سليم على ذلك كله بإرسال بعض بنائى السفن إلى السلطان الغورى لإعادة بناء الإسطول المملوكى الذى دمر فى موقعة ديو البحرية عام ١٥٠٩م قبالة ساحل الهند الغربى[١] .

وهناك من يرى أن المقصود بتعبير أحداث الشرق العربى إنما قصد به سياسة الدولة الصفوية ومحاولتها نشر مذهبها الشيعى داخل حدود الدولة العثمانية .

الصدام العثمانى الصفوى :

لقد كان ظهور الدولة الصفوية فى مطلع القرن السادس عشر فى فارس على يد الشاه إسماعيل الصفوى وما تبعه من نشاط مذهبى قام به دعاة الشيعة فى الأناضول قد أدى إلى إهتمام العثمانيين به، حيث أن الأتراك معروفون بتعصبهم للمذهب السنى، وها هم الفرس يغزونهم عقائديا فى عقر دارهم ويهددون وجود الدولة العثمانية .

وما أن سيطر إسماعيل الصفوى على فارس فى عام ١٥٠٠م حتى رنا ببصره صوب العراق التى كانت تمثل أهمية بالغة لفارس من عدة جوانب : ففى الجانب الاقتصادى كان العراق يمثل مركزاً تجارياً هاماً بإطلاله على الخليج العربى، كما أن أراضى العراق شديدة الخصوبة لا سيما منطقة الفرات . ومن الناحية الدينية ضم العراق الكثير من تراث الشيعة المتمثلة فى مقابر أئمتهم التى يطلق عليها المزارات . وأما الجانب السياسى فيتمثل فى أن العراق فى ذلك الوقت كان يمر بظروف سياسية مضطربة شجعت الصفويين على التوسع . وفى سنة ١٥٠٨ فتح اسماعيل الصفوى العراق، وأصبحت بالتالى حدود الأمبراطورية الصفوية متاخمة لحدود الأمبراطورية العثمانية . وقد أزدادت مخاوف العثمانيين من الخطر

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى . ص ٨٢ .

الشيعى نظراً لتوسعات اسماعيل الصفوى فى شمال الشام على حساب إمارة البستان المتنافس عليها من قبل العثمانيين والمماليك، إضافة إلى أن فارس أصبحت ملجأ للفارين من وجه السلاطين العثمانيين . كذلك فقد كان لنشاط الصفويين ودعوتهم إلى نشر المذهب الشيعى فى شرقى الأناضول أثر فى نمو روح العصيان بين الناس فى تلك المناطق، كما هدد إنتشار المذهب الشيعى الأسرة العثمانية نفسها حيث لاقى هوى وقبولاً لدى بعض أمراء البيت العثمانى من أمثال الأميرين : شهنشاه، ومران إبنى الأمير أحمد شقيق السلطان سليم، وهذا يعنى تهديداً مذهبياً للدولة العثمانية من الداخل، فضلاً عن كونه تهديداً سياسياً . فكان الأمر يستدعى إتخاذ خطوة حاسمة لمجابهة الصفويين الذين استشرى خطرهم، فاستصدر السلطان سليم فتوى بوجوب قتل الشيعة لأنهم خارجون على الدين الإسلامى، ومن ثم بدأ السلطان بإحكام الحصار حول (القزل باش)* فى الأناضول، وراح يعمل فيهم القتل الجماعى عام ١٥١٤م فقضى على ما يقرب من خمسة آلاف نفس .

وتقول بعض المصادر إن اتجاه السلطان سليم الأول إلى الشرق لم يكن فجائياً، بل كان شغله الشاغل منذ أن كان واليا على (طرابزون) فى عهد أبيه كى يواجه الخطر الصفوى الزاحف إلى وسط الأناضول[1] .

وهكذا تجمعت عوامل شتى لإثارة الصدام بين الصفويين والعثمانيين، فهاجم السلطان سليم الأول الصفويين فى سهل جالديران عام ١٥١٤م وهزمهم وواصل تقدمه إلى إيران حتى وصل إلى الداخل . ولم يشأ السلطان سليم أن يتابع إسماعيل الصفوى داخل إيران حيث يسوق

---

* أتباع المذهب الشيعى فى الدولة العثمانية، وكانوا يرتدون عمامة حمراء (قزل باش) .

(١) أحمد فؤاد متولى: الفتح العثمانى للشام ومصر، ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له. ص ٢٥٦ .

بعض المؤرخين أسباباً كثيرة، منها أن الإنكشارية إضطرت السلطان سليم إلى التـراجع، وأن السلطان نفسـه كـان يقـدر وعـورة المسـالك فى تلك الجهات، واكتفى بما حققه من نتائج طيبة تمثلت فى تأمين حدود الدولة العثمانية شرقاً من خلال الإستيلاء على شمال العراق وديار بكر وجزء من أذربيجان .

الصدام العثمانى المملوكى:

أ- فتح الشام :

بعد أن فرغ السلطان سليم الأول من هزيمة الصفويين فى جالديران إتجه إلى القوة الأخرى فى المنطقة والمجاورة لهم، ونعنى بها المماليك فى الشام ومصر .

وقد يكون من المناسب أن نتعرف فى بادئ الأمر على شكل العلاقة قبل مرج دابق بين كل من الدولة العثمانية وسلطنة المماليك وكيفية تطور هذه العـلاقة بينهمـا إلى أن وصلت إلى الصدام العسكرى فى مـرج دابق عـام ١٥١٦م وهزيمة السلطان الغورى وصولا إلى العوامل التى أدت إلى هذه الهزيمة .

يرى البعض أن هناك إتجاهين حكما العلاقة بين الطرفين . الأول : إتجاه للتحـالف والتعاون بين الدولتين العثمانية والمملوكية، وهذا التحـالف كـان يسـتـهـدف فـى مـراحله الأولى الوقـوف فى وجـه الخطر القـادم من الشرق، ونعنى به خطر تيمورلنك إلا أن هزيمة بيازيد فـى أنقرة قد حـالت دون هذا التحـالف . ثم برزت الفكرة مرة أخرى بوصول البرتغاليين إلى البحـار العربية الإسلامية وسيطرتهم على مدخلى البحـر الأحمر والخليج العربى الأمر الذى أدى إلى طلب السلطان الغورى معاونة السلطان بيازيد الثانى التى تمثلت فى تقديم الأخشاب الضرورية لبناء الأسطول المملوكى.

وفى هذا الإتجاه وتدعيما له تلقت القاهرة أنباء الإنتصارات العثمانية فى أوربا بالفرح والسرور على أنه إنتصار للإسلام، لا سيما نبأ سقوط القسطنطينية . وإضافة إلى ذلك كانت ترسل الهدايا إلى السلاطين العثمانيين فرحاً وابتهاجاً بهذه الإنتصارات .

أما الاتجاه الثانى فقد أخذ شكلاً عدائياً حول الحدود فى شمال الشام وفى البحر المتوسط حين سعى كل منهما إلى تعيين أمير موال له فى هذه الإمارات لا سيما وأنها كانت إمارات صغيرة وضعيفة . كذلك فقد زاد من حدة النزاع بين الطرفين إيواء المماليك للأمراء العثمانيين الفارين الذين كانوا يمثلون تهديداً للعرش العثمانى . ويبدو أن هذا الفرار من جانب الأمراء كان من قبيل الخوف على حياتهم من إقدام السلطان الجديد على قتلهم حتى لا يثبوا إلى كرسى السلطنة لا سيما بعد أن سن السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ – ١٤٨١م) قانونه الذى أورد فيه فقرة خاصة بولاية العرش تتيح لمن يفوز به قتل جميع إخوته الباقين على قيد الحياة حرصاً على مصلحة البلاد . ولهذا السبب هرب الأمير (جم) إبن السلطان محمد الفاتح الذى كان يطالب بالعرش، وقدم له المماليك مساعدة شجعته على الزحف نحو الأناضول مما زاد من حدة العداوة بين العثمانيين والمماليك[1] .

وعلى الرغم من هذه العداوة بين الطرفين فإن الأمور لم تصل فى البداية إلى حد الصدام المسلح أو إلى حالة الحرب، لكن الأوضاع بدأت تتدهور تدريجيا حتى وصلت إلى الصدام بين السلطان الغورى والسلطان سليم . فقد جرى تبادل للرسائل بينهما أهان فيها كل منهما الآخر فكانت الحرب لا محالة .

---

(١) أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق . ص ٨٣ .

تحرك موكب السلطان الغورى صوب الشام تتقدمه الأفيال مزينة بأنواع الزينة والمباخر، تصحبه الأغانى، والسلطان الغورى على صهوة جواده، وعلى يمينه الخليفة المتوكل وحوله طائفة من الأشراف يحملون على رؤوسهم المصاحف فى أكياس من الحرير، ومن ورائهم جماعة من مشايخ الطرق الصوفية، وقضاة المذاهب الأربعة، وخليفة السيد أحمد البدوى، وخليفة السيد ابراهيم الدسوقى، وخليفة السيد أحمد الرفاعى، وخليقة السيد عبد القادر الجيلانى .

وفور وصول الغورى إلى حلب بادر بإرسال أحد أمرائه إلى سليم ومعه نص للصلح الذى كان موضوع خطبة إمام حلب . وكان الأمراء ينتظرون رداً إيجابيا بالصلح لأنهم كانوا يحنون إلى العودة إلى مصر . وأمام رفض سليم الصلح إنطلق الغورى نحو مرج دابق قائلا : إنها ارادة الله .

وهكذا يبدو جليا من وصف موكب السلطان انه لم يكن يأخذ الأمور بجدية وانه ومماليكه كانوا يظنون انهم فى رحلة خلوية سرعان ما يعودون منها بمجرد التوقيع على الصلح، لكن سليماً كان له رأى آخر بإعلان الحرب ضد الغورى .

قسم الغورى جنوده فى هذه المعركة فوضع فى المقدمة (سيباى) نائب الشام، وفى الميمنة (جان بردى الغزالى) نائب حماة، وفى الميسرة خايربك نائب حلب . أما السلطان الغورى فقد أقيمت له خيمة كبيرة فى الوسط . ودارت المعركة فى يوم الأحد الخامس عشر من رجب عام ٩٢٢هـ الموافق للرابع والعشرين من أغسطس عام ١٥١٦م فى يوم شديد الحرارة إمتزجت به رائحة الخيانة منذ بدايته من جانب الأمراء المماليك حيث فر خايربك من ميدان المعركة، وتبعه الكثير من الجلبان مما جعل السلطان الغورى يصرخ بأعلى صوته : « هذا وقت المرؤة .. هذا وقت النجدة »، ودارت الدائرة على السلطان الغورى حتى أنتهت بقتله .

وإذا حاولنا رصد وتحليل العوامل التى أدت إلى هزيمة الغورى والمماليك فى موقعة مرج دابق فيمكننا أن نرجعها إلى الأسباب التالية :

أولاً : العيش على الماضى والأيام الخوالى . فلا يستطيع أحد أن ينكر ماضى المماليك العسكرى العظيم ودحرهم المغول فى عين جالوت عام ١٢٦٠م وتصديهم للوجود الصليبى وتصفيته فى فلسطين عام ١٢٩٢م، وإستضافة الخلافة العباسية منذ عام ١٢٥٨م، إلا أنهم تركوا الحاضر لغيرهم ولم يطوروا أنفسهم .

ثانيا : إنهيار نظام الإقطاعات العسكرية المملوكية . فقد عرف المماليك فى مصر النظام الإقطاعى الذى ورثوه عن الحكم السابق لهم منذ أيام صلاح الدين الأيوبى وخلفائه من بنى أيوب، وكانت الخدمة الحربية من أهم أركانه والتى يجب على المملوك أن يؤديها للسلطان . وقد بلغ النظام الإقطاعى ذروته على يد المماليك الذين استمدوا وجودهم وبقاءهم ومكانتهم فى نظر المعاصرين من فكرة الحرب فاتخذوا منها محوراً لنشاطهم ومجالاً لحياتهم[١] .

وقد عاش المملوك على موارد هذه الإقطاعات وانفق منها على تسليحه وتسليح قواته، إلا أنه قد حدثت تطورات أساسية تمثلت فى بيع إقطاعاتهم أو التنازل عنها لأصحاب الحرف والصناعات الذين تشكلت منهم القوة العسكرية وهم لا يعلمون شيئاً عن حرفة الجندية والحرب، الأمر الذى كان عاملاً من عوامل الضعف العسكرى فى صفوف المماليك .

ثالثاً : تفشى الخيانة فى صفوف المماليك . فقد لعبت هذه الخيانة دوراً رئيسياً فى هزيمة السلطان الغورى عند مرج دابق، وكان على رأس

---

(١) سعيد عاشور : الفلاح والاقطاع فى عصر الأيوبيين والمماليك، ص ٢١٦ – ٢١٧ ضمن دراسة أصدرتها الجمعية التاريخية المصرية تحت عنوان : (الأرض والفلاح) .

الخائنين خاير بك نائب حلب ومن بعده جان بردى الغزالى الذى كان على إتصال سرى بالعثمانيين . فرغم التحذيرات الجادة من جانب سيباى نائب الشام فقد أصم السلطان الغورى أذنيه ولم يعره إنتباها حين كاتبه بأن خاير بك لا تنقطع « مكاتيبه من عند ابن عثمان »، وكان كلما كتب سيباى للسلطان – بما يفعله خاير بك من تبادل للرسائل مع السلطان سليم يخبره فيها أنه معه، ويحثه على المجىء إلى مصر لأخذها من الجراكسة – لا يأخذ ذلك مأخذ الجد .

ويفسر إبن زنبل الرمال هذا الصدود من جانب السلطان بأن الأخير كان يعتقد بأن سيباى نفسه هو الخائن وأن هدفه هو الإستيلاء على السلطنة؛ ذلك أن السلطان الغورى كان قد صدق رماله الذى أخبره بأن من سيلى الحكم من بعده يبدأ اسمه بحرف السين، فوقر فى نفسه أنه سيباى رغم أن الأخير كان يبدى الأخلاص الشديد كما دلت الأحداث، لدرجة أن سيباى طلب من السلطان أن يمكث بمصر ويتولى هو محاربة السلطان سليم لكن الغورى رفض، كما كان الغورى يعلم أن سيباى بطل من الأبطال لا يهاب الموت، وذو عزم شديد، فكان السلطان يحسب حسابه. أما خايربك فلم يكن الغورى يخشاه لأنه لم يكن شجاعاً . وهكذا سار الغورى وراء أوهامه وخرافات ضاربى الرمل ولم يستطع أن يفرق بين رجاله المخلصين وغيرهم من الخائنين فاستحق ما وقع له[١] .

رابعاً : شيوع الخلاف والانقسام بين صفوف المماليك . فقد كان النزاع والتطاحن على أشده بين القرانصة والجلبان . والقرانصة هم مماليك الملوك الذين كانوا قبل السلطان الغورى، وكان يحسب حسابهم خوفا من أن يمكروا به كما فعلوا بمن قبله . أما الجلبان فهم مماليك الغورى الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر ألف مملوك، فقد اشتراهم ودربهم

(١) إبن زنبل الرمال : آخرة المماليك . ص ١٦ .

على الفروسية وسائر أنواع الحرب، وكان يهدف من وراء ذلك إلى ضرب القرانصة كى يحلوا محلهم . وتجدر الاشارة إلى أن كلاً من القرانصة والجلبان كان يسعى كل منهما أن يكون قرب الأحداث فى القاهرة، ويتجلى ذلك فى رفض القرانصة الذهاب إلى العقبة لحمايتها، وإصرارهم على أن يعسكروا فى رشيد ودمياط . كما كان الجلبان لا يقيمون وزنا للسلطان الغورى فكثيراً ما هاجموا الأسواق وتخطفوا السلع والأقمشة وأثاروا الرعب فى قلوب الناس . وقد شاع أثناء معركة مرج دابق أن السلطان كان يركز على الميمنة والميسرة أملاً فى التخلص من القرانصة والابقاء على مماليكه من الجلبان . ويذكر الرمال بأن القرانصة قالوا للسلطان « نحن نقاتل بأنفسنا مع النار وأنت واقف تنظر الينا كالعين الشامته، ما تأمر أحداً من مماليكك يخرج للميدان »[١] .

وهكذا كانت صورة المقاتلين فى جيش الغورى وهى صورة قاتمة تعكس الخلافات بين صفوفه وتبين سوء التدبير وانعدام الرأى الصائب والإخلاص للقائد، وجيش كهذا لابد أن يلقى هزيمة منكرة .

خامساً : لم يتكلم المماليك لغة العصر . ونقصد بذلك أنهم لم يرتقوا إلى مصاف العصر فى الناحية العسكرية ولم يعدوا العدة اللازمة لملاقاة خصمهم العثمانى الذى كان يتسلح بالمدافع والبارود بينما كان المماليك يتسلحون بأسلحة بالية عفى عليها الزمن . صحيح أن السلطان الغورى قد استخدم المدافع ضد البرتغاليين، ووضع بعضاً منها فى قلاعه الحربية لا سيما فى الاسكندرية، لكنه حين قرر السير للشام لم ينفق على « رماة البندق »، وقال « ما عندى نفقه لهؤلاء » كما يذكر إبن إياس[٢] .

---

(١) ابن زنبل الرمال : المصدر السابق . ص ٢٨ .

(٢) بدائع الزهور فى وقائع الدهور . أنظر : عبد المنعم ماجد : طومان باى آخر سلاطين المماليك فى مصر . ص ١٣٩ .

وقد كان القتال فى موقعة مرج دابق يسير فى بادئ الأمر لصالح المماليك الذين أبدوا شجاعة فائقة، لكن تأثير الرصاص العثمانى فعل فعله . ومع الاعتراف بأن الشجاعة والإخلاص والإيمان الشديد صفات لم تكن تعوز السلطان الغورى أو المماليك بشكل عام وهى صفات لا غنى عنها، لكن فى ذات الوقت لابد من الأخذ بأسباب القوة وهو ما كان يفتقر إليه الغورى ورجاله فى هذه المعركة . ولعل حديث « كرتباى » – وهو مملوك أسره العثمانيون – يؤكد هذا القول . فقد ذكر بأن الفروسية هى قتال الرجال وأن المجاهدين من السلف الصالح كانوا يقاتلون بالسيف، أما إطلاق الرصاص من بعيد وحصد الشجعان به فليس من الرجولة فى شئ، وأنه لو ترك العثمانيون الأسلحة النارية لأذاقهم المماليك مرارة الهزيمة(١) .

وهكذا تكشف هذه العبارات مدى التخلف والجهل الذى وصل إليه المماليك عسكريا، ومدى قصورهم فى فهم دور السلف الصالح فى تلك الأيام المبكرة حين فتح هذا السلف الكثير من بقاع العالم فى آسيا وافريقيا وأوربا متسلحين بالإيمان الشديد بالله، وأحدث الأسلحة التى وصل إليها عصرهم واضعين نصب أعينهم قوله تعالى : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » .

سادساً : التنظيم العسكرى والإدارى للجيش العثمانى، إذا استخدم العثمانيون المدافع بمهارة، إضافة إلى تطويرها وحسن إستخدامها، كما كان الجيش العثمانى يتمتع بكثير من التنظيم لا سيما الانكشارية الذين لم يدب الفساد فى صفوفهم، فكانوا عنصراً فاعلاً فى القتال . ولا ننسى أخيرا ارتفاع معنويات الجيش العثمانى وخروجه من نصر إلى نصر، كان أقربها ذلك النصر الذى أحرزه فى جالديران عام ١٥١٤م .

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العرب الحديث . ص ٥٠.

وعقب إنتصار سليم الأول فى مرج دابق إستولى على مدينة حلب التى دخلها دون ممانعة، وقابله أعيانها ومشياخها وعرضوا عليه الطاعة والولاء وسلموه مفاتيح القلعة، كما سلمت جميع توابع المدينة، وقرئت الخطبة باسم السلطان العثمانى، ونعته الخطيب بأنه (ما لك الحرمين الشريفين)، فرد عليه السلطان سليم « إننى أفتخر بأنى خادم الحرمين لا مالكهما[١] » .

والواقع أن أهل الشام قد عانوا كثيرا من مظالم المماليك ولا سيما الأزمات الإقتصادية لدرجة أنهم تمنوا من الله أن يذيقهم كأس الهزيمة، وإن كانت هناك كثرة منهم لا تزال حتى ذلك الوقت تذكر مواقف المماليك البطولية ضد الصليبيين، لكن ما أن وصلت أنباء الهزيمة حتى إنقض أهل الشام على المماليك الفارين وأذاقوهم مر العذاب، وفى المقابل كانت المدن الشامية وهى تتساقط ترحب بمقدم السلطان سليم[٢].

ب - فتح مصر :

بعد أن فرغ سليم الأول من فتح الشام إتجه إلى فتح مصر . وتقول بعض المصادر إن سليما لم يكن ينوى فتح مصر، ذلك أنه بعد أن استولى على دمشق فكر فى العودة إلى بلاده لولا تحريض خايربك الذى قال له كما يروى إبن زنبل الرمال « تركب إلى مصر تأخذها، وتقطع هذه الطائفة الجراكسة من أرض مصر جملة واحدة، وأنا ضامن لك هذا الأمر بعناية الله »[٣] .

ويرجع البعض عدم إكتراث السلطان سليم بفتح مصر إلى تلك المخاطر التى سوف تقف فى وجهه عند اجتيازه لصحراء سيناء لا سيما

---

(١) أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق . ص ١٧١ - ١٧٤ .
(٢) عبد العزيز نوار : المرجع السابق . ص ٥٠ .
(٣) نفس المرجع . ص ٤٢ .

خطر البدو، وامتداد خطوط مواصلاته، وأن سهولة فتح بلاد الشام يجب ألا تؤخذ مقياسا لفتح مصر، لأن المماليك فى الشام لم يكونوا بالكثرة كما هو حالهم فى مصر، ناهيك عن كراهية أهل الشام لهم نتيجة ظلمهم وتعسفهم . كذلك فإن السلطان سليم كان يتوقع أن تكون المقاومة المملوكية شديدة العنف فى مصر لتمركز المماليك بها خاصة وأن مصر أصبحت آخر معقل لهم . ويضاف إلى ذلك كله أن توغل العثمانيين فى أرض مصر ربما يشجع الصفويين على استجماع قوتهم وتهديدهم لأراضى الدولة العثمانية (١) .

ونتيجة لما سبق أرسل السلطان سليم إلى السلطان طومان باى - الذى تولى السلطنة المملوكية بعد مقتل الغورى - يطلب إليه أن يعلن الولاء والطاعة للعثمانيين ويهدده فى آخر الرسالة ويحمله مسئولية الخروج عن طاعته، كما أرسل رسالة إلى حاكم غزة جان بردى الغزالى وأمر الصدر الأعظم سنان باشا بالإستعداد للتحرك لمحاربته إذا ما رفض الولاء. وبالفعل التقى سنان باشا مع جيش جان بردى الغزالى فى « جلجولية » قرب غزة ودارت بينهما معركة انتهت بانتصار سنان باشا . وبالرغم من ذلك كله فقد وجهت إلى جان بردى الغزالى تهمة الخيانة والتواطؤ مع العثمانيين . ويستند البعض فى تأكيد هذه التهمة إلى تكريم السلطان العثمانى لجان بردى الغزالى حين ذهب إليه عارضاً الولاء والطاعة بعد دخوله القاهرة (٢) .

رفض السلطان طومان باى رسالة سليم وراح يعد العدة لقتال العثمانيين ولاقى متاعب كثيرة من جانب المماليك، لا سيما فى إقناعهم بالسفر إلى الصالحية لملاقاة السلطان سليم خارج القاهرة لكنهم أجابوه

---

(١) أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق . ص ١٨٣ .
(٢) نفس المرجع . ص ١٨٦ .

بقولهم « ما يقع بيننا وبينه قتال إلا فى الريدانية » . وكان طومان باى يرى مهاجمة العثمانيين فى الطريق قبل وصولهم إلى القاهرة على أساس أن صحراء شرقى مصر وقسوتها من الممكن أن تنهك جيشهم لا سيما وأنهم لم يأتوا عن طريق الساحل، إلا أن إصرار أمراء المماليك إضطره أن يطرح استراتيجية المعركة التى ارادها جانبا، وأن يظل فى انتظار العثمانيين[١] .

وحين رضخ طومان باى لرغبة أمراء المماليك شرع فى حفر خندق على طول الخطوط الأمامية بعد أن حصن الريدانية الواقعة قرب العباسية حاليا . وقد لاقى أشد العنت من المماليك الذين تقاعسوا فى الإستعداد وانتظروا فى الريداينية حسب الخطة، فكان منهم من لا يقيم فيها إلا خلال النهار كى يراهم السلطان ثم يعودون إلى القاهرة حيث يبيتون فى منازلهم. وقد وصل العثمانيون إلى الريدانية فى يوم الخميس للثانى والعشرين من يناير عام ١٥١٧م، وتلاقى الجيشان المملوكى والعثمانى، وكان السلطان العثمانى فى وسط جيشه، بينما كانت الميمنة تحت قيادة الصدر الأعظم سنان باشا، أما الجناح الأيسر فكان تحت قيادة الوزير الثانى يونس باشا . وبدأت المعركة وكانت كفة المماليك راجحة لعدة مرات إلا أن العثمانيين حققوا النصر فى النهاية .

---

(١) عبد المنعم ماجد : المرجع السابق . ص ١٥٣ - ١٥٤ .

ويفسر البعض هذا النصر بأن العثمانيين كانوا قد أدركوا وفهموا طبيعة المدافع المملوكية التى لا تتحرك إلى الخلف بسهولة على عكس المدافع العثمانية، لذا قام سليم بتحريك عدد من جنوده فى مواجهة جيش المماليك بينما وجه العدد الأكبر منهم جنوبى الموقع الذى تحصن فيه المماليك، ثم راحت العساكر العثمانية تهاجم المماليك من جبل المقطم [١] .

وإزاء هذه الهزيمة فر طومان باى بعد أن حارب فى شجاعة نادرة إلى طرة، ودخلت الجنود العثمانية القاهرة فى اليوم التالى للمعركة وراحت تعيث فيها فساداً لمدة ثلاثة أيام . وقد حاول طومان باى أن يلم شعثه فقام ببعض الهجوم وأحرز نجاحاً مؤقتا داخل القاهرة، لكنه لم يستمر لأنفضاض المماليك من حوله .

وعقب معارك القاهرة إختفى طومان باى، ثم هرب إلى الصعيد، ويقال إنه فكر فى أن يبعث برسالة للسلطان سليم لطلب العفو لكنه تراجع . واستأنف العثمانيون قتال طومان باى فى البر الغربى للنيل وهزموه ففر إلى دهشور وظل يناوش العثمانيين ويلحق بهم بعض الخسائر . وقد عبر سليم نهر النيل، واستعد لمعركة فاصلة مع طومان باى فى يوم السادس والعشرين من مارس عام ١٥١٧م نجح من خلالها فى إلحاق الهزيمة بطومان باى، فهرب الأخير بعد هزيمته للمرة الثالثة إلى الدلتا فى بلدة سخا بالغربية عند الشيخ حسن مرعى، لكن الأخير حدثته نفسه بالخيانة فأبلغ السلطان سليم بوجود طومان باى مختبئاً عنده فبعث إليه بفرقة من جنوده تمكنت من القبض على طومان باى . ويقال إن السلطان سليم أخذ يتأمله معجباً بشجاعته وأجلسه على العرش الذى أعد بجواره وتحدث معه بأسلوب لين رقيق رغبة فى الإفادة من خبرته وضمه إلى صفوف العثمانيين . وقال له « والله مثل هذا الرجل لا يقتل »، لكن يبدو أن صدر

---

(١) أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق . ص ١٩١ .

السلطان سليم قد أوغر من جانب خاير بك وجان بردى الغزالى حين علما أن سليماً ينوى البقاء على طومان باى فاستطاعا التأثير عليه فوافق على إعدامه فى يوم الثالث عشر من أبريل عام ١٥١٧م على باب زويلة .

وهكذا يسدل الستار على دولة المماليك بعد أن استبسل آخر سلاطينها طومان باى فى الدفاع عن مصر إلا أنه – فيما يبدو – قد طلب المستحيل حين جعل الشجاعة وحدها تقف أمام سلاح البارود، لكنه ترك أثراً طيبا فى نفوس المصريين حين قاتل بإخلاص وضرب مثالاً طيباً للشجاعة حتى آخر رمق فى حياته .

جـ - ضم الحجاز :

إذا كان فتح الشام ومصر من جانب العثمانيين قد تم نتيجة صدامات عسكرية مع المماليك فإن ضم الحجاز قد جرى سلميا وتلقائيا، واستبدل الحكم المملوكى بالحكم العثمانى؛ ذلك أن شريف مكة زين الدين بركات قدم الطاعة للسلطان العثمانى وجاء ابنه (أبونمى) إلى القاهرة فى يوليه عام ١٥١٧م ليسلمه مفاتيح الأماكن المقدسة والآثار النبوية الشريفة الموجودة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة، فأقر سليم حكم الحرمين الشريفين على ما هو عليه، وكتب رسالة إلى الشريف بركات مع إبنه أبى نمى تتضمن الموافقة على أن يكون حكم مكة فى الشريف بركات وابنه الأكبر محمد من بعده[١] .

والواقع أن الحكم المملوكى فى الحجاز لم يكن حكماً مباشراً، بل كان يقوم بواسطة نظام الشرافة الذى تولاه أشراف مكة وظلوا يحكمون بأسم السلطان المملوكى فى مصر .

وكان يتم إختيار الشريف من بين كبار الأشراف فى الحجاز ويقوم السلطان فى مصر بتثبيته فى منصبه . وامتدت سلطة الشريف إلى كافة

---

(١) أحمد فؤاد متولى : المرجع السابق ٢٢٩ .

أرجـاء الحـجـاز فى مكة المكرمـة والطائـف وجـده والمدينة المنورة . وقـد إعتبرت مسألة تأمين قوافل الحج من أكبر وأخطر المهام التى اضطلع بها شريـف مكة . ومن جانب آخر كان مماليك مصر يرسلون فى كل عام إلى شريف مكة الأمـوال والغلال لتوزيعهـا على فقراء مكة المكرمة والمدينة المنورة، فضلاً عن المرتبات والهدايا لأشراف الحجاز[١] .

ويمكن حصر العوامل التى أدت إلى بسط العثمانيين سيطرتهم على الحجاز فى عاملين رئيسيين :

الأول : ويتمثل فى العامل الدينى، ذلك أن دخـول الحجاز فى حوزة العثمانيين وبسط السيادة عليه كان يعد إنتصاراً عظيماً للسلطان سليم الأول وتأكيداً للزعامة العثمانية على العالم الإسلامى لا سيما بعد إضمحلال وزوال بقية القوى الإسلامية الأخرى مثل الصفويين الذين أصبحوا قوة من الدرجة الثانية، والمماليك الذين اختفوا من المسرح السياسى . وعلى هذا النحـو كـان حـرص السلاطين العـثمـانيين على لقب حـامى حـمى الحرمين الشريفين وعدم احتفائهم بلقب (الخليفة) إبان القرون الأولى لفتح العالم الإسلامى حتى جاء القرن الثامن عشر ولأسباب تتعلق بالأمن الداخلى والخـارجى فكروا فى إعادة لقب الخلافة . واضافة إلى ذلك كله إقترن الدعاء فى خطبة الجمعة للسلطان سليم فى مساجد مصر بلقب خادم الحرمين الشريفين الأمر الذى يؤكد الحرص الشديد على الظهور بمظهر دينى كسباً للزعامة على العالم الإسلامى .

أما العامل الثانى فهو عامل استراتيجى للوقوف فى وجه البرتغاليين الذين سيطروا على مياه جنوب الجزيرة العربية واحتكروا التجارة فى تلك

---

(١) فائق بكر الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية وأقليم الحجاز (١٨٧٦ - ١٩١٦) ص٣٩ .

المناطق . والجدير بالذكر أن الوجود العثماني في الحجاز قد زاد من الانتباه للخطر البرتغالي ومن ثم ظهرت سياسة جديدة أصبحت ترتكز على أساس واحد هو انقاذ البحر الأحمر من هذا الخطر الزاحف من المحيط الهندي بهدف إحياء تجارة الشرق في البحر الأحمر .

د - فتح *اليمن* :

في أعقاب إستيلاء السلطان سليم الأول على مصر عام ١٥١٧م، أدرك العثمانيون أهمية اليمن الإستراتيجية ولا سيما بالنسبة لنزاعهم مع البرتغاليين إلا أن هذا الاهتمام كان يسير بخطى بطيئة طوال عشرين عاما بعد وصولهم إلى مصر . وخلال هذه السنوات التي سبقت عام ١٥٣٨م إمتد نفوذ العثمانيين إلى سواحل البحر الأحمر حتى اليمن جنوباً سلميا حين اعترف المماليك هناك بالتبعية العثمانية، وأعلن الأمير اسكندر في صنعاء خضوعه للسيادة العثمانية . وتعبيراً عن هذا الخضوع أرسل هدية كبيرة إلى السلطان سليم من خلال مبعوثه إلى القاهرة في يوليه عام ١٥١٨ فقام السلطان سليم بتثبيته في الحكم وأمر بإقامة الخطبة له وضرب السكة باسمه، واستمر هذا الوجود الشكلي الضعيف حتى عام ١٥٣٨م .

الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨ :

إرتبط الفتح العثماني الأول لليمن عام ١٥٣٨م بعاملين رئيسيين أحدهما خارجي والآخر داخلي . أما الخارجي فقد تمثل في الخطر البرتغالي الذي وصل إلى المياه الجنوبية لشبه الجزيرة العربية والسيطرة على مدخل الخليج العربي في هرمز ومدخل البحر الأحمر في سوقطرى ومن ثم بدأ هذا الخطر ينتشر شمالاً الأمر الذي هدد الأراضي المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة . وعلى هذا النحو وبعد فتح مصر مباشرة وجد العثمانيون أنفسهم مضطرين إلى الدفاع عن البحر الأحمر .

وأما العامل الداخلى فكان يرتبط بضعف القوة المملوكية فى اليمن والصراع الدائم والطويل بين قوى ثلاث : الزيديون، والأسرة الطاهرية، والمماليك . وكان ذلك كله مشجعاً للعثمانيين لوضع حد لهذا الصراع وهذا الضعف . ولم تكن قوة المماليك ذات شأن كبير ومؤثر، حيث تركزوا فى (زبيد) والمناطق التهامية المحيطة بها، وانقسموا فيما بينهم إلى شيع وأحزاب، وتنازعوا السلطة وبالتالى انشغلوا عن المشاركة فى أحداث اليمن [١] .

أما الطاهريون من أسرة السلطان عامر بن عبد الوهاب فقد توالت هزائمهم وتمركزوا فى النهاية فى عدن . وعقب سقوط السلطان عامر لم تبرز إلى المسرح السياسى شخصية ذات وزن . وهناك دوافع أخرى فتت فى عضد الطاهريين كالجمود الذى سيطر عليهم وتحول طريق التجارة منذ وصول البرتغاليين إلى المياه الجنوبيه للجزيرة العربية وبالتالى ضعفت إيراداتهم .

وأما القوة الثالثة فتمثلت فى الزيديين الذين مدوا نفوذهم إلى جهات اليمن المختلفة بعد سقوط السلطان عامر .

وقد نجح الإمام شرف الدين فى توحيد صفوف الزيديين ومد نفوذه إلى أقصى جنوب اليمن بحيث أنهم أصبحوا القوة السياسية الرئيسية التى واجهت العثمانيين فى اليمن عام ١٥٣٨ . ويعد الإمام شرف الدين من زعماء الزيدية البارزين فى القرن السادس عشر، وأصبحت له الكلمة العليا عقب سقوط السلطان عامر بن عبد الوهاب . وقد اتخذت الجهود الحربية لهذا الإمام وجهتين : الأولى هى الصدام ضد الطاهريين فى الجنوب، والثانية الصدام ضد القوى الزيدية الأخرى فى شمالى اليمن . فعلى الرغم

---

(١) السيد مصطفى سالم : الفتح العثمانى الأول لليمن (١٥٣٨ - ١٦٣٥) ص ٩٧ - ١١٣ .

من وحدة المذهب بينهما إلا أن تضارب المصالح الاقتصادية والسياسية قد لعب دوراً كبيراً فى تأجيج الصراع بينهما .

تكونت الحملة التى أعدها العثمانيون لفتح اليمن من ثمانين سفينة وعشرين ألف جندى يقودها سليمان باشا الخادم فى يونيه عام ١٥٣٨ . وكانت خطة العثمانيين تهدف إلى السيطرة على سواحل البحر الأحمر كمقدمة لإرسال أسطول إلى الهند، ولذلك بدأ سليمان إتصالاته بالأمراء على طول سواحل البحر الأحمر خاصة أمراء اليمن فى (عدن) و (شحر) طالبا إليهم الدخول تحت مظلة الدولة العثمانية . وقد قبل سلطان شحر ذلك بينما راوغ سلطان عدن السلطان عامر بن داود رسول سليمان الخادم فرحات الصوباشى .

إنطلقت الحملة من ميناء السويس فوصلت إلى ميناء عدن فى الثالث من أغسطس عام ١٥٣٨ واستولت عليه غدراً، إذ كان عامر بن داود قد استقبل الحملة، وحصل الجنود على كل حاجتهم من الطعام والمؤن، لكنهم بعد ذلك كله أعملوا السلب والنهب . ورغم الحفاوة التى استقبل بها سليمان باشا الخادم من جانب السلطان عامر والخلع التى خلعها سليمان على الأخير، فإن سليمانا أمر بشنق عامر بن داود ومن معه، وسيطر على عدن فى الثامن من اغسطس عام ١٥٣٨ .

وبعد الإستيلاء على عدن انطلقت الحملة إلى (ديو) قرب سواحل الهند لكنها فشلت فى تحقيق هدفها هناك وعادت لإتمام فتح سواحل اليمن إكمالاً للخطة العثمانية .

وعقب القضاء على الطاهريين فى عدن والمماليك فى زبيد إتجه العثمانيون إلى القوة الثالثة فى اليمن وهى قوة الإمامة الزيدية فاتخذ سليمان باشا سياسة ذات شقين تجاه الإمام شرف الدين زعيم الزيدية،

الشق الأول منها تمثل فى محاولة استدراج الإمام شرف الدين كما فعل سليمان الخادم مع عامر بن داود، إلا أنه فشل فى ذلك . والشق الثانى محاولة سليمان الخادم الإستيلاء على تعز وأقاليمها لربط الممتلكات العثمانية فى اليمن، أى بين زبيد وعدن لكنه فشل مرة ثانية حيث تمكنت تعز من صد الهجوم العثمانى . ومع ذلك كله يمكن القول بأن سليمان الخادم قد نجح فى إحكام سيطرة العثمانيين على مدخل البحر الأحمر الجنوبى، وتحصين جزيرة (كمران)، وكذلك إخضاع ميناء (جيزان) للسيادة العثمانية وتحصينه أثناء عودته إلى جدة بعد أن كان خاضعاً لسيطرة أشراف مكة قبل وصول سليمان باشا .

وهكذا نجح العثمانيون فى إخضاع السواحل اليمنية من جيزان شمالاً إلى عدن والشحر جنوبا، أما جهات اليمن الداخلية فقد ظلت تحت السيطرة الزيدية بزعامة الإمام شرف الدين [١] .

الفتح العثمانى الثانى لليمن (١٥٦٩ - ١٥٧١) :

أصاب الوجود العثمانى فى اليمن إنهيار كبير حيث تم إخراج العثمانيين من أقاليم اليمن عدا زبيد . ويرجع هذا الإنهيار إلى عدة أسباب . أولها الخلل الذى أصاب أنظمة الدولة العامة فى أواخر عهد السلطان سليمان الأمر الذى أدى إلى ظهور بعض الولاة الضعفاء الفاسدين فى اليمن، وثانيها التخبط الذى شاب سياسة الولاة الذين كان كل همهم جمع الثروات الخاصة مما أدى إلى سوء أحوال الأهالى والجنود .

وثالث هذه الأسباب يعود إلى قوة الإمامة الزيدية التى تمثلت فى شخصية (المطهر) الذى تغلب على منافسيه من الأشراف ممن أعلنوا إمامتهم . وقد تمتع المطهر بشخصية قوية وحنكة سياسية وعسكرية، فاحتفظ للإمامة بقوتها رغم الإنقسام الأسرى [٢] .

---

(١) السيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ١٤٩ وما بعدها .
(٢) نفس المرجع . ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

وقد تم الفتح العثمانى الثانى لليمن من خلال تلك الحملة التى قادها سنان باشا فى يناير عام ١٥٦٩ حين أبدى الباب العالى إهتماماً بإرسال حملة كبيرة إلى اليمن فى محاولة لاستعادة السيطرة عليه ولا سيما السواحل اليمنية نظرا لأهميتها الاستراتيجية فى النزاع بين العثمانيين والبرتغاليين .

ويمكن تقسيم حملة سنان باشا إلي ثلاث مراحل . المرحلة الأولى وفيها تم سقوط تعز أو منطقة الجنوب بما فى ذلك عدن، والثانية جرى خلالها إخضاع وسقوط الهضبة اليمنية حتى صنعاء شمالاً . والثالثة جرى خلالها صدام مباشر بين سنان باشا والمطهر عند (ثلا) دون تحقيق نتائج هامة إلى أن تم عقد الصلح بينهما ومغادرة سنان باشا لليمن .

ويرى البعض أن مسارعة سنان باشا إلى عقد الصلح ترجع إلى عوامل داخلية وأخرى خارجية . فأما الداخلية فتكمن فى اشتداد المقاومة اليمنية، واضطراب الأحوال عامة فى اليمن . وأما الخارجية منها فتتمثل فى تخاذل والى مصر اسكندر باشا الشركسى (١٥٦٨ - ١٥٧١) فى معاونة سنان باشا وإمداده بما يحتاج إليه من الرجال والمال [١] .

وهكذا أعادت هذه الحملة التى قادها سنان باشا سيطرة العثمانيين على اليمن، وأصبحت بداية لمرحلة جديدة وطويلة للوجود العثمانى فى اليمن استمر فيها حتى عام ١٦٣٥م .

هـ - فتح العراق :

سبق أن تناولنا النزاع بين الشاه إسماعيل الصفوى والسلطان سليم الأول وما انتهى إليه هذا النزاع فى جالديران عام ١٥١٤م من هزيمة للشاه الصفوى وخضوع الجزء الشمالى من العراق فى الموصل وديار بكر

(١) السيد مصطفى سالم : المرجع السابق ص ٢٤٦ - ٢٧٦ .

للعثمانيين، والتى ظلت قبضة العثمانيين عليها ضعيفة . أما الأجزاء الوسطى والجنوبية فقد ظلت فى أيدى الفرس حيث كان حاكم بغداد يعين من قبل الشاه الفارسى، كما كان النزاع حول منصب حاكم بغداد الذى عرف باسم (الخان) مدعاة لقيام صراع بين العثمانيين والصفويين على العراق . وقد حدث فعلا أن أرسل أحد حكام بغداد - ويدعى ذو الفقار فى أعقاب وصوله إلى حكم بغداد - إلى السلطان سليمان يطلب منه الحماية وقبول تبعيته . كذلك فقد قام الشاه طهماسب الذى خلف أباه إسماعيل عام ١٥٢٤ بمهاجمة بغداد فى سنة ١٥٣٠م فى محاولة لإعادتها إلى حوزته لكنه فشل فى بادئ الأمر إلى أن تمكن فى المرة الثانية وعن طريق الخيانة أن يستردها ويسلمها إلى محمد خان ليحكم فيها باسم شاه الفرس .

ومما زاد من حدة العداء الفارسى العثمانى إتصال شاه الفرس بملك المجر لإقامة جسر من التعاون ضد السلطان العثمانى عدوهما المشترك . وإضافة إلى ذلك كله هناك حوادث الحدود بين فارس والدولة العثمانية ووجود قبائل الأكراد المتأرجحة فى ولائها بين الطرفين الأمر الذى جعل السلطان سليمان يفكر فى أن يضع حداً للصراع العثمانى الفارسى فى العراق، لا سيما وأن مراسلات من جانب أهل السنة قد وصلت إلى السلطان العثمانى تطالبه بسرعة التدخل لإنقاذهم من الحكم الشيعى .

وفى عام ١٥٣٤م قاد السلطان سليمان القانونى يصاحبه الصدر الأعظم إبراهيم باشا حملة كبرى على العراق إستولت عليه .

وقد اتبع السلطان سليمان سياسة دينية معتدلة وتجنب الإساءة إلى الشيعة، بل إنه قام برحلة فى أرجاء العراق زار فيها كثيراً من أضرحة الشيعة، وأوقف مقاطعات لها إضافة إلى مقاطعات أخرى للسنة، كما لاقى قبر أبى حنيفة عناية فائقة من جانبه حين أعاد بناءه بعد أن هدمه الشيعة، كما زار العتبات المقدسة فى الفرات الأوسط . وهكذا أرضى

سليمان طرفى المذهبين الشيعى والسنى لا سيما وأن العراق كان موزعاً توزيعاً يكاد يكون متساوياً بين الطرفين .

وأثناء وجود السلطان سليمان بالعراق أعلن حاكم البصرة الولاء له حيث جاء ولده راشد بن مغامس إليه يحمل رسائل الخضوع فتم الحاق البصرة بالممتلكات العثمانية لتصبح إيالة عثمانية، وتم تعيين راشد عليها . وظل الحال هكذا حتى إستولى العثمانيون على البصرة عام ١٥٤٦م [١] .

قسم العثمانيون العراق إلى أربع ولايات أو إيالات وهى : الموصل، وشهر زور (كردستان)، وبغداد، والبصرة التى كانت تمتد حتى الإحساء.

ولم يكن الفتح العثمانى للعراق نهاية للنزاع بين الفرس والعثمانيين بل تعرض العراق للسقوط فى أيدى الفرس أكثر من مرة. ففى عام ١٦٣٣ عاد العراق للحكم الفارسى واستمر حتى عام ١٦٣٨ حين جهز السلطان مراد حملة زحف بها على العراق وحاصر بغداد وأعاد العراق مرة أخرى للحكم العثمانى. وقد جرت محاولات من جانب الشاه (نادر شاه) بعد سقوط الدولة الصفوية حيث جرد حملة إلى العراق لكنها فشلت . وتجددت الحروب مرة أخرى فى عهد نادر شاه واستمرت مع باشاوات الدولة العثمانية من سنة ١٧٤٣ حتى وفاة نادر شاه عام ١٧٤٧ إلى أن تم عقد صلح بين الطرفين حول الحدود بينهما فدخل العراق ضمن نطاق الأمبراطورية العثمانية وتم وضع نهاية للصراع العثمانى الفارسى حول العراق [٢] .

العثمانيون وشمالى افريقيا:

إرتبط التوسع العثمانى فى شمالى افريقيا بالصراع الذى دار بين

---

(١) عبد العزيز نوار : المرجع السابق . ص ٧٧ .
(٢) محمد أنيس : المرجع السابق . ص ١٣٣ .

المسلمين والمسيحيين فى الحوض الغربى للبحر المتوسط فى اوائل القرن السادس عشر، ولم يكن هذا التوسع مرتبطا بحملات عسكرية كالتى دارت مع الصفويين والمماليك . ذلك أن المسلمين فى الأندلس - كما هو معروف - قد أصابهم الوهن وراحت دولتهم تتلاشى وتختفى من الوجود، وفى نفس الوقت كان يبرز إلى الوجود كيان سياسى جديد فى الأندلس، مع سقوط غرناطة آخر معقل للمسلمين فى عام ١٤٩٢م فى ايدى فرديناند وإيزابيلا .

ولم يكتف الملوك الكاثوليك بهذا الإستيلاء، بل راحوا يتتبعون المسلمين الفارين إلى شمالى افريقيا الذين قاموا بتأسيس مستوطنات على طول سواحل افريقيا الشمالية، وبدأوا يعدون العدة للإنتقام من مضطهديهم عن طريق الإغارة على سواحل اسبانيا ومهاجمة السفن المسيحية لا سيما فى مضيق جبل طارق والأجزاء المحيطة بجزيرة مالطة، وأصبحت المنطقة الممتدة من جزيرة (جربة) فى الشرق إلى (سالى) غربا تضم أساطيل حربية [١] .

وفى المقابل كان الأسبان يشنون هجماتهم على شمالى افريقيا . ويرى البعض أن الأسبان بعد أن تمت وحدة دولتهم عمدوا إلى التوسع ولا سيما فى شمالى افريقيا المواجه لأسبانيا، وكانوا يرمون إلى أكثر من هدف: الإنتقام من حكام شمالى افريقيا الذين قاموا بإيواء المسلمين الفارين، والقضاء على الإسلام فى هذه المناطق إنتقاما من المسلمين الذين كانوا يحتلون بلادهم من قبل، بالإضافة إلى توطيد النفوذ الاسبانى فى البحر المتوسط وانتزاع التجارة الشرقية من أيدى العرب والتى كانت تدر ربحاً وفيراً [٢] .

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى . ص ٩٢، أنظر أيضا :
Bowill; The golden trade of the Moors. p.208.

(٢) محمود صالح منسى : تاريخ العرب الحديث والمعاصر . المشارقة والمغاربة ، ص ١٤ .

وقد أرسل فرديناند – ملك الأسبان – حملة إلى « المرسى الكبير » حيث جرى الإستيلاء عليه فى عام ١٥٠٥م، بالإضافة إلى وهران عام ١٥٠٨، وبجاية عام ١٥١٠، وطرابلس عام ١٥١٠، وبذلك أصبح الشمال الافريقى تحت رحمة الأسبان .

أما وقد أصبحت الحالة هكذا بين الطرفين فقد جرت تلك المعارك الطاحنة بينهما واتخذت من منطقة البحر المتوسط مسرحاً لها . ويحلو للبعض أن يصف هذه العمليات العسكرية التى قام بها مسلمو شمالى افريقيا بالقرصنة . والواقع انها لم تكن كذلك بل هى جهاد بحرى إسلامى مشروع وكفاح ضد الإستعمار الصليبى الذى تزعمه الأسبان الكاثوليك الذين كانوا يهدفون إلى نشر المسيحية فى شمالى افريقيا وإقامة امبراطورية كاثوليكية .

وقد تزعم حركة الجهاد الإسلامى فى شمالى افريقيا الأخوان عروج، وخير الدين باربروسا، وكانا من أصحاب السفن الحربية فى البحر المتوسط الذين سخروا قوتهم فى خدمة قضية إخوانهم الفارين من الأندلس والدفاع عن شمالى افريقيا لاسيما إذا أخذنا فى الإعتبار أن هذه المناطق كانت تعيش فى حالة من الضعف والتفكك الشديدين حيث كانت تحكمه آنذاك ثلاث دويلات هى : الدولة الحفصية فى تونس، ودولة بنى زيان فى الجزائر، ودولة بنى مرين فى مراكش، وكان الخلاف بينها مستمراً، بل وصل الحال إلى وجود نزاعات داخل الدولة الواحدة نفسها، كما كانت هناك إمارات بربرية صغيرة تتنازع فيما بينها . وهكذا كان الضعف يسرى فى أوصال المنطقة وهى تواجه عدواً فتيا شرساً ومتعصباً .

تزعم عروج فى بادئ الأمر حركة الجهادووضع إمكاناته رهن الأسرة الحفصية فى تونس والتى كان على رأسها آنذاك محمد بن الحسن (١٤٩٤ – ١٥٢٦) . ويبدو أن الخلاف قد دب بين الطرفين فاستولى

عروج على (جيجل) لتكون قاعدة بحرية بدلا من جزيرة (جربة)، وجمع فيها الكثير من المتطوعين . ثم بدأ فى عام ١٥١٠ يمارس نشاطه من خلال أسطوله الذى تكون من عشر سفن، واكتسب شهرة كبيرة فى جهاده ضد الاسبان وقد استطاع عروج عام ١٥١٦ أن ينجح فى صد هجوم اسبانى على ميناء الجزائر وتهديد الحصون التى أقامها الاسبان قبالة الساحل من خلال الهجمات التى شنها عليها . وهكذا استطاع عروج فى هذه المنطقة أن يوطد حكمه ويبسط نفوذه على أقاليم المغرب الأوسط، بل تمكن فى عام ١٥١٧ أن يمد نفوذه إلى تلمسان عاصمة الدولة الزيانية ويقضى على حكمهم، ويضع حاميات فى منطقتى « ميديا » و « مليانة » ويمد سيطرته إلى حدود المغرب الأقصى . وازاء ذلك كله استنجد الزيانيون بالاسبان فأرسلوا حملة إلى سواحل الجزائر تمكنت من محاصرة تلمسان، فسقط عروج أسيراً ثم قتل فى عام ١٥١٨ .

تابع خير الدين بارباروسا Barbarossa حركة الجهاد التى كان يقودها أخوه عروج، لكنه أدرك أن الصراع ضد القوى الأجنبية فى حاجة إلى قوة إسلامية كبرى، فوجد ضالته فى الدولة العثمانية التى كانت فى أوائل القرن السادس عشر دولة فتية ذات قوة حربية . وكانت أوربا المسيحية تعمل لخير الدين بارباروسا ألف حساب نظراً لقوة أسطوله البحرى . وكان خير الدين – فى أعقاب استيلاء السلطان سليم الأول على مصر – قد طلب مساعدة العثمانيين، فأرسل إليه سليم الفين من الجنود الإنكشارية، وسمح له بجمع البحارة من الأناضول ومنحه لقب (بكلربك) أى كبير البكوات فى شمالى افريقيا، ونصبه على رأس أسطول فى غربى البحر المتوسط، الأمر الذى جعل البعض يعتبر أن ذلك بداية لإنضمام إقليم المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية [١] .

---

(١) جلال يحى : المغرب الكبير ص ٢٣ – ٢٤ .

وقد واجه خير الدين بارباروسا خطرين : الأول داخلى تمثل فى تلك القيادات القديمة فى بلاد المغرب لا سيما بعد حدوث تقارب بين خير الدين وبين الدولة العثمانية خشية القضاء على نفوذ هذه القيادات . والثانى كان يتمثل فى خطر الأمبراطورية الاسبانية التى كان يقودها الملك شارل الخامس الذى سعى حثيثاً لغرض هيمنته على أوربا والعالم . وقد استطاع خير الدين أن يوجه ضربات إلى القوى الداخلية المعارضة التى تحالفت مع الأعداء للقضاء عليه . وفى نفس الوقت سعى شارل الخامس إلى التعاون مع الأمراء الحفصيين للإستيلاء على تونس عام ١٥٣٥م . وقد رد خير الدين على هذه الحملة بحملة مماثلة على جزائر البليار حيث تم أسر ستة آلاف فرد عاد بهم إلى الجزائر التى أصبحت منذ عام ١٥٢٩ مركزاً للمجاهدين . وعلى هذا النحو يمكن القول بأن انتصار شارل الخامس فى الموانئ الواقعه شرقى مدينة الجزائر عديم الأهمية لوقوعه بين « قوات الجزائر فى الغرب، وقوات الدولة العثمانية فى الشرق »[١] .

ومن الجدير بالذكر ان السلطان سليمان قد أسند إلى خير الدين منصب (قبودان باشى) الأسطول العثمانى ومنحه القيادة للأساطيل العثمانية فقام خير الدين بتوحيد شمالى افريقيا واحتل تونس وطرد منها حليف الأسبان المولى حسن . وعلى هذا النحو أصبح خير الدين رئيساً لدولة متحدة مع الأمبراطورية العثمانية والحارس الأمامى للدولة العثمانية والعالم الإسلامى فى حوض غربى البحر المتوسط .

وقد استطاع الأسطول العثمانى بقيادة بارباروسا أن يقوم بنشاط كبير فى البحر المتوسط فهاجم سواحل اسبانيا وجزائر البحر المتوسط، وسواحل شبه الجزيرة الإيطالية، حيث استولى على جزائر بحر إيجه من البندقية،

---

(١) نفس المرجع . ص ٢٥ .

كما هاجم السفن البرتغالية والاسبانية القادمة من العالم الجديد . وكان خير الدين يؤدى هذه المهام على اعتبار أنه قبودان للاسطول العثمانى .

وقد توفى خير الدين فى عام ١٥٤٦ ، وأسند السلطان منصب بكلربكية الجزائر إلى ابنه حسن باشا الذى بدأ يواجه أخطارا عدة من جانب كل من الأسبان فى وهران، والأسرة الزيانية فى تلمسان والتى كانت تتأرجح فى ولائها بين العثمانيين والأسبان، ثم اخيراً الأسرة السعدية فى مراكش .

وفى مجال حركة الجهاد البحرى ضد الخطر الأسبانى ترددت أسماء كثيرة لأولئك الذين حملوا راية الجهاد الإسلامى فى شمالى افريقيا من أمثال (دارغوث) وصالح ريس، والعلج على الذى إستطاع تصفية القواعد الاسبانية فى تونس عام ١٥٦٩م .

وأمام النشاط الجهادى الإسلامى فى شمالى افريقيا واستيلاء العثمانيين على قبرص ظهر حلف مضاد بقيادة البندقية التى عقدت تحالفا مع البابوية والأمبراطورية الرومانية المقدسة، والتقى الطرفان فى معركة بحرية عند (ليبانتو) عام ١٥٧١م هزم فيها الأسطول العثمانى ثم استولت اسبانيا على تونس فى عام ١٥٧٣ وأعادتها للحفصيين الا أن العلج على استطاع فى العام التالى ١٥٧٤ ان يخرج الأسبان وحلفاءهم الحفصيين من تونس نهائيا .

ويبدو أن العثمانيين بعد إستردادهم لتونس تطلعوا إلى ضم مراكش لكنهم لم ينفذوا مشروعهم لأن المغاربة كانوا قد أحرزوا النصر على البرتغاليين فى معركة (وادى المخازن) عام ١٥٧٨ الأمر الذى جعلهم محل تقدير العثمانيين، فتوقفت الحملة ضدهم، بالإضافة إلى ظهور

شخصية المنصور السعدى الذى إتسم بقوة الشخصية فى منطقة المغرب الأقصى [١] .

وهكذا خضع شمالى افريقيا كله - عدا مراكش - لحكم الدولة العثمانية، وطبق فيه نظام الولايات فى كل من طرابلس وتونس والجزائر .

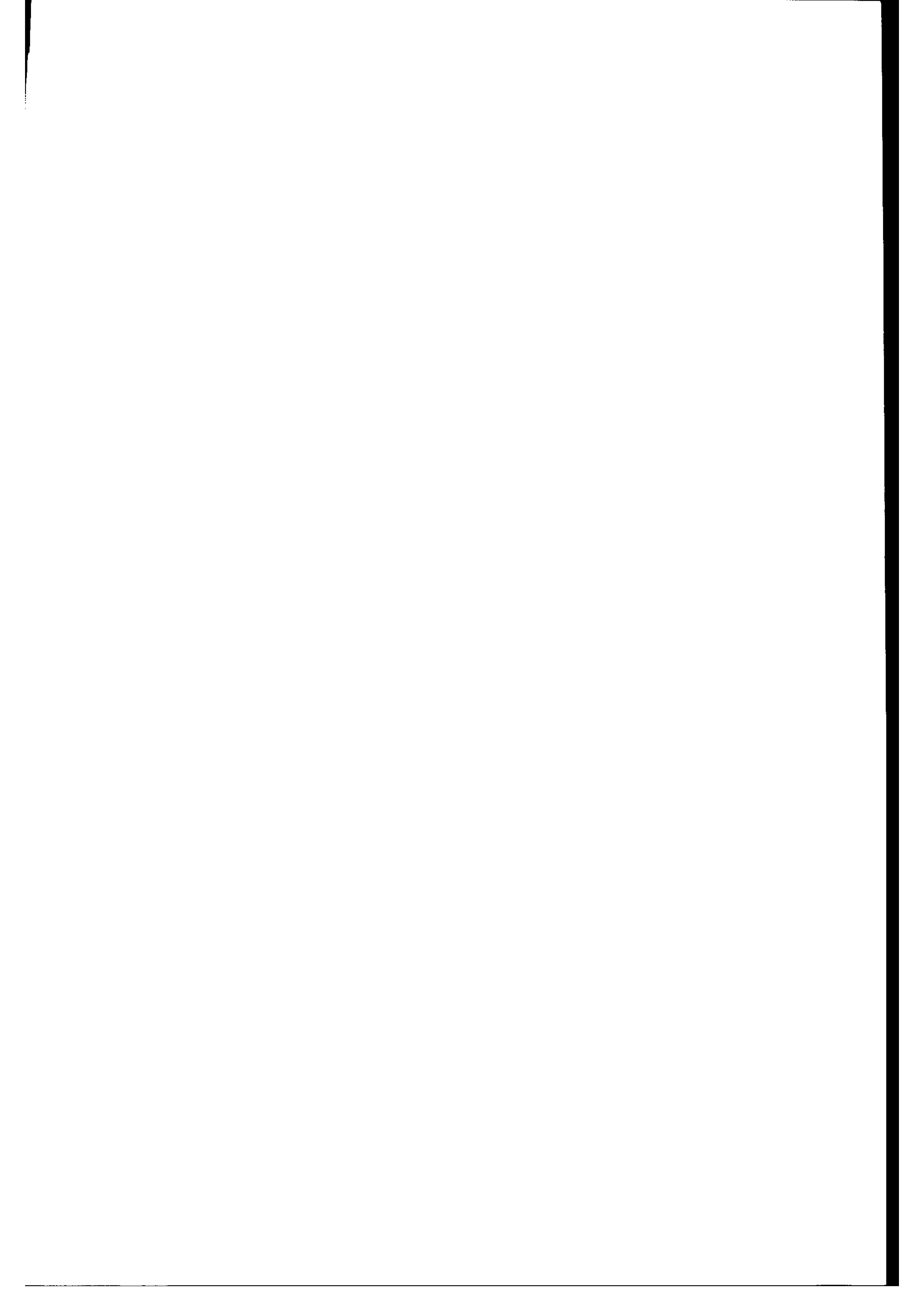
---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العرب الحديث . ص ٦٨ .

مراجع الفصل الأول

- ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور .
- ابن زنبل الرمال : آخرة المماليك .
- أحمد عبدالرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني .
- أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام و مقدماته من واقع الوثائق و المصادر العربية المعاصرة له .
- جلال يحيي : المغرب الكبير .
- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية : الأرض و الفلاح .
- السيد مصطفى سالم : الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨-١٦٣٥) .
- عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها .
- عبدالعزيز نوار : تاريخ العرب الحديث .

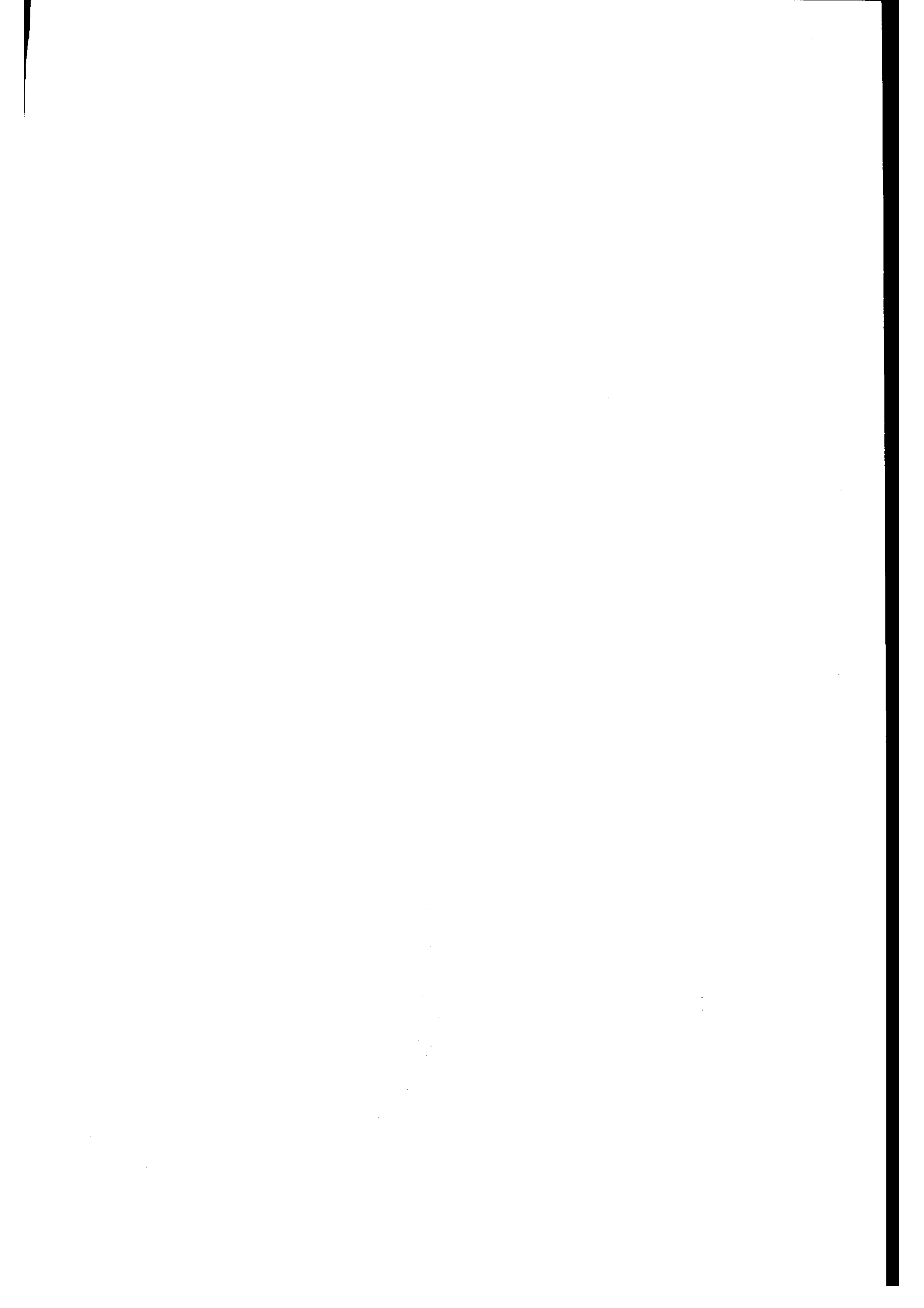
عبدالمنعم ماجد : طومان باي أخر سلاطين المماليك .
- فائق بكر الصواف : العلاقات بين الدولة العثمانية و أقليم الحجاز .
- محمد أنيس : الدولة العثمانية و الشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤) .
- محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ترجمة د. أحمد سعيد سليمان .



الفصل الثاني

العالم العربي بين الفكر الديني والاتجاه القومي

- محمد بن عبد الوهاب ودعوته .
- السنوسية فى ليبيا .
- المهدية فى السودان .
- ثورة محمد بن عبد الله فى الصومال .
- الجامعة الإسلامية .
- التيار القومى العربى .



الأهداف :

- التعرف على الفكر الديني السائد في القرن التاسع عشر في العالم العربي .

- الدور الذي لعبته الحركات و الثورات الدينية في العالم العربي للوقوف في مواجهة العثمانيين و الأخطار الأوربية .

- التعرف على الفكر القومي و عوامل ظهوره و مظاهره في المشرق العربي .



الفصل الثاني

العالم العربى بين الفكر الدينى والإتجاه القومى

إن الباحث فى الحركات الثورية التى عمت العالم العربى والإسلامى فى القرن التاسع عشر يلاحظ بوضوح مدى إرتباطها بالتيار الدينى، والإسلامى منه على وجه الخصوص . إذ يبدو أن هناك تلاحماً حميما بين الأيديولوجية والرؤى الدينية، ولم يكن هذا التلاحم قاصراً على الشرق وحسب، بل برز بشكل جلى فى أوربا العصور الوسطى التى أدمجت علم اللاهوت بكافة الأشكال المعبرة عن الأيديولوجية كالفلسفة والسياسة والقانون وجعلت منها جميعا أقساماً تابعة لهذا العلم – علم اللاهوت – ولهذا أضطرت كل حركة اجتماعية وسياسية أن تتخذ لنفسها شكلاً دينياً حتى تحدث أثرها فى الجماهير المتخمة بالغذاء الروحى وحده ومضطرة إلى أن تقدم لهذه الجماهير مصالحها الخاصة فى إطار دينى .

وسوف نحاول من خلال هذه الفرضية أن نتبين مدى مصداقيتها على حركة الموحدين التى قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية ضد الدولة العثمانية والتى اتخذت من الإطار الدينى الإصلاحى منطلقا لها، وكذلك الحركة الدينية التى قادها السيد محمد بن على السنوسى فى ليبيا والتى لعبت دوراً كبيراً فى التصدى للخطر الأجنبى، ثم الثورة التى قادها محمد أحمد بن عبد الله المهدى فى السودان عام ١٨٨١ والتى نمت وترعرعت فى رحم الصوفية، وأخيراً ثورة السيد محمد بن عبد الله المعروف بمهدى الصومال ضد السيطرة الأوربية فى منطقة القرن الأفريقى . فكل هذه الحركات الثورية ظهرت فى مناخ دينى

إسلامى، تنوعت فيه الأساليب والرؤى، وتوحدت جميعا فى الغاية والهدف وهو الإصلاح الدينى ومقاومة كافة أشكال التسلط .

أولا : الموحدون (*الوهابيون*) فى *الجزيرة العربية* :

تعتبر الدعوة السلفية المعروفة باسم الوهابية أولى الحركات والدعوات السلفية الإصلاحية فى العالم العربى بل والعالم الإسلامى قاطبة .

وقبل أن نخوض فى تفاصيل هذه الحركة يجدر بنا أن نلم فى عجالة بأحوال الجزيرة العربية عامة وخاصة من النواحى الاجتماعية والدينية والسياسية . فمن الناحية الإجتماعية كانت القبيلة هى الركن الأساسى فى البناء الإجتماعى، وكان السكان إما بدواً أو حضرا تحكمهم جميعا الأعراف والتقاليد التى توارثوها . وكان لكل قبيلة شيخ تدين له القبيلة بالسمع والطاعة . ولم تكن حياة الحضر تختلف كثيرا عن سكان البادية وإن تمتعوا بحياة مستقرة، فقد تأثرت حياتهم بحياة البدو لما بينهم من صلات القربى والمصاهرة، والمصالح التجارية .

وأما الأحوال الدينية فى الجزيرة العربية، - خاصة نجد - فقد كانت تسيطر عليها البدع كالتوسل بالقبور وغيرها، وتقديس الأولياء والحج إلى قبورهم والتمسح بأضرحتهم كما كان الحال فى (الجبيله) حيث يوجد قبر زيد بن الخطاب، كذلك الذهاب إلى بعض الأشجار كذكر النخيل المعروف « بالفحال »، والشجرة المسماة باسم شجرة (الذيب) وغير ذلك من الوان البدع . وفيما يتعلق بالحالة السياسية فى نجد إبان منتصف القرن الثامن عشر فكانت تتمثل فى انقسام اقليم نجد إلى عدد من الإمارات الصغيرة المستقلة بشئونها، ولم تكن هناك روابط تجمع بين هذه الامارات بل كان الفتور والجفاء والنزاع هى السمات التى كانت تميز العلاقات فيما بينها [١].

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : الدولة السعودية الأولى ص ٢٠ – ص ٢٧ .

محمد بن عبد الوهاب ودعوته :

ولد الشيخ محمد عبد الوهاب سنه ١١١٥هـ (١٧٠٣م) فى بلدة العيينة بنجد حيث نشأ بها وحفظ القرآن الكريم، كما تلقى العلم عن أبيه الذى تولى القضاء فى بعض بلدان العارض (من أقاليم نجد) .

ويقال إن الإمام محمد بن عبد الوهاب قد قصد المدينة المنورة وأقام بها نحو شهرين ثم عاد إلى بلده واشتغل بدراسة الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، وكان حاد الفهم، شديد الذكاء، سريع الإدراك والحفظ، قوى الرغبة فى العلم . وقد سافر من أجل العلم إلى البصرة والحجاز عدة مرات، وقصد الإحساء التى كانت آنذاك آهلة بالمشايخ والعلماء .

ولما كان محمد بن عبد الوهاب يتخذ من تعاليم الإمام أحمد بن حنبل مرشداً له فى فهم أمور الفقه فقد اتسمت دعوته بالشدة، فلم يكن – كما يذكر البعض – يأخذ بالرخص، واستنكر كثيراً من البدع المتفشية بين المسلمين التى رأى فيها شركاً بالله، ودعا إلى التوحيد وصنف كتابا فى هذا الشأن يسمى (كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد)، وكان يهدف إلى تخليص وتنقية الدين من البدع وطرح كل ما لم يرد فى القرآن الكريم والسنة النبوية من الأحكام والتعاليم، والرجوع إلى فطرة الدين وبساطته الأولى .

إرتكزت هذه الدعوة السلفية على ركنين أساسيين هما : الدعوة إلى التوحيد، والإجتهاد . وبالنسبة للركن الأول أى الدعوة إلى التوحيد، دعا إلى افراد العبادة كلها لله وعدم إشراك أحد معه فى العبادة . فالقول ، لا إله الا الله ، هو نفى لصفة الألوهية عن كل المخلوقات وإثباتها لله وحده، وأن العبادة لا يجب أن تصرف لغير الله وإلا أصبحت شركاً . أما الركن الثانى فكان يتمثل فى الإجتهاد الذى يعلى عنده عدم مخالفة نصوص

القرآن الكريم وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، وآثار السلف الصالح .
وقد أنكر الشيخ على تلاميذه تقليد أحد سوى الأئمة الأربعة : مالك، وأبى حنيفة، والشافعى، وأحمد بن حنبل [١] .

إنتشار الدعوة :

تعاهد الأمير محمد بن سعود والإمام محمد بن عبد الوهاب على التعاون فى نشر الدعوة فى عام ١٧٤٤ . ومنذ ذلك الوقت إتخذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب الدرعية مقراً له يبث منها دعوته، كما بدأ أتباعه ومناصروه يفدون إليها، ومنها أيضا إنطلق رسله ودعاته إلى سائر البلدان.
وقد ظل الأمير محمد بن سعود يناصره حتى وفاته عام ١٧٦٥م، ثم خلفه فى نفس العام إبنه الأمير عبد العزيز بن سعود الذى ناصر الدعوة بشدة فامتد نفوذه السياسى إلى معظم بلاد نجد، وأنحاء الحجاز وأطراف العراق.
وفى عام ١٧٩٢ توفى محمد بن عبد الوهاب وكانت دعوته قد بلغت مبلغاً كبيراً من الإنتشار بين القبائل . وبفضل مساندة عبد العزيز للدعوة نمت واضطردت فامتد نفوذها إلى ولاية البصرة، حتى زحفوا إلى كربلاء واستولوا عليها عام ١٨٠١ وهدموا مسجد الحسين بن على الأمر الذى جعل المسلمين السنة والشيعة - على وجه الخصوص - يضجون من هذه الأحداث، وكانت النتيجة قيام أحد الشيعه باغتيال الأمير عبد العزيز وهو يصلى فى جامع الدرعية عام ١٨٠٣ ليخلفه ابنه سعود بن عبد العزيز الذى واصل الفتوحات حتى حدود مسقط وشواطئ الخليج العربى، كما بعث بجنوده إلى الحجاز لفتحها، ثم دخل مكة منتصراً بعد جلاء الشريف غالب عنها إلى جده عام ١٨٠٣ . وقد بعث سعود إلى السلطان العثمانى سليم الثالث يخبره بهذا الفتح ويطلب إليه منع وصول المحمل من دمشق أو

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٣٨ - ٤٢ .

القاهرة لأن ذلك ليس من الدين فى شئ . وبعد سنتين تم فتح المدينة المنورة . كذلك فقد امتدت الدعوة إلى عسير واليمن والشام وحدود فلسطين .

هكذا بلغ المد السلفى فى شبه الجزيرة العربية وأطرافها، ولم يكن أمام الدولة العثمانية بعد هذه الإنتصارات على ولاتها فى العراق والشام سوى الإستنجاد بمحمد على والى مصر . ففى عام ١٨١١ طلب السلطان محمود الثانى من محمد على أن يعد حملة للقضاء على الموحدين، لكنه تعلل فى البداية ببعض المشكلات التى كانت تواجهه فى مصر إذ أنه كان يمر بمرحلة الهدم والقضاء على الأنظمة القديمة فى مصر وإقامة دعائم جديدة يرتكز عليها بناء مصر الحديثة، لكنه أمام إلحاح الدولة العثمانية إستجاب للنداء وجهز حملة بقيادة إبنه طوسون باشا الذى لم يكن قد تجاوز السابعة عشرة من عمره . وانطلقت الحملة فى الحادى عشر من سبتمبر عام ١٨١١ لتحتل فى اكتوبر ميناء ينبع الذى أصبح قاعدة لانطلاق العمليات العسكرية .

وقد أحيط الجنود المصريون بمناخ شديد الحرارة والجفاف وصحارى شاسعة مما أدى إلى موت الكثير من الجنود، إضافة إلى هجوم القبائل البدوية للدوريات والقوافل، والأهم من ذلك إيمان الموحدين بقضيتهم، وكثرة اعدادهم، لكن الجنود المصريين كانوا يتفوقون فى سلاح المدفعية والفن العسكرى .

ولسنا بحاجة هنا إلى تتبع سير المعارك العسكرية بين الطرفين بقدر معرفة النتائج التى تمخضت عنها . فقد أسفرت حملة محمد على إلى شبه الجزيرة العربية عن نتائج هامة أولها القضاء على الموحدين وتحطيم الدرعية عام ١٨١٨م والقبض على عبد الله بن سعود الذى وصل إلى مصر فى ١٦ نوفمبر من نفس العام ثم سافر إلى الأستانة ليلقى مصيره المحتوم .

ويذكر البعض ان سقوط الدرعية يعود أولاً إلى عدم تكافؤ القوى العسكرية لدى الطرفين، فرغم أن القوات السعودية تفوقت عدداً، لكنها لم تكن تملك أسلحة وأساليب حديثة ومدفعية قوية كالتى إمتلكها محمد على، كذلك فإن النزعة القبلية قد لعبت دورها، فكثير من هذه القبائل التى خضعت لآل سعود كانت دائما تسعى للخروج عن طاعة الدولة ولم تكن هذه النزعة قاصرة على القبائل الحجازية أو الاحسائية بل شملت القبائل النجدية أيضا، فهى نزعة قبلية عامة نجحت قوات محمد على فى استغلالها [١] .

أسفرت حملة محمد على إلى شبه الجزيرة العربية عن نتائج سياسية هامة، تمثلت فى إعادة الهيبة – ولو شكلياً – لخلافة آل عثمان، كما كان إنتصار المصريين أول حجر فى زعامة مصر على العالم الإسلامى فى العصر الحديث، فقد انهالت على محمد على آيات الولاء والاعجاب من جانب كثير من الدول الإسلامية، فأرسل الصفويون إليه صولجانا محلى بالجواهر وأصبح أسمه يتردد فى العالم الإسلامى، كما اكتسب المصريون انصاراً فى الجزيرة العربية لأن ابراهيم باشا كان لا يأخذ « ... زق ماء ولا بلحة ولا قطعة خشب إلا دفع ثمنها مضاعفاً » . كما كان يمنع جنوده من إرتكاب عمليات النهب والسلب التى عادة ما تصاحب الانتصارات العسكرية .

وإضافة إلى ذلك فقد لفت الفتح المصرى لشبه الجزيرة العربية أعين الأوربيين وأثار مخاوف البريطانيين خاصة من هذه القوة الفتية الجديدة التى أصبحت تشرف على طريقى الهند عبر البحر الأحمر والخليج

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق ص ٣٤٤.

العربى، لا سيما وأن محمد على راح يفكر فى المشاركة فى تجارة الهند حين عين له وكلاء فى بمباى .

ورغم كل هذه النتائج التى حدثت فإنه يمكن القول بأن مبادئ الدعوة السلفية التى غرسها الإمام محمد بن عبد الوهاب قد بقيت راسخة فى نفوس بعض اتباعها الذين واصلوا نشرها، وتأثرت بها بعض الأقطار الإسلامية . فمما لا شك فيه أن هذه الدعوة الإصلاحية رغم ما اتسمت به من شدة ظاهرية فى تطبيق مبادئها، فإنها قد ازالت ما علق فى اذهان المسلمين وخاصة عامتهم من أمور الجهالة وأعادتهم إلى النبع الصافى للعقيدة الإسلامية وضربت بشدة على تلك البدع التى مارسها بعض المسلمين وطغت على الأفكار والمبادئ السامية التى دعا إليها الإسلام من إعمال العقل والفكر والبعد عن الخزعبلات .

ثانيا : السنوسية فى ليبيا :

مؤسس الدعوة السنوسية هو السيد محمد بن على السنوسى الخطابى الحسنى الإدريسى المولود فى بلدة مستغانم بالجزائر فى الثانى عشر من ربيع الأول عام ١٢٠٢هـ (الموافق للثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٧٨٧) . نشأ فى بيت علم ضم والده وجده وأعمامه وأبناء أعمامه، وذهب إلى (فاس) وكانت يومذاك قبلة العلماء فمكث فيها سبع سنوات (١٨٢٢ - ١٨٢٩) حتى حصل على المشيخة الكبرى وعين مدرسا بالجامع الكبير فيها . وخلال إقامته بفاس عنى بدراسة الطرق الصوفية كالقادرية والشاذلية والدرقاوية والناصرية والحبيبية والجزولية وغيرها، كما زار كثيراً من الزوايا واجتمع بالإخوان حتى بلغ (عين مهدى) فدرس بها الطريقة التيجانية . وأمام تضييق حكومة السلطان (مولاى سليمان) الخناق عليه حين استشعرت خطره قررت وضعه تحت المراقبة حتى أضطر إلى الارتحال عن فاس فى أواخر عام ١٨٢٩ إلى بلدة ، لاغوات ، جنوبى الجزائر بجوار (خطة توات) التى كانت ملتقى القوافل القادمة من غربى افريقيا والذاهبة إليها . وقد اتجه السيد محمد بن على صوب الشرق فزار تونس وطرابلس وبنغازى ثم سافر إلى مصر زمن محمد على باشا . وفى كل بلد من هذه البلدان التى مر بها كان يبث دعوته، الا أنه لم يلق ترحيبا من شيوخ الأزهر وعلمائه الذين اعتبروه متطرفاً فى آرائه الدينية وتعاليمه، إضافة إلى أنه لم يلق اهتماماً بالروحانيات بالدرجة التى كان يتوقعها فغادرها متجهاً صوب الحجاز .

ويبدو أن السيد محمد بن على لم يكن راضياً عن حكم محمد على فى مصر ربما بسبب نظرة الأخير إلى العلماء التى اختلفت عن سابقيه وانصراف الوالى عن دعوة ، نقباء الأمة ، لاستشارتهم فى تدبير شئون الحكم، كما أنه من ناحية أخرى لم يكن راضياً عن صدام محمد على مع

الدولة العثمانية وبالتالى لم تبهره تلك الإنتصارات التى أحرزها في سياسته الخارجية، أو من خلال اصلاحاته الداخلية ومحاولته اقامة حكومة مدنية قوية تسير جنباً إلى جنب مع الدول الاوربيه[١] .

كذلك فقد ادرك السيد محمد بن على أن الدولة العثمانية التى كانت قد وصلت إلى درجة عظيمة من التوسع قد بدأت طريق الأضمحلال والتدهور، وكان يؤكد هذه الفكرة من خلال تقصير الدولة العثمانية فى دفع الخطر الفرنسى الذى اجتاح بلاده الجزائر، كما أن هذا الضعف قد أفضى إلى انتصار محمد على فى مصر، وأخيراً عجز الدولة العثمانية عن القيام بمسئوليتها وإقامة حكومة استبدادية فى البلدان العربية [٢] .

ولسنا مع القول الذى يرى بأن مفكرى الإسلام فى ذلك العصر أو العصر الذى يليه كانوا مختلفين حول أهمية الاصلاحات التى قام بها محمد على داخليا وخارجيا، اللهم الا اذا كان المقصود هو ما قام به الإمام محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا من توجيه نقد لاذع إلى سياسة محمد على الذى يندرج فى تقديرنا تحت ما يسمى (الخصومات الشخصية) التى لا يمكن أن تنال من الجهود التى بذلها فى اقامة مصر الحديثة . وإذا كان الإمام محمد عبده قد ساهم فى بلورة القومية المصرية فى وقت كان فيه الشعور الدينى يسيطر على العصر، إلا أن أفكاره لم تكن متعارضة بين القومية والتيار الدينى فلم يكن يسمح بوجود إختلاف بينهما لا سيما فى فترة إشتداد التدخل الأوربى والثورة المصرية التى قادها أحمد عرابى عام ١٨٨١ .

كانت الزيارة التى قام بها السيد محمد بن على إلى مكة المكرمة ذات أثر كبير فى قيام الدعوة السنوسية حيث تعرف عن قرب على أحوال

---

(١) محمد فؤاد شكرى : السنوسية دين ودولة ص ١٦ – ١٧ .

(٢) نفس المرجع ص ١٧ .

المسلمين الوافدين إلى مكة، وانتهز الفرصة للإلتقاء بقادة ومفكرى الإسلام، وشرح مبادئ الطريقة المحمدية التى عرفت فيما بعد باسم الطريقة السنوسية . وفى مكة التقى بالسيد أحمد بن إدريس رئيس الخضيرية ولازم دروسه حتى توثقت العلاقة بينهما . ولما ارتحل السيد أحمد بن أدريس إلى (صبيا) العسير - نتيجة معارضة علماء مكة له نظراً لأنه لم يكن متفقاً فى منهجه ودروسه مع هؤلاء العلماء الذين اعتبروه مبتدعاً - تبعه وأقام معه حتى توفى السيد أحمد عام ١٨٣٥ فانقسمت الخضيرية إلى قسمين :

الأول إنضم إلى السيد محمد صالح المغرانى الذين أسسوا زاوية فى (دار خيزران) بمكة وسموا أنفسهم إدريسيين . والثانى إنضم إلى السيد محمد بن على السنوسى الذى رجع إلى مكة وانشأ زاوية فى (جبل أبى قبيس) عام ١٨٣٧ ، وظل بها يلقى دروسه حتى غادرها إلى برقة عام ١٨٤٠ .

وكما لقى أستاذه أحمد بن أدريس مقاومة علماء مكة لاقى هو الآخر جانبا من ذلك حين خالفوه ولاسيما فى اعتماده الصريح على الكتاب والسنة فى دروسه واقتفاء أثر السلف الصالح فى تعاليمه، وإقامة الحجة على أن الإجتهاد لم ينقطع . واضافة إلى ذلك فقد بدأت السلطات الحكومية تستشعر لأخطار التى كانت تهدد نفوذها من جراء التفاف كثير من الأهالى الجانقين على السلطات العثمانية والعربية (الشريفية) فى الحجاز، لاسيما وأن السيد ظل يتصل بأبناء إستاذه السيد أحمد إدريس الفاسى فى صبيا وهى أرض تابعة للموحدين الوهابيين، وكان العداء مستعرا بين الحكومة العثمانية وأشراف مكة من جهة وبين الوهابين من جهة أخرى، ثم أن هناك عاملاً آخر اضطره إلى ترك مكة والذهاب إلى

ليبيا تمثل فى التفاف أهل طرابلس حوله [١] .

وحين قرر السيد محمد بن على تأسيس الزوايا فى برقة غادر مكة متجها إلى المدينة المنورة فمكث بها سبعة أيام ومنها إلى ينبع ثم إلى القاهرة . وفى أغسطس عام ١٨٤٠ إتجه نحو الفيوم ثم إلى البهنسا، وظل يتنقل حتى وصل إلى برقة فأسس زاوية (البيضاء) وهى ثانى زاوية بعد زاوية (أبى قبيس) بل تعتبر أم الزوايا التى انبعثت منها تعاليم الطريقة المحمدية والدعوة السنوسية .

تميزت هذه المرحلة منذ وصول السيد إلى زاوية البيضاء فى أغسطس ١٨٤٠ وحتى نوفمبر ١٨٤٠ بنشاط كبير فى الدعوة إلى دين الله الحنيف فى قلب افريقيا لاسيما بين الوثنيين، وهو دور يحسب لها ولكثير من الطرق الصوفية فى افريقيا .

أما علاقة السلطات العثمانية بالسيد فى ليبيا فكانت تتمثل فى ضرورة الإستفادة منه فى إخماد الفتن والقلاقل التى اشتعلت لاسيما فى ولاية طرابلس، التى رحب واليها التركى (أشقر باشا) بمقدمه وأخذ عنه الطريقة منضماً إلى اتباع الطريقة السنوسية . وأصبح السيد موضع إجلال وتكريم طوال إقامته فى طرابلس ومن ثم راحت هذه السلطات تستفيد من نفوذه لإصلاح العلاقات بين الترك والعرب، فلم تكن سلطة العثمانيين تتعدى المنطقة الساحلية بمدنها الكبيرة، لذا فإن العثمانيين كانوا فى حاجة إلى مساعدة لضبط الأمور داخل البلاد . وقد لعب السيد محمد هذا الدور باقتدار الأمر الذى أدى إلى إعتراف الدولة العثمانية، من خلال واليها فى طرابلس، بالإمارة الواقعية للسيد السنوسى الكبير . ومنذ ذلك الحين ترك العثمانيون دواخل البلاد فى أيدى السنوسيين [٢] .

---

(١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق . ص ٢٢ .
(٢) نفس المرجع . ص ٣١ .

وبالرغم من ذلك كله وأمـام ازدياد سطوة السنوسـيـة لم تسلم هذه الطريقة من عداء السلطات العثمانية التى بدأت تخشى سلطان السيد فى المناطق التى أنشئت فيها الزوايا التى كثر فيها الأتباع خصوصاً فى الأقليم الذى كـان يحـده فى الشمـال شاطئ البـحـر المتوسط من الإسكندرية إلى قابس ثم يمتد نحو الجنوب إلى داخل افريقية السوداء . وإضافة إلى ذلك كـان هناك عداء آخر من جانب علماء وشيوخ القسطنطينية ومكه ومصر الذين اعتبروه مبتدعاً لاسيما فى قوله بأن الإجتهاد لم ينقطع ولا يزال بابه مفتوحاً .

وإزاء ذلك كله فقد وجد السيد أنه من الحكمه أن يبحث له عن مقر جديد لدعوته غير الزاوية البيضاء التى كانت قريبة من الساحل وبالتالى فهى قريبة من سلطان حكومة بنغازى العثمانية، لذلك فضل أن يختار مكاناً آخر بعيداً عن الساحل فاختار واحة الجغبوب التى كانت ملتقى للقبائل العربية التى قبلت الدعوة السنوسية، كذلك فإن السيد كان يستشعر الخطر الأجنبى على البلاد ففضل الإنتقال إلى الجنوب فى جوف الصحراء فى مكان يصعب الوصول إليه، وأخيرا فإن جغبوب كانت ترتبط بداخل افريقيا بطريقين رئيسيين (١) .

قامت الدعوة السنوسية على دعامتين رئيسيتين : الأولى بساطة الطريقة من الحكم المغلقة التى يصعب على الفكر الوصول إلى كنهها، كما أن مؤسس الطريقة وخلفاءه والأخوان والاتباع كـانوا لا يعيرون الدنيا إهتماماً، بل ساد بينهم الحب والإخاء والتعاون والمواساة واطعام الفقراء . كذلك فقد توخى مؤسس الدعوة البساطة عند مخاطبته للأهالى حين كان يطلب اليهم إقامة فرائض الدين ويأمرهم بما أمر الله به عباده الصالحين وينهاهم عن فعل ما نهى الله عنه حتى تستقيم أمورهم .

---

(١) محمد فؤاد شكرى المرجع السابق . ص ٣٦.

أما الدعامة الثانية فقد تمثلت فى الزوايا التى كانت مكاناً يجتمع فيه الإخوان للعبادة ونشر الدعوة والإرشاد بين أهل البلاد المجاورة، والقبائل المقيمة بجهتها، ورجال القوافل الذين يمرون بها.

وحين وصل السيد محمد بن على السنوسى إلى جغبوب فى أكتوبر عام ١٨٥٦ استطاع أن يجعلها مركزاً هاماً لنشر الإسلام بين الوثنيين فى واداى والأقاليم المجاورة لها . فقد تمكن السيد من اعداد جماعة من الزنوج للتبشير بالدين الإسلامى فى بلادهم، ثم صار أهل تلك البلاد (واداى) يأتون من تلقاء أنفسهم إلى الجغبوب لتلقى العلم فى زواياتها، والخدمة فى بقية الزوايا السنوسية عن طيب خاطر .

وقد توطدت أركان السنوسية عند وفاة السيد محمد بن على السنوسى الكبير فى عام ١٨٥٨ وانتشر نفوذها وأصبح لها سلطان روحى كبير، كما أنها فى ذات الوقت تمتعت بسلطة زمنية فعلية فى برقة على وجه الخصوص .

والجدير بالذكر أن الزوايا السنوسية لم تكن صوامع للنساك والرهبان المنقطعين للعبادة أو حلقات للدراويش، بل كانت مراكز نشاط اجتماعى ودينى كبير، فقد أمرت الطريقة اتباعها بالعمل والسعى فى كسب لقمة عيشهم، والعمل فى الزراعة والتعمير والإنشاء . وانتشرت بينهم عادة طيبة تتمثل فى تبرع كل فرد من أفراد القبيلة التى تبنى بأرضها الزاوية بحراثة يوم وحصاد يوم ودراسة يوم من أرض الزاوية، وبهذه الوسيلة أمكن تعمير الزوايا بسهولة، فانتشر العمران فى كل مكان حلت به السنوسية حتى ندر – كما تذكر احدى الدراسات – أن يمر الإنسان بزاوية من زواياهم من غير أن يجد بستانا أو بستانين فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار (١) .

---

(١) محمد فؤاد شكرى : المرجع السابق . ص ٤٨ .

وكانت الزوايا السنوسية تتبع نظاماً دقيقاً حتى أصبحت كل زاوية بمثابة حكومة فى جهتها؛ فهى مركز للتعليم يقوم فيه شيوخ الزاوية بتعليم الناس أمور دينهم ودنياهم والفصل فى منازعاتهم وخصوماتهم، وينشرون الأمن فى جهتهم؛ فكان (المقدم) هو شيخ الزاوية الذى يتولى أمور القبيلة، يليه (الوكيل) الذى كانت وظيفته أشبه بالحاكم المدنى، كما كان لكل زاوية شيخ يقيم الصلاة ويعلم الأطفال القراءة والكتابة، ويباشر عقود الزواج وغير ذلك [١] .

---

(١) محمد فؤاد شكرى . المرجع السابق . ص ٤٩ .

ثالثا : المهدية فى السودان :

تنسب هذه الثورة إلى قائدها محمد أحمد بن عبد الله الذى عرف بالمهدى، والمولود فى جزيرة (لبب) بدنقله فى أغسطس عام ١٨٤٤ (رجب عام ١٢٦٠هـ) لأسرة ترجع فى نسبها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، واشتهرت بصناعة المراكب، ونالت من خلالها شهرة واسعة . ولأسباب عدة هاجرت الأسرة إلى الخرطوم لتبدأ مراحل متتالية من حياته وتطور الثورة .

فكرة المهديه :

ربما لا يكون من قبيل الترف التاريخى أن نشير إلى أن فكرة المهدى قد اتخذت لها مظهرين أساسيين فى العالم الإسلامى : فالشيعة يعتبرون المهدى هو ذاته الإمام المختفى والمنزه عن الخطأ وينتظرون عودته المرتقبة . ولا ينبغى أن نشغل أنفسنا كثيرا بهذا الإعتقاد إذ لا يوجد البته إرتباط مباشر بين المذهب الشيعى وبين الإسلام فى السودان . أما جماهير أهل السنة فيؤمنون بالفكرة خلال الأزمات، الا أنها لم تلتصق بأصول عقيدتهم كجزء أساسى منها . وعلى هذا يمكن القول إنه من الأصوب إعتبار المهدية وليدة الجمع بين أفكار وآمال أكثر منها نظاماً عقائديا مترابطاً [١] .

وقد حاول الصادق المهدى – حفيد محمد أحمد المهدى – أن يشرح المهدية فى الإسلام ليثبت أنها عقيدة إسلامية قال بها أكثرية المسلمين، وأنها وردت فى بعض كتب الصحاح الستة مثل (أبو داود – إبن ماجة)، لكنه لم يشر إلى ورودها فى صحيح البخارى وباقى كتب الصحاح [٢] .

وليس المجال هنا تتبع الفكرة فى التراث لكن يمكن القول بأن هناك

---

(١) هولت : المهدية فى السودان . ترجمة د . جميل عبيد . مراجعة د . أحمد عبد الرحيم مصطفى . ص ٣١ .

(٢) الصادق المهدى : أيديولوجية المهدية . المؤتمر العالمى لتاريخ المهدية . الخرطوم، ٢٩ نوفمبر – ٢ ديسمبر ١٩٨١، ص ١ .

تلاحماً حميماً بين فكرة المهدية - التى هى أحد أركان الفكر الشيعى - والصوفية التى لقيت انتشاراً واسعاً فى أرجاء السودان . فكما نجد الإمام لدى الشيعه نجد « القطب » أو « غوث الزمن » عند الصوفية، لكن الإمام يختلف عن القطب فى أن له سلطات دنيوية بجانب القوة الروحية . وقد أعطت فكرة المهدى المنتظر الصوفية ذراعاً دنيوياً لرفع راية العدالة، كما أن فى فكرة المهدى المنتظر الأمل والانقاذ كما هو الحال فى الصوفية [١] .

ويبدو أن فكرة المهدى المنتظر كانت تنتشر فى السودان قبل تبنى محمد أحمد لها، فقد كان الصبية فى الأبيض بكردفان أثناء ألعابهم ينقسمون إلى معسكرين : معسكر المهدى ومعسكر الأتراك، كما أن عبد الله التعايشى خليفة المهدى كان قد عرض الفكرة على الزبير رحمت باشا لكنه رفضها. وهناك رواية شفهية تذهب إلى أن محمد أحمد الخير عبد الله خوجلى قد نادى بالمهدية فى بربر، كذلك فقد كان السيد محمد عثمان الميرغنى (الختم) يشير كثيراً إلى المهدى المنتظر . وفى أيام المهدى أيضا وجد من ادعى المهدية مثل فخر الدين حسن معلاوى الذى قال فى عام ١٨٨٤ بأنه المهدى المنتظر حتى أن المهدى كاتبه راجياً هدايته كما تقول بعض المصادر [٢] .

وهكذا يمكن القول بأن فكرة المهدى المنتظر لم يأخذها محمد أحمد من بطون الكتب، أو يعثر عليها فى مؤلفات ابن عربى، بل كانت مستقرة فى ربوع السودان منذ زمن بعيد، حتى طرأت على المجتمع السودانى

---

(١) محمد سعيد القدال : الرؤيا الثورية فى فكر المهدى (١٨٤٤ - ١٨٨٥) المؤتمر العالمى لتاريخ المهدية عام ١٩٨١ . أنظر ايضا : دراسات فى تاريخ المهدية - المجلد الأول . من مطبوعات جامعة الخرطوم . العدد رقم ١ ص ٨٠ .

(٢) القائمقام سعد الزبير : الزبير باشا رجل السودان . ص ٧٠، انظر أيضا : محمد سعيد القدال : المرجع السابق . ص ٢١ .

ظروف جديدة فى ظل الحكم التركى البريطانى ساعدت على ظهورها للخروج من واقع صعب كان يحياه فى محاولة للبحث عن أيديولوجية تلم شتاته وتتخطى كل الروابط الأخرى كالقبلية والإقليميه والعرقية واللغوية[١] .

اسباب الثورة المهدية :

تنوعت الأسباب التى أدت إلى الثورة المهدية عند من تعرضوا لدراستها . ومع تقديرنا الكامل لكل الرؤى والآراء حول الدوافع البعيدة والقريبة التى أدت إلى إندلاعها فإننا نعتبر الأسباب الدينية والاقتصادية على رأسها جميعا .

وبالنسبة للدوافع الدينية نعتقد أن دراسة المناخ الدينى الذى سبق أو واكب مسيرة حياة محمد أحمد المهدى ربما يساعد إلى حد كبير فى فهم بواعث هذه الثورة التى عبرت عن وعيها من واقع التراث الدينى . فقد كان الفكر الصوفى هو السائد فى أرجاء السودان منذ ظهور الممالك الإسلامية، والذى كان يعمل على نشر وتعميق العقيدة الإسلامية بطريقة مبسطة أساسها إلزام المريدين باتباع منهج خلقى وتعبدى خاص مع المداومة على قراءة الأوراد والأذكار، حتى وقر فى أذهان الناس أن مخالفة الولى قد تعود عليهم وعلى أطفالهم باللعنة والضرر . وحين وجدت الصوفية إحتراماً من لدن الحكام قاموا باستغلال هذا المدخل للقيام بمتطلبات وظيفتهم فى الإرشاد الدينى وعلاج المرضى والإنفاق على المحتاجين والفارين من بطش الحكام، فانخرط معظم الناس فى الطرق الصوفية والتف المريدون حول رجال الصوفية يضفون عليهم الكرامات وينسبون اليهم الأعمال الخارقة التى تفوق قدرات البشر .

فى وسط هذا المناخ الدينى إنخرط محمد أحمد المهدى وتنقل بين

---

(١) نفس المرجع . ص ٢٠ .

الطرق، وأبدى ميلاً إلى الدراسات الدينية حين ذهب فى عام ١٨٦١ إلى الشيخ محمد شريف نور الدايم حفيد الشيخ الطيب البشير مؤسس الطريقة السمانية فى السودان وظل معه مدة سبع سنوات، لدرجة أن الشيخ إعتبره واحداً من شيوخ الطريقة، وأصبحت جزيرة (أبا) مركزاً لدعوته . وحين تأزمت العلاقة بينه وبين أستاذه الشيخ محمد شريف إنتقل إلى العرديب على نهر النيل عقب إبعاده عن الطريقة، وبعدها إنضم إلى الطريقه بواسطة الشيخ أحمد الطيب البشير القرشى . وقد واصل محمد أحمد حياة الزهد والنسك فى أبا ولم تتأثر مكانته بسبب نزاعه مع الشيخ محمد شريف وقام بزيارة كردفان واجتمع بزعمائها الذين التفوا حوله طلباً لبركاته ! . وبعد إنتهاء هذه الزيارة عاد إلى أبا واعداً أهل كردفان بالعودة اليهم مرة أخرى .

وعقب وفاة الشيخ القرشى نصب محمد أحمد زعيماً للطريقة السمانية واكتسب مكانة كبيرة، وراح يستثمر حالة السخط التى سادت بين أفراد المجتمع السودانى ضد رجال الإدارة والحكومة على اعتبار أن ذلك نتيجة لما حدث من انهيار فى المثل بين رجال الإدارة الأمر الذى أدى إلى إنتشار وشيوع فكرة المهدى المنتظر للخلاص من هذه السوءات .

يعتبر البعض ان بذور الدعوة الإصلاحية عند محمد أحمد المهدى ترجع إلى فترة عهده مع محمد شريف حين اتجه وجهة سلفية توحيدية بعيدة عن الجوانب الإجتماعية للطرق الصوفية وهى التى كانت سبباً حقيقياً للصراع مع أستاذه . وقد تميزت الدعوة فى هذه الفترة بالغيرة الدينية، والمطالبة بالإستقامة الخلقية، كما أن الدعوة فى هذه المرحلة أحدثت نوعاً من الحدة إثر هذا الصراع . وعقب وفاة الشيخ القرشى بقليل إنصرف المهدى لأداء هذه المهمة واستهدف فى نداءاته ونصحه علماء

الدين وزعماء القبائل وكبار موظفى الدولة من السودانيين وغيرهم [١] .

وإذا كانت دعوة المهدى الدينية فى بدايتها لم تمض إلى أكثر من لفت الأنظار إلى المفاسد الإجتماعية والانحطاط الخلقى وابتعاد الناس عن الدين القويم، فإن المهدى بعد ذلك قد انتقل إلى مرحلة أخرى عمل فيها للإنتقال باتباعه إلى منطقة نائية حتى يتسنى له بناء مجتمع اسلامى على أسس مثالية . وربما كان إخفاقه فى الدعوة الإصلاحية السابقة هو الذى هداه إلى هذا التفكير . وفى ذلك يقول المهدى فى واحد من منشوراته « وحيث عمت البدع فى البلاد وتطابقت عليها العلماء والعباد وانطوى بذلك نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين العباد، وما وجدنا من أهل من يعاوننا على إحياء الإسلام فى المسلمين، ولازلنا متحيرين حتى أتى الإذن لنا بإحياء الدين فى المسلمين »[٢] .

أما العوامل الاقتصادية، ولا سيما فى السنوات التى سبقت الثورة فقد كانت من العوامل الرئيسية فى إندلاعها . ذلك أن الأحوال المالية المتردية منذ عهد محمد سعيد والتى ازدادت سوءً فى عهد الخديو اسماعيل وترتب عليها قرارات مصيرية كانت مسئولة بدرجة كبيرة فى قيام الثورة المهدية . ففى عام ١٨٥٦ (١٢٧٣هـ) كان لمستخدمى السودان استحقاقات متأخرة على الدولة ولم يكن بالسودان نقد يكفى لإعطائهم إياها رغم المحاولات المتكررة لإصلاح الجهاز الضرائبى فى السودان . وفى عهد اسماعيل بدأت بوادر هذه الأزمات تطل برأسها لاسيما فى أوائل عهد الحكمدار موسى حمدى (١٨٦٣ - ١٨٦٥) . ففى عام ١٨٦٣ على وجه التحديد طلب هذا الحكمدار إرسال ثلاثة أو أربعة آلاف « كيسة » نقداً

---

(١) محمد ابراهيم أبو سليم : منشورات المهدية صص د ، هـ .

(٢) نفس المصدر . ص ٦ . خطاب بن محمد أحمد بن عبد الله (المهدى) إلى عبد الفتاح عبد الله عن بدء المهدية .

إلى مديرية التاكة بسبب ما أصابها من ضائقة مالية نتيجة القحط الذى نزل بحاصلاتها . وفى عهد الحكمدار جعفر صادق باشا (١٨٦٥ – ١٨٦٦) إستمرت الأزمة المالية لاسيما فى مديرية التاكه، وطلب اليه فور وصوله إلى مقر الحكمدارية أن « يبحث إيرادها ومصروفاتها وأن ينظم ميزانيتها نظاماً موافقاً »، وأن يعرف ما إذا كان السودان فى حاجة إلى نقود إضافية عن الإيراد السنوى » [(١)] .

وقد وصل الأمر فى مصر، لوقف هذا التدهور المالى، أن صرف النظر عن شراء بعض السفن من انجلترا وإعادة هذا المبلغ المخصص لها من الخارج للمساهمة فى حل الأزمة المالية بالسودان [(٢)] .

وفى عام ١٨٦٥ كانت خزانة الخرطوم خاوية من النقود، إضافة إلى تأخر كثير من الاستحقاقات للعساكر، الأمر الذى جعل الحكمدار يطلب (إسعافه) ومساعدته بخمسة عشر الف كيس ترسل له على الفور [(٣)] .

ويبدو أن الأزمة المالية التى كانت تمر بها مصر آنذاك قد ألقت بظلالها على السودان . فمن المعروف أن الخديوى اسماعيل قد أغرق البلاد بالديون نتيجة مشروعاته الخارجيه ولاسيما فى افريقيا، وعلاقته بالدولة العثمانية للحصول على كثير من الفرمانات الأمر الذى كلفه الكثير من الأموال، ثم أخيراً تلك الاصلاحات الداخلية فى مصر . كل ذلك عرض مصر لأزمة مالية حادة جعلت الدول الأوربية تتدخل بشكل حاد فى شئونها، وتزغم الخديو اسماعيل على قبول تشكيل لجنة تحقيق عليا فى

---

(١) دفتر رقم ٥٣٧ معية تركى – ترجمة الوثيقة التركية رقم ٢ ص ١٩٦ . بتاريخ ٢٨ محرم سنة ١٢٨٢هـ . إرادة سنية إلى صاحب السعادة، أنظر ايضا : حمدنا الله مصطفى : التطور الإقتصادى والاجتماعى فى السودان ١٨٤١ – ١٨٨١ . ص ٢٩٨ .

(٢) محافظ أبحاث السودان – محفظة رقم ١٧ ترجمة إفادة من محمد شريف باشا إلى صاحب السعادة رياض باشا بتاريخ ١٧ صفر عام ١٢١٨٢ . دار الوثائق القومية . أنظر ايضا : حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ٢٩٨ .

(٣) نفس المرجع . ص ٢٩٩ .

عام ١٨٧٨ سيطرت على كل شئون مصر المالية .

ومنذ هذا العام بدأت ميزانية السودان تتدهور هى الأخرى بشكل سريع . ففى هذا العام بلغ الإيراد ٧ باره، ١٢ قرشا، ٥٧٩٧٢٥ جنيها، والمصروفات ٢٤ باره، ٦٧ قرشا، ٧٦٨٤٩ جنيها، أى أن هناك عجزاً واضحاً فى الميزانية بالإضافة إلى متأخرات السودان فى نفس العام التى بلغت ٢٩ بارة. ٦٩ قرشا، ٣٢٧١٦٨ جنيها مطلوبة لعدة جهات [١] .

وإذا ألقينا نظرة فاحصة إلى ميزانية السودان عام ١٨٨١ وهو العام الذى اندلعت فيه الثورة المهدية فسوف نلاحظ ما يلى : أولاً : إن هناك مديريات ومصالح حكومية بالسودان كانت إيراداتها تزيد على مصروفاتها كمديرية الخرطوم ومديرية كردفان ومطبعة السودان .

ثانيا : إن هناك مديريات ومصالح أخرى بها عجز مثل مديرية التاكة، ومديرية خط الاستواء، ومصلحتى التليغراف والسكة الحديد .

ثالثا : بلغ إيراد السودان فى هذا العام ٣٥ بارة، ٣٨ قرشا، ٤٥٩١٥ جنيها، وبلغت مصروفاته ١٢ بارة، ٩ قروش، ٥١١٦٨٤ جنيها، وبلغ العجز فى هذه الميزانية ١٧بارة، ٧٠ قرشا، ٥٢٥٢٧ جنيها [٢] .

وهكذا مضت الأحوال المالية فى السودان فى التدهور منذ أواخر محمد سعيد وطوال عهد الخديو إسماعيل حتى وصلت إلى نقطة اللاعودة ولتتبدد كل المحاولات التى جرت لإصلاح الأوضاع المالية مع هبوب رياح المهدية العاتية التى استغلت هذه الأوضاع المتردية فى التنديد برجال الإدارة والحكم فى السودان .

وترتبط تجارة الرقيق والغاؤها بالأضاع الإقتصادية التى كانت تسود

---

(١) حمدنا الله مصطفى : المرجع السابق . ص ٣٠٣ .

(٢) نفس المرجع . ص ٣٠٦ .

السودان قبيل الثورة المهدية . فقد عرف المجتمع السودانى هذه التجارة منذ زمن بعيد وأصبحت ركناً هاماً من أركانه الأقتصاديه والإجتماعية، ولم يكن ذلك بدعة على هذا المجتمع المسلم، فقد سادت هذه التجارة افريقيا وتاجرت فيها كافة دول العالم وأصبحت لغة العصر التى نطق بها الجميع .

وتشير كثير من المصادر إلى أن هذه التجارة كانت تمثل عماد الإقتصاد القومى فى المجتمع السودانى بل وحجر الزاوية فى بنائه منذ آلاف السنين، وكان للرقيق أسواقه المعروفة فى سويا وبربر وشندى وسواكن وسنار ودارفور التى كانت مستودعاً ضخماً للرقيق .

وقد كان لإعلان حرية الملاحة فى النيل الأبيض خلال عامى ١٨٥٣ و ١٨٥٤ نتائج خطيرة إذ سرعان ما أصبحت أقاليم النيل العليا ميدانا لنشاط تجار الرقيق، لدرجة انه منذ عام ١٨٥٤ أصبحت تجارة الرقيق السلعة الرئيسية فى سوق الخرطوم بلا منازع .

وفى عهد الخديو اسماعيل والخديو توفيق جرى التشديد على وقف هذه التجارة لاسيما بعد إعلان بريطانيا تبنيها لحركة مناهضة الرق The Anti- Slavery Movement ومن ثم راح موظفو الحكومة فى السودان يعملون على وقف هذه التجارة وإغلاق كافة منافذ خروجها بالقوة لاسيما فى عهد كل من صموئيل بيكر وغوردون فى منطقتى بحر الغزال وخط الأستواء، فقام غوردون بتحرير الكثير من الرقيق علماً بأن الأهالى كانوا يدفعون قسماً من الضرائب فى صورة رقيق وأصبحوا عقب ابطال النخاسة لا يقدرون على أدائها فجأروا بالشكوى بعد أن تأثرت أحوالهم الاقتصاديه من جراء ذلك . لذلك كله لم يكن من الغريب والمدهش أن ينضم التجار السودانيون الذين أضيروا من جراء ذلك إلى صفوف الثورة المهدية .

ويورد البعض أسبابا أخرى لقيام الثورة المهدية فى السودان كالعنف الذى نال المك نمر من جانب إسماعيل كامل فاتح سنار، ثم ماتلا ذلك من انتقام الدفتردار لمقتل إسماعيل كامل [١] .

وفى ظننا أن مثل هذه الأحداث كانت ردود أفعال لما كان يحدث بين الطرفين وهى سمة لذلك العصر والظروف العسكرية التى كانت تصاحب ضم السودان . صحيح أن رد فعل الدفتردار على حادث مقتل إسماعيل كامل كان قويا لكن ذلك يعتبر خروجا عن السياسة العامة التى كان يتبعها محمد على فى السودان، فخلال ضم السودان لم نكد نسمع عن أعمال عسكرية اللهم الا فى منطقتين : الشايقية خلال معركة كورتى والتى انتهت بانضمام الشايقية إلى الإدارة المصرية وظلوا يؤدون دورهم بإخلاص، والثانية فى (بارا) عند ضم كردفان . ومع ذلك فلم يكن الدفتردار مبرأ من المآسى التى عمت السودان عقب مقتل اسماعيل كامل، وقد يفسر ذلك العنف على أنه كان قريبا من الأعمال العسكرية التى جرت لضم السودان وأن الرجال القائمين على دفة الأمور كانوا عسكريين لا يجيدون الا لغة السلاح .

وأما ما يذكره البعض حيال المسألة الضرائبية كسبب لهذه الثورة وأنها كانت شديدة الوطأة لاسيما على الفقراء من السودانيين، فنحن لا ننكرها لا سيما وأنها كانت تجبى بشكل منظم وبدقة شديدة لكننا لا نجعلها سببا أساسيا . صحيح ان السودانيين عرفوا الضرائب من قبل وألفوها لكنها لم تكن بشكل منتظم بل كانت أقرب إلى « الالتزامات »، ومن أمثلتها ضريبة الأسواق التى كانت تحصل على الرقيق، وضريبة العشر على منتجات الأراضى وكانت تدفع للمكوك، لكن الجديد الآن كان فى مدى تقديرها وطرق توزيعها وجبايتها .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان . الجزء الثانى ص ١٠٩ .

احداث الثورة :

في سياق حديثنا عن العامل الديني للثورة المهدية وضح لنا كيف توصل محمد أحمد إلى قناعة بضرورة تغيير أحوال المجتمع السوداني والوقوف في وجه رجال الادارة والحكومة . وفي هذا الإطار جرى إبلاغ المهدية سراً لعدد قليل من الأتباع المخلصين فكانت الخطوة الأولى لإعلان المهدية، ثم تلت هذه الخطوة زيارة ثانية قام بها، بناءً على نصيحة عبد الله التعايشي، إلى كردفان إلتقى خلالها ببعض الشخصيات البارزة لاسيما الشيخ محمد المكي بن اسماعيل شيخ الطريقة الاسماعيلية حيث أعلن في حضرة المثقفين من رجال الطريقة أنه المهدي المنتظر .

وجاءت الخطوة الثالثة باعلان ظهور المهدي في جزيرة أبا في التاسع والعشرين من يونيه عام ١٨٨١ عندما أرسل محمد أحمد مكاتبات لبعض الرجال المعروفين متخذاً لنفسه لقب محمد أحمد المهدي .

أما رد فعل الحكومة فقد تمثل في إرسال رءوف باشا حكمدار السودان حملة عسكرية بقيادة أبي السعود في السابع من أغسطس عام ١٨٨١ بصحبة عدد من العلماء لإقناع محمد أحمد بالعدول عن أفكاره وطلب منه العودة إلى الخرطوم، لكنه رفض، ثم ارسل اليه قوة أخرى صغيرة بقيادة ابي السعود أيضا الا أنها لاقت هزيمة منكرة من جانب أتباع محمد أحمد في جزيرة أبا .

وإزاء ذلك كله قرر محمد أحمد الإنسحاب من جزيرة أبا والذهاب إلى جبال النوبا جنوبي كردفان، وهنا حاول حاكم كردفان تعقبه لكنه فشل. وفي ديسمبر عام ١٨٨١ أرسلت الحكومة حملة بقيادة مدير فاشودة على الشلالي وصلت إلى جبل قدير فكان مصيرها الهزيمة الأمر الذي كان بمثابة معجزة في أعين أتباع المهدي فازداد أتباعه .

وعقب واقعة الشلالى إندلعت الثورة فى أنحاء السودان لاسيما فى الجزيرة أبا وكردفان وهما المنطقتان اللتان عاش فيهما المهدى أغلب سنى عمره .

أما فى الجزيرة والنيل الأبيض فقد بدأت فيهما الثورة مبكراً حين قام أحمد المكاشفى وهو من كبار فقهاء الكواهلة بالهجرة إلى المهدى فى (قدير) . ومنذ مارس عام ١٨٨٢ إندلعت الثورة فى كردفان واستمرت حتى سقطت (بارا) والأبيض فى مطلع عام ١٨٨٣ . وكان لسقوط الأبيض نتائج هامة حيث أصبح المهدى يسيطر على مدن وبوادى كردفان، وتحولت الأبيض إلى عاصمة للدولة الوليدة، وأصبح الطريق بعد فتح كردفان مهيئاً أمام المهدى صوب الشمال .. إلى الخرطوم .

موقعة شيكان عام ١٨٨٣ :

فى أعقاب الإحتلال البريطانى لمصر فى سبتمبر عام ١٨٨٢ بدأت بريطانيا صراعها للقضاء على المهدى فجردت حملة بقيادة (هكس) ، وكان المهدى على علم بأمر هذه الحملة منذ بداية تجمعها فى الخرطوم، وظلت تأتيه أخبارها، وعلى ضوء ذلك رسم خطته حيث طبق ، تكتيك ، الأرض المحروقة وحرب الدعاية .

فقد تم طمر الآبار وإخلاء القرى فى طريق الحملة، وكانت منشورات المهدى تلقى فى طريقها وتعلق على أغصان الأشجار . ومن ناحية أخرى قام المهدى باجراء استعدادات حربية وسط جيشه، فكانت نتيجة ذلك كله الانتصار فى هذه الموقعة التى جرت فى أواخر عام ١٨٨٣ ، وهو انتصار جرى على آخر قوة نظامية لحكومة الخرطوم، وكان لزاما لمحاربة المهدى بعد ذلك أن تأتى قوة من مصر أو بريطانيا . وفى مقابل ذلك كانت قوة المهدى تنمو نمواً سريعا .

أسفرت معركة شيكان عن نتائج هامة سواء فى داخل السودان أو

خارجه . ففى الداخل إرتفعت مكانة المهدى فى أعين السودانيين، وأما النتائج الخارجيه فقد تمثلت فى مجئ الوفود من العالم الإسلامى من الحجاز والهند وتونس ومراكش لزيارة المهدى والإستماع لأفكاره وتعاليمه(١) .

أما سلطات الخرطوم فقد بدأت تسحب الحاميات العسكرية من فاشودة والكوة وشط والدويم، وراح المهدى يستعد للخطوة التالية وهى حصار الخرطوم .

الإستيلاء على الخرطوم (٢٦ يناير ١٨٨٥)

وعقب الإنتصار فى شيكان جرى الإستعداد سريعاً لحصار الخرطوم الذى تم على ثلاث مراحل : عزلها عن العالم الخارجى، ثم عزلها عن المناطق المحيطه بها، وأخيراً حصارها مباشرة وخنقها حتى تستسلم أو يستولى عليها (٢) .

وفى يوم الاثنين للسادس والعشرين من يناير عام ١٨٨٥ بدأ الهجوم على الخرطوم فجراً وتم الإستيلاء عليها، وقتل غردون . أما المهدى فلم يدخلها فوراً بل بقى حتى يوم الجمعه . والجدير بالذكر أن المهدى لم يعش طويلاً بعد سقوط الخرطوم، فقد ظل طريح الفراش مصاباً بالحمى حتى توفى فى صباح العشرين من يونيه عام ١٨٨٥ .

وبوفاة المهدى أسدل الستار على الفصل الأول من الثورة المهديه، ليبدأ بعده الفصل الثانى والأخير بتولى الخليفة عبد الله التعايشى والذى أستمر طيلة ثلاث عشرة سنة (١٨٨٥ - ١٨٩٨) حتى لفظت المهدية أنفاسها حين جرى إسترداد السودان على يد كتشنر باسم الخديوية المصرية ووضع أسس نظام سياسى جديد عام ١٨٩٩ عرف باسم الاتفاق الثنائى .

---

(١) هولت : المرجع السابق . ص ٧٥ - ٨٥ .
(٢) محمد سعيد قدال : المرجع السابق ص ١١٤ .

رابعاً : ثورة محمد بن عبد الله فى الصومال (١٩٠٠ - ١٩٢٠) :

تطلع الصوماليون إلى زعيم وطنى يقود مسيرتهم النضالية ضد المستعمر فى بلادهم فوجدوا ضالتهم فى الشيخ أو السيد محمد بن عبد الله حسن الذى يلقب أحيانا بمهدى الصومال الذى اعلن ثورته ضد السلطات البريطانية والإيطالية والحبشية خلال العشرين سنة الأولى من القرن العشرين .

ولد السيد محمد بن عبد الله حسن حوالى سنه ١٨٥٦ فى قرية (فوب فردوت) ، ويرجع فى أصلة إلى قبائل الأوجادين . وقد بدأ كعادة الأطفال فى تلك المنطقة بحفظ القرآن الكريم وفهم تعاليم الإسلام الحنيف وحفظ الكثير من المتون على يد شيوخ الأوجادين . وعقب وفاة والده الشيخ عبد الله حسن عاش فى كنف أخواله وتعلم على أيدى أساتذة من العرب والصوماليين فنال قسطا من العلوم الرياضية والفلكية وأجاد اللغة العربية إجادة تامة ثم ارتحل مرة اخرى إلى الأوجادين ليتمكن من أصول الفقه والتشريع والسيرة على يد شيوخها وعلمائها . وقد اشتغل بالتدريس لفترة من الزمن فى الصومال البريطانى وبرع فى هذه المهنة وعرف بين اقرانه بسعة الإطلاع وغزارة العلم فلقب بالفقيه البارع نظراً لعمق تفكيرة وبراعة تعبيره وشدة إقناعه . كذلك فقد انتقل إلى مقديشو على المحيط الهندى وكانت آنذاك ذات شهرة فى العلم فنال قسطا كبيراً منها حتى وصل إلى مرتبة الشيوخ .

وفى عام ١٨٩٠ قرر الشيخ محمد بن عبد الله أن يقوم بتأدية فريضة

الحج مع بعض شيوخ مقديشو وكان عمره أنذك اربعة وثلاثين عاماً . واثناء إقامته فى الحجاز نهل من العلوم والمعارف من خلال تردده على كثير من المشايخ والعلماء ، فتدارس سيرة النبى ﷺ والخلفاء الراشدين ، وتعرف على الفقيه الشيخ صالح السودانى مؤسس الطريقة الصالحية فتتلمذ على يديه بعد أن اعتنق مبادئ هذه الطريقة واصبح خليفة لمؤسسها يقوم على نشرها بين سكان الصومال .

وفى خلال الثلاث أو الأربع سنوات التى قضاها فى الأراضى المقدسة كان يتبع أخبار وطنه الصومال وما أدى اليه التنافس الأوربى من تمزيق لأوصاله . وحين استقر به المقام فى بربره عقب عودته كخليفة للشيخ محمد صالح راح ينشر الطريقة الصالحية فى ميناء بربرة ويوضح لمريديه المعانى السامية لكتاب اللهً وتعاليم الإسلام ويبث فى اخوانه روح الكفاح والنضال فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية ومناهضة العدو الأجنبى الذى يحتل الوطن .

وقد ادرك الشيخ محمد منذ أن وطئت قدماه أرض بربره مدى الظلم والمعاملة السيئة التى كان يلاقيها شعب الصومال والتى اكتوى بنارها هو نفسه حين وصل الى بربرة وطلبت منه السلطان البريطانية رسوماً جمركية على متاعه قبل أن يدخل البلد، فقال الشيخ لمدير الجمرك فى ثورة وغضب وهل دفعت أنت رسوماً جمركية عند نزولك هنا ؟ ومن الذى منحك تأشيرة دخول لبلادنا ؟ فتم ترجمة هذا الرد الى المدير فاتهم الشيخ بالجنون حيث اطلقوا عليه (الملا المجنون) . ومما يؤسف له ان المؤلفات

الأوربية هى التى تنعته بهذه الصفة الظالمة التى تقلل من قدره وتتجلى على زعيم وطنى مسلم جاهد فى سبيل دينه وحرية وطنه .كذلك فقد وصف الشيخ محمد عبد الله بأنه « مهدى الصومال » تمييزا له عن «مهدى السودان» .

ويشبه البعض نضال السيد محمد عبد الله حسن ضد القوى الأجنبية الأوربية بجهاد زعماء المسلمين فى بعض البقاع الأخرى من أرض افريقيا امثال الأمير محمد عبد الكريم الخطابى الزعيم المراكشى .فى منطقة الريف، والأمير عبد القادر الجزائرى ، والأمير عمر المختار فى ليبيا ، والزعيم محمد أحمد المهدى فى السودان . فجميع هؤلاء الزعماء قادوا ثورات نضال مسلحة ضد القوى الأجنبية ولا سيما الاوربية منها دفاعا عن أوطانهم .

ويمكن أن نرد بواعث الجهاد عند الشيخ محمد بن عبد الله فى المقام الأول إلى الدور الذى كان يلعبه المبشرون البريطانيون فى بربرة حين افتتحوا لهم مركزين للتبشير أحدهما فى هذه البلده ، والآخر فى مدينة (ديمولى) مما أثار غضب الأهالى الصوماليين على طول الساحل ، فتقدموا بشكواهم إلى السيد محمد عما يفعله المبشرون وحماتهم البريطانيون، فطلب الشيخ من السلطات البريطانية ابعاد المبشرين فلم تلق هذه السلطات بالا له ولطلباته حتى كانت تلك الحادثة التى قام خلالها أحد القسس بقتل أحد المؤذنين وهو يؤذن لصلاة الفجر، فكانت الطلقة النارية التى خرجت من سلاح القسيس هى الشرارة الأولى التى أدت الى إشتعال

الثورة الصومالية . ومنذ هذه الحادثة أعلنت الإدارة البريطانية أن لا تبشير بعد اليوم فى الصومال . وبالفعل ظل الصومال الشمالى حتى اليوم خاليا من المراكز والملاجئ والمدارس التبشيرية .

وحين أيقن البريطانيون أن الشيخ محمد عبد الله هو المحرك الرئيسى للكفاح الوطنى وجهوا إليه انذاراً بسرعة الرحيل عن أراضى بربرة فخرج منها إلى (تقال) بعد أن قام بشراء عدد من البنادق الفرنسية وسار مع نفر من مريديه إلى مسقط رأسه فى أوجادين وبدأ بنشر دعوته بين السكان . وكان أول صدام له ضد الاحباش فى عام ١٨٩٩ حين حضرت قوة حبشية من الجنود من منطقة هرر لجمع الضرائب من السكان الصوماليين فى احدى بلدان منطقة أوجادين لكن الشيخ محمد واتباعه استطاعوا هزيمة الأحباش والإستيلاء على الكثير من السلاح والعتاد الإيطالى وعاد إلى أوجادين .

لم يمكث الشيخ فى أوجادين بل اتجه إلى مدينة (فطوين) لتجهيز قواته للقيام بحملات ضد البريطانيين للجلاء عن البلاد .

صراع الشيخ ضد البريطانيين :

قام الشيخ محمد بن عبد الله بدعوة الصوماليين إلى الجهاد وتعبئه الشعور العام ضد المستعمر وتوحيد صفوف المجاهدين . وقد وضع الشيخ خطة حربية متعددة الجوانب تقوم على الأسس التالية :

أولاً : تنظيم الجيش وتدريبه على أحدث طرق القتال .

ثانياً : اختيار صفوة ابناء القبائل الموالية له فرسانا فى الطليعة .

ثالثاً : الاعتماد على التجار العرب فى توريد الأسلحة عبر موانى، بربرة وزيلع .

رابعاً : بناء مخازن ومستودعات فى مغارات الجبال بعيدة عن أعين الأعداء

خامساً : بناء الحصون فى أماكن استراتيجية والإكثار . منها ، لا سيما داخل الأوجادين كمنطقه تجمع واستقرار للقوات الصومالية .

سادساً : حفر عدد من الآبار على طول جهات الحدود فى المناطق التابعة للإيطاليين او التابعة للبريطانيين .

سابعاً : حث القائمين على الأعمال الزراعية بمضاعفة الأنتاج لسد حاجة المقاتلين .

ثامناً : ارسال الوفود إلى البلاد العربية للحصول على الأسلحة والذخائر والمساعدات .(١)

وقد أصدر الشيخ أول بيان ثورى لإعلان الجهاد المقدس ضد المستعمرين والمبشرين شرح فيه ما يجب اتباعه نحو الدين الإسلامى الحنيف وضرورة الصبر فى القتال والإستشهاد فى سبيل الله . وخاض الشيخ محمد بن عبد الله عدة معارك انتصر فى كثير منها فى بادئ الأمر مثل موقعة (نهر طيغ) (حوض الدم) فى ابريل عام ١٩٠١ حين أصدرت

---

(١) حمدى السيد سالم : المرجع السابق . ص ٢٤٠ س

الحكومة البريطانية أمراً إلى الكابتن (سواين) بالتحرك نحو الداخل فترك الشيخ محمد مدينة (أفبكيلى) حتى إذا ما وصلت القوات البريطانية الى المدينة لم يجدوا فيها أحداً وفاجأهم الشيخ برجاله فى صباح اليوم الثالث من مايو وانتصر عليهم ، وسميت بحوض الدم لكثرة الدماء البريطانية التى سالت فى هذه المعركة .

أما المعركة الثانية فكانت (غزوة قرطدن) وكان الجيش البريطانى بقيادة (سواين) أيضاً للثأر من الشيخ واتباعه . والتقى الجيشان الى الشرق من (لاس عانو) بنحو خمسين ميلا فى مكان يدعى (قرطدن) وكان النصر أيضاً حليفاً للشيخ محمد واتباعه فى السادس عشر من يوليه عام ١٩٠١ .

وفى مارس عام ١٩٠٢ اضطر البرلمان البريطانى البريطانى الى إرسال وفد الى الصومال لمعرفة الحقائق مباشرة من جانب الشعب الصومالى ، وكلفت الحكومة البريطانية السير (ريجنالد ونجت) حاكم السودان بالسفر إلى الصومال على رأس وفد وكتابة تقرير عن أحوالها وتقديم المقترحات العملية لحل الأزمه، وتهدئة ثورة الشعب الصومالى . وبالفعل كتب ونجحت تقريره الذى وضع فيه خطة للقضاء على ثورة الشيخ بالإشتراك مع القوات الفرنسية وفتح المفاوضات مع الشيخ محمد لإقرار السلام . ونفذت بريطانيا الأقتراح الأول الذى يعتمد على التهديد والعنف واستخدمت الطائرات لأول مرة فى شرقى افريقيا ، ودمرت الكثير من مساكن الشعب الصومالى .

ومن المعارك التى جرت أيضا معركة (بيرطقة) فى ١٩ اكتوبر عام ١٩٠٢ انتصر فيها الدراويش بقيادة الشيخ محمد، ومعركة (عفاروينه) فى ١٧ ابريل عام ١٩٠٣ وكان النصر حليفهم أيضا .

وخلال الفترة ما بين مارس عام ١٩٠٠ وعام ١٩٠٤ وجدت بريطانيا أنها لم تحرز أى انتصار على قوات الشيخ فدخلت فى عدد من الاتفاقيات الدولية . فاتفقت مع إيطاليا على الإعتراف بمحمية الصومال الإيطالى فى مقابل ان تعترف ايطاليا بمحمية الصومال البريطانى ونفوذ البريطانيين فى (جوبالاند) وكينيا. وفى ذات الوقت تتعهد الدولتان بانهاء قوات الشيخ محمد وتصفية شئون سلطان زنجبار وكان ذلك فى عام ١٩٠٥

المفاوضات السلمية مع الشيخ :

ورغم هذه الاتفاقيات والجهود الأوربية للقضاء على قوات الشيخ وجدت بريطانيا أنه من الأفضل الإتجاه إلى التفاوض بشكل مباشر مع الشيخ ومنحه كل ما يريد فى حدود بقاء القوات الأجنبية فى الصومال . وجرت مباحثات بريطانية – ايطالية بأن تقوم إيطاليا بالتفاوض مع الشيخ لعقد اتفاق صلح على ان تصدق بريطانيا على المعاهدة التى تبرمها مع الشيخ .

وصل الكومنداتور (بستلوزا) إلى اليج على ساحل المحيط الهندى وطلب من الشيخ محمد اجراء مفاوضات ، وبعد نقاش طويل توصل الطرفان إلى التوقع على معاهدة صلح وسلام فى الخامس من مارس عام ١٩٠٥ نصت على الآتى :

١ – الصلح الدائم بين السيد محمد عبد الله واتباعه والحكومة الإيطالية والتابعين لها من الصوماليين وكذلك بريطانيا والحبشة .

٢ – تحديد منطقة إقامة السيد محمد وأتباعه ما بين جاراد ورأس حابى .

٣ – حرية التجارة فى المنطقة الخاضعة لنفوذ الشيخ محمد وأن يتعهد رسميا بمنع مرور الأسلحة من البر والبحر أو استيرادها ، وكذلك تجارة الرقيق .

٤ – المنطقة المخصصة للسيد واتباعه هى منطقة (توقال) و(هود) مع اعطائهم حق الرعى فى المناطق الجنوبية من محمية الصومال البريطانية .

وبمقتضى هذه الإتفاقية رضى الشيخ محمد أن يعيش فى سلام مع إيطاليا وبريطانيا والحبشة ، كما قبل الحماية الإيطالية حيث استقر فى المنطقة بين سلطنة الميجرتين وهوبيا فى الجنوب. ورغم انه ترك محمية الصومال البريطانى حسب الاتفاق بين الحكومتين البريطانية والإيطالية الا أن أتباعه حصلوا على منطقة رعى الماشية داخل المحمية ما بين آبار حالين Hallin وهودين Hudin و(توقال) Tugale و(توناد) Tunad.

والجدير بالذكر أن الشيخ محمد قد استفاد من هذه الاتفاقية استفادة كبيرة إذ كان فى حاجة الى فترة من الهدوء والراحة يلتقط فيها أنفاسه ويعيد بناء قوته التى أوشكت على الإنهيار . فبدأت الأسلحة تتدفق عليه عبر المستعمرة الإيطالية ، كما انتعشت تجارته وأصبح ميناء (اليج) مفتوحاً أمامه، بالإضافة الى انفتاح الساحل دون معارضة السلطات الإيطالية .

واستقر الشيخ محمد مع رجاله فى المنطقة التى خصصت له وتعلم اتباعه الزراعة بدلاً من الرعى .

واستمر هذا السلام قائما حتى عام ١٩٠٨ حيث بدأت بريطانيا تعمل على تكوين الميلشيات العسكرية والقبلية للوقيعة بين الصوماليين . وشعر الشيخ بذلك وحاول الإتصال بالمسؤلين البريطانيين فى عدن ، بالإضافة إلى محاولة تشويه العلاقات بين الإيطاليين والأحباش وبين الدروايش . كما كان تضييق الخناق على الدراويش قد أثر فى نفوس اتباع الشيخ محمد واهله المقربين أمثال والده وأولاده وأعمامه وكذلك على الشيخ عبد الله سلطان أو جادين فطلبوا منه الخروج من نوقال واستئناف الجهاد . وفى بادئ الأمر رفض أن ينقض عهده كى يستفيد من فترة السلام التى تتيح له اعادة بناء قوته، حتى إذا بدأت الزعامات الصومالية تقرر الرحيل إلى الداخل وعدم الإستمرار فى التعايش مع القوى الأوربية بدأ الشيخ محمد يطالب باعادة تجارة الدراويش واطلاق حرية رجاله ونسائهم المحاصرين فى عدن وبربره من جانب البريطانيين ، وهذه المطالب كان قد بعث بها من خلال خطاب شديد اللهجة ، مهدداً انه فى حالة رفض هذه الطلبات فإنه لن يستمر فى السلام .

وقد أعاد الشيخ دراسة الاتفاقية الإيطالية وما قام به البريطاينون من تعديلات وأدرك أنها مؤامرة لتحديد نطاق الدراويش بهدف القضاء عليهم فى حيز ضيق بين المحمية البريطانية والمحمية الإيطالية، كما أن الاتفاقية تعتبر اهانه للشيخ محمد عبد الله حين جعلته نائبا للحكومة الإيطالية التى تستعمر الصومال ، لذلك فقد أعلن الغاء المعاهدة . واستند الشيخ فى نقض

المعاهدة الى قول الله تعالى ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين ، وهكذا استأنف الشيخ واتباعه القتال من جديد .

وراحت بريطانيا تقلل من شأن الشيخ محمد وتشكك فى قيادته الدينية وطلبت من قنصلها فى القسطنطينية الإتصال بالسلطان العثمانى للإتصال بالجهات الدينية فى مكة المكرمة لإصدار بيان تنكر فيه زعامة الشيخ محمد بن عبد الله على قبائل الصومال إلا أن هذه الفكرة باءت بالفشل كما حاولت بريطانيا وايطاليا الإتصال بشيخ الطريقة الصالحية فى مكة المكرمة وتحصلان منه على خطاب فى عام ١٩٠٩ بخروج الشيخ على تعاليم الطريقة والإسلام ، وبدأت السلطات البريطانية والإيطالية فى طبع هذا الخطاب فى منشور وإعلانه واذاعته على الأهالى حتى ينفضوا من حوله . كل ذلك كان سبباً رئيسياً فى زعزعة الثقة فى هذا الشيخ الذى كان عليه أن يواجه هذه الحملة التشكيكية ضده ، فأصدر رسالة تحت عنوان ، قمع المعاندين ، أرسل صورة منها إلى شيخ الطريقة الصالحية فى مكة المكرمة وأخرى الى السلطان العثمانى فى الأستانة ، إلاّ أن محاولاته لم تجد حيث تركت الإشاعات أثرها السئ فى نفوس اتباعه، واشتدت العداوة فى معسكر المجاهدين ، وعقد بعضهم إجتماعاً سريا لم يحضره الشيخ قرروا فيه إتخاذ بعض الأجراءات ومنها : إما اعدام الشيخ وانتخاب خليفة بدلاً منه لمواصلة الجهاد ، وإما عزله لفشله فى مقاومة الإستعمار، أو حل حركة الدراويش وإنهاء الجهاد . وهكذا نجحت بريطانيا فى إحداث فتنة خطيرة بين صفوف المجاهدين نفذ من خلالها المستعمرون للقضاء على هذه الثورة .

وتأتى المرحلة الأخيرة من مراحل صراع الشيخ مع القوى الأوربية التى وجدت أن الشيخ يرغب فى السلام بعد هذا الصدع الذى حدث فى صفوف أتباعه بدلاً من اتفاق (بستالوزا) ، وكان قد وصل خطاب من الشيخ بهذا الخصوص ، فكلفت السلطات البريطانية السير (ريجنالدوينخت) فى أواخر عام ١٩٠٩ بالسفر الى الخرطوم مع وفد لتقصى الحقائق وفوضته بأن يعرض على الشيخ مساعدة مالية مقابل حسن السير والسلوك ، فأرسل ونجت رسالة من بربره إلى الشيخ محمد يعرض عليه صلحاً جديداً وطلب منه إرسال وفد للصلح فوافق الشيخ وطلب أولاً القبض على الصوماليين الذين شوهوا العلاقات بينه وبينهم وأن ترد بريطانيا السفن التى استولت عليها مع ايطاليا عام ١٩٠٨ وان تدفع تعويضا عن رجاله الذين استشهدوا . وتعثرت المفاوضات بسبب عدم الرد البريطانى على هذه الطلبات ، وقررت الحكومة البريطانية اخلاء الصومال من الإدارة وتركيز سلطاتهم فى المدن الساحلية الثلاث (بربرة - بلهار - زيلع) ، مع إشراف القبائل الصومالية الموالية لهم على الداخل .

وعقب الإخلاء اندفع الدراويش نحو أعوان البريطانيين من الصوماليين وفتكوا بهم ، فعمت الفوضى وحدث ما يشبه الحرب الأهلية فى البلاد ، وانتقل الشيخ محمد من مناطق المحمية الإيطالية إلى مناطق النفوذ البريطانى وبدأ فى تشييد الحصون والقلاع وأهمها حصن (تاليح) Taleh الذى ظل مقراً للشيخ حتى عام ١٩٢٠ .

وبدأ الشيخ يخوض عدة معارك مع المستعمر البريطانى من أهمها

موقعة (دلمادوب) وهى واحدة من المعارك القوية التى قاد فيها (كورفيلد) القوات البريطانية .

وقد أبلى الشيخ فى هذه المعركة بلاءً حسناً وسالت الدماء البريطانى خلالها بغزارة ، فتراجعت القوات البريطانية مذعورة الى الساحل . ويشبه البعض موقعه دلمادوب عام ١٩١٣ ضد بريطانيا بموقعة (عدوه) سنة ١٨٩٦ التى انتصر فيها الأحباش على الأيطاليين .

وقد ظهرت عوامل جديدة فى الصراع بين الدراويش والبريطانيين حين تولى (ليج باسو) حكم الحبشة فى ديسمبر عام ١٩١٣ وحول مقر اقامته الى (هرر) حيث توجد الجماعات الإسلامية ، كما اعتنق هذا الحاكم الدين الإسلامى ودخل فى علاقات طيبه مع الشيخ محمد وقدم إليه المساعدات .

والجدير بالذكر أن مسلمى العالم فى مصر والبلاد العربية وفى الهند وتركيا وغيرها قد باركوا هذا الجهاد الإسلامى للصوماليين ، الأمر الذى جعل البريطانيين يخشون هذا التأييد الإسلامى ، فأسرعت بريطانيا إلى عقد اجتماعات فى لندن وروما وأديس أبابا للتشاور فى مسألة الصومال لأن فى القضاء على ثورة الشيخ محمد واتباعة إمكانية المحافظة على التقسيم الحالى للصومال بين الدول الأوربية والحبشة ، وأن نجاح ثورة الشيخ محمد معناه طرد الاوربيين والأحباش من كل بقعة يعيش فيها صومالى ، وكانت بريطانيا تعانى فى ذلك الوقت من ثورة الدراويش فى السودان إضافة إلى ثورة الدراويش هنا فى الصومال .

أما فصل النهاية فى هذه الثورة فقد جاء فى أعقاب أنتهاء الحرب. العالمية الأولى واطمئنان البريطانيين إلى تحقيق النصر، فقررت الحكومة البريطانية وضع حد لهذا الثائر المسلم حتى تتمكن من تنفيذ سياستها فى منطقة القرن الافريقى بعد الحرب : وعلى هذا النحو توالت الحملات العسكرية الضارية ضد الشيخ . وفى ٢١ يناير ١٩٢٠ بدأت الطائرات الحربية تقصف مواقع الشيخ بطريقة وحشية ، وظل القصف الجوى ثلاثة أيام ، بالأضافة الى القصف المدفعى الأمر الذى اثار الرعب مما أدى الى تفكك القيادة الإسلامية للثورة فانسحب الشيخ محمد إلى (تاليح) فطارده البريطانيون وأمطروه بوابل من النيران ، وطلبوا اليه أن يعلن استسلامه . وفى ٢٥ مارس أرسل الشيخ خطاباً يتضمن رده وشروطه . ويبدو أن الشيخ فى مفاوضاته مع البريطانيين لم يستجب لشروطهم فقرر مواصلة الجهاد حتى وفاته فى نوفمبر عام ١٩٢٠ لتنتهى ملحمة هذا الشيخ المجاهد الذى ظل يكافح ضد ثلاث دول مدة ثلاثين عاماً .

وقد ساق البعض عدة عوامل لفشل هذه الثورة منها استخدام الشيخ لأسلوب العنف فى بعض الأحيان مع القبائل الصومالية المتمردة مما أدى إلى وقوف هذه القبائل ضده . كذلك ظهور الشيخ فى زمن لم يكن الصوماليون فيه قد وصلوا الى مرحلة كافية من الوعى . ومن ناحية ثالثة كان الشيخ يصارع قوى أوربية قوية وفى منطقة استراتيجية ذات أهمية بالغة فى طرق المواصلات العالمية وفى مرحلة كان فيه التكالب الأوربى على أشده فى القارة الافريقية ، وفى القرن الافريقى بوجه خاص .

ومن ناحية رابعة كانت الظروف كلها تقف ضد حركة الشيخ محمد بن عبد الله، ففي الوقت الذى بدأ يجد فيه الحليف يصاب هذا الحليف بالطرد أو الهزيمة كما حدث للأمبراطور الحبشى (ليج) ، وأخيراً كان لاستخدام البريطانيين لسلاح الطيران بشكل وحشى قد نال من الصوماليين كثيراً وكبدهم أبشع الخسائر الأمر الذى اضطر معه الشيخ محمد فى النهاية أن ينسحب بعيداً عن مناطق الدمار إلى أرض الأوجادين ، لكنه لم يستطع أن يستأنف القتال من جديد، فلقى ربه راضيا بعد أن خدم قضية بلادة بإخلاص ووقف فى وجه المستعمر والقوى الاقليمية المتحالفه معه رافضاً الخنوع والاستسلام واستحق بذلك ان يسجل اسمه فى سجل الخالدين .

الجامعة الإسلامية :

تعتبر حركة الجامعة الإسلامية إمتداداً للحركة الوهابية والحركة السنوسية وحتى الحركة المهدية أيضا من حيث أنها ترمى إلى تخليص الإسلام من الشوائب التى علقت به . فإذا كانت هذه الحركات الإصلاحية الثلاث قد اتجهت إلى محاربة النفوذ العثمانى، فإن حركة الجامعة الإسلامية نادت بضرورة توحيد الصف الإسلامى أمام الزحف الأوربى .

وقد ارتبط إسم السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩) باسم الجامعة الإسلامية التى كان يرمى من إنشائها إلى تحقيق هدفين أساسيين : أولهما الوقوف فى وجه السيطرة والتدخل الأوربى فى أرجاء الدولة العثمانية من خلال تجميع المسلمين على كافة أعراقهم حول هذه الجامعة. وثانيهما : إمتصاص حركة الأحرار المطالبين بالإصلاح، لاسيما الإصلاحات الدستورية . فقد تزعم مدحت باشا فريقاً من المصلحين الأتراك أرغموا السلطان عبد العزيز على التخلى عن العرش ليخلفه أخوه الأصغر عبد الحميد الذى تعهد بإجراء اصلاحات دستورية فأعلن دستوراً- (المشروطية) - للامبراطورية، وعين مدحت باشا صدراً أعظم .

وكان هذا الدستور يرمى إلى تقييد سلطة السلطان المطلقة فى تحقيق المساواة بين رعايا الدولة العثمانية على إختلاف مذاهبهم وأعراقهم، لكن يبدو أن السلطان عبد الحميد لم يكن يؤمن بالحياة الدستورية التى اتخذها- على ما يبدو - واجهة لتحقيق أهدافه فعصف بهذا الدستور فى العام التالى (١٨٧٧)، وعزل مدحت باشا ونفاه . وحين تم له القضاء على الحياة الدستورية كان ضروريا أن يجد وسيلة لمواجهة الخطر الداخلى والخارجى فاهتدى إلى فكرة الجامعة الإسلامية واستخدم الدين ضد معارضيه فى الداخل من دعاة الإصلاح والاستقلال فى الأقاليم، ثم ضد اعدائه فى الخارج الذين يتربصون بالدولة العثمانية التى بدأت رحلة السقوط إلى

الهاوية، فأراد - فى أواخر أيامها - أن تتجمل بثوب الإسلام البراق فى محاولة لجمع شعوب المسلمين وحكامهم للوقوف بجانبه ضد الأخطار الأوربية التى كانت تهدد الأمبراطورية .

وفى سبيل إنجاح فكرة الجامعة الإسلامية إستعان السلطان عبد الحميد بكل الأساليب المتاحة لديه، فقرب إليه الكثير من الأشراف والعلماء وبعض الشخصيات غير التركية من الأرمن والألبان واليونان والعرب وقام بإشراكها فى الوزارة والبلاط والمجالس المختلفة . ومن الشخصيات المشهورة فى هذا المجال نقيب أشراف حلب الشيخ أبو الهدى الصيادى الذى عينه مستشاراً له، وعزت باشا العابد الذى تولى منصب سكرتيره الثانى وغيرهما .

ومن المفكرين الذين لعبوا دوراً محورياً فى نشر فكرة الجامعة الإسلامية السيد جمال الدين الأفغانى الذى كانت تشغله آنذاك فكرة وقف الزحف الإستعمارى على العالم الإسلامى، وكان يسلك فى ذلك عدة طرق : أولها إصلاح المساوئ الدينية والإجتماعية، وثانيها إدخال الأنظمة الغربية التى هى سر الغرب، وثالثها توحيد صفوف المسلمين . ومن خلال مجلة (العروة الوثقى) راح يردد أفكاره التى التقت - مرحلياً - مع أفكار السلطان عبد الحميد لاسيما حول جمع كلمة المسلمين، لكنهما إختلفا حول التفاصيل، فلم يدم الوفاق بينهما طويلاً . فالأفغانى كان يرى قيام الإتحاد الإسلامى على أساس تقوية العلاقات بين الأمم الإسلامية لأنه - من وجهة نظره - كان يتعذر إقامة حكومة واحدة تطبق الشريعة الإسلامية رغم انه كان يتمنى ذلك، فاكتفى بتقوية الروابط بين الدول الإسلامية واحتفاظ كل واحدة منها بشخصيتها، أى إقامة حلف إسلامى تحت زعامة الدولة العثمانية . وإضافة إلى ذلك كان الأفغانى يريد أن تكون دول الحلف الإسلامى ذات طابع دستورى الأمر الذى أدى إلى تعارض هذه الرؤى مع أفكار السلطان عبد الحميد .

وهناك عوامل أخرى باعدت بين الأفغانى والسلطان عبد الحميد تتمثل فى إيمان الأفغانى بقضية وحدة المسلمين وفى ذات الوقت وقوفه مع القوميين الأتراك ضد السلطان، كذلك فإن الأفغانى لم يكن يتعرض بأى نقد أو تنديد ضد الأستعمار الفرنسى فى وقت كان فيه السلطان بحاجة إلى مقاومة النفوذ الفرنسى فى شمالى افريقيا . ورغم تنديد الأفغانى بالإحتلال البريطانى فى مصر فقد جرى تنسيق وتخطيط مع (بلنت) البريطانى يقضى بإقصاء الخلافة عن السلطان عبد الحميد والعثمانيين عموما .

ويضاف إلى تلك العوامل إعتراف الأفغانى بمبدأ التوسع الروسى فى الهند رغم الحرب الروسية والأطماع الروسية، بل ونصحه بالاستعانه بدولة فارس والأفغان فى هذا السبيل، ووجود خلاف عقدى بين الأفغانى وبين علماء إستانبول، واستنكاره تركيز السلطان للسلطات فى يده حين شعر بميول ديمقراطية لدى وزرائه وصدوره العظام فى حين كان الأفغانى يطالب بالديمقراطية وحرية الرأى [١] .

---

(١) محمد حرب : السلطان عبد الحميد الثانى آخر السلاطين العثمانيين الكبار . ص ١٧٤ .

التيار القومى العربى:

بداية نود أن نشير إلى ملاحظة هامة وهى أن الكلام هنا حول القومية سوف يقتصر على البلدان العربية التى كانت تحت الحكم العثمانى مباشرة ولا سيما الشام والعراق على وجه الخصوص، ولن يشمل مصر والسودان أو شمالى افريقيا التى كانت خاضعة للإستعمار الأوربى ومعزولة عن بقية الشرق العربى والتى اتخذت الحركة الوطنيه فيها شكلا اقليميا خاصا . أما منطقة شبه الجزيرة العربية فلم تكن أوضاعها الإجتماعية والاقتصادية المتردية تسمح بظهور حركة قومية (١) .

وهناك جملة عوامل ساعدت على ظهور تيار الحركة القومية فى هذه الولايات العربية يأتى فى مقدمتها المؤثرات الغربية فى الشام خاصة والعراق بشكل عام .

كذلك فقد لعبت التنظيمات التى أصدرتها الدولة العثمانية فى القرن التاسع عشر دوراً هاماً فى تغذية هذا التيار كمرسوم « كلخانة » الذى صدر فى عام ١٨٣٩ وقضى بالمساواة بين المسلمين وغير المسلمين أمام القانون، ومرسوم التنظيمات الخيرية عام ١٨٥٦ الذى أقر وأكد مبدأ المساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية، إلا أن هذه النظم لم تطبق تطبيقاً سليماً مما كان له أثره السئ فى بعض البلدان كالشام الذى تكثر به الأقليات المسيحية .

ويضاف إلى ذلك جهود الإدارة المصرية – لاسيما فى الشام – فى الإهتمام ببعض الأنشطه كالتعليم والمواصلات وأمور الصحة وجعل التعليم باللغة العربية، إضافة إلى الاهتمام بشئون الزراعة، وفوق ذلك كله تمتع أهالى البلاد على إختلاف عقائدهم بالمساواة وإنشاء مجالس للشورى لمساعدة الحكومة فى تأدية واجباتها . وعلى الرغم من قصر مدة الحكم

---

(١) محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٦٠ .

المصرى فى الشام (١٨٣٢ - ١٨٤٠) إلا أنها مهدت السبيل لنهضة أدبية تحولت إلى نهضة سياسية عربية .

وأخيراً نشير إلى الإرساليات الأجنبية التى لعبت دوراً كبيراً فى الشام نظرا لوجود أعداد كبيرة من المسيحيين ووجود الأراضى المقدسة بها، فكانت هذه المنطقة مركزاً لنشاط إرسالى منذ القرن السابع عشر، ولاسيما الإرساليات الكاثوليكية، ثم دخلت البعثات البروتستانتية التبشيرية بلاد الشام قبل الحكم المصرى بقليل، واستمرت هذه البعثات تزاول نشاطها بعد خروج محمد على من الشام خاصة فى الميدان الثقافى حيث جرى إفتتاح كثير من المدارس فى بيروت وبيت المقدس لاسيما الكليه السورية البروتستانتية فى عام ١٨٧٦ (الجامعة الأمريكية فيما بعد) فى بيروت . وقد أدى نشاط البروتستانت الأمريكان إلى نشاط البعثات الكاثوليكية القديمة مثل الجوزويت الذين أنشأوا مدارس فى بيروت وحلب ودمشق وزحلة وتوجوها بإنشاء جامعة " سان جوزيف " . وكان التعليم يتم باللغة العربية فى هذه المدارس [١] .

ولقد مرت حركة تطور التيار القومى العربى منذ ظهوره وحتى قيام الحرب العالمية الأولى بمرحلتين أساسيتين : الأولى تبدأ من عام ١٩٠٨ حين أعلن الدستور (المشروطية) واستمرت حتى عام ١٩١١، والسمة الغالبة فى هذه المرحلة هى الوفاق العربى مع الحركة القومية التركية التى كانت موجهة ضد إستبداد السلطان عبد الحميد الثانى الذى انعكس أيضا على الولايات العربية .

أما المرحلة الثانية التى بدأت منذ عام ١٩١٢ وحتى عام ١٩١٤ فقد اتخذت الحركة العربية خلالها موقفاً متميزاً بل معاديا للدولة العثمانية والإتحاد والترقى .

---

(١) محمد أنيس : نفس المرجع . ص ٢٦٤ .

ففى المرحلة الأولى حدث ما عرف بالإنقلاب الدستورى، وانضم العرب إلى العثمانيين ظنا منهم أن عهد الإستبداد قد ولى فقاموا بتأسيس جمعية (الإخاء العربى العثمانى) فى عام ١٩٠٨ بواسطة بعض العرب ونوابهم فى الأستانة . وكانت تهدف إلى تدعيم أواصر الصداقة العربية العثمانية، إلا أن الإتحاديين قاوموا هذه الجمعية وطاردوا الضباط العرب وقرروا إغلاق الجمعية وجريدتها التى أصدرتها فى الأستانة باللغة العربية، وراحوا يقصون العرب عن الوظائف الكبيرة ويقاومون اللغة العربية . وقد حلت هذه الجمعية فى أعقاب الإنقلاب الذى قام به السلطان عبد الحميد .

وفى المرحلة الثانية من مراحل التيار القومى العربى التى بدأت عام ١٩١٢ ظهرت عدة جمعيات معادية للدولة العثمانية كان بعضها يمارس نشاطه بشكل علنى والآخر بشكل مستتر، ومن هذه الجمعيات :

١ - المنتدى الأدبى : الذى أسسه الموظفون والنواب والكتاب العرب فى إستانبول فى صيف ١٩٠٩ كان ظاهره أدبيا وباطنه العمل القومى، وأصبح بمثابة ملتقى للشباب العربى فى الأستانة . ومارس هذا المنتدى أنشطة سياسية، واتخذ له فروعاً فى الشام والعراق والقاهرة، وظل يمارس نشاطه إلى أن حل فى عام ١٩١٥ .

٢ - الجمعية القحطانية : وهى جمعية سرية أنشئت فى عام ١٩٠٩ واشترك فى تأسيسها خليل حمادة باشا الذى كان وزيراً سابقا للأوقاف وعزيز على المصرى، وغيرهم من الضباط . وكانت هذه الجمعية تهدف إلى تحويل الدولة العثمانية إلى دولة ثنائية ذات شقين: الأول دولة عربية لها برلمانها وحكومتها المحلية ولغتها العربية يحكمها السلطان العثمانى . والشق الثانى دولة عثمانية تحت

حكم السلطان أيضا . وظلت هذه الجمعية تمارس نشاطها وتدعو إلى أفكارها حتى قيام الحرب العالمية الأولى حيث تحول أعضاؤها إلى جمعيتى العهد وجمعية العربية الفتاة .

٣ - حزب اللامركزية العثمانى : أسس هذا الحزب بعض الشوام المقيمين بالقاهرة فى عام ١٩١٢ أمثال رفيق العظم، والشيخ رشيد رضا، وحقى العظم، ومحب الدين الخطيب، وشبلى شميل، وداود بركات وغيرهم، برئاسة رفيق العظم . وكان هذا الحزب يهدف إلى المطالبة بجعل الإدارة الحكومية قائمة على أساس اللامركزية فى جميع الولايات العربية وباقى ولايات الدولة العثمانية، واتخذ له فروعا فى الشام، كما كان على صلة بالجمعيات الأخرى فى الشام والعراق، واستمر هذا الحزب إلى ما بعد دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى .

٤ - جمعية العهد : أسسها عزيز على المصرى بعد تلاشى الجمعية القحطانية خوفا من الوشاية . وقد كثر فيها الضباط العراقيون، لذا فقد كان لها فروع فى الموصل وبغداد، ويقال إن لهذه الجمعية تأثيراً فى الثورة العربية عام ١٩١٦ .

٥ - جمعية العربية الفتاة : أسست هذه الجمعية فى باريس عام ١٩٠٩، وكانت تسمى فى البداية (جمعية الناطقين بالضاد) ثم تحولت إلى (العربية الفتاة) عام ١٩١١ . وقد تم إنشاؤها على يد الشبان العرب الذين يدرسون فى باريس بهدف المطالبة باستقلال البلاد العربية . وقد نقل أعضاؤها مركزها بعد انتهاء دراستهم من باريس إلى بيروت ثم إلى دمشق، وظلت تتسم بطابع السرية الشديد نظراً لحسن

تنظيمها، فلم يعرف أعضاؤها إلا حين أعلنوا عن أنفسهم [١] .

وبالإضافة إلى الجمعيات السابقة هناك جمعيات أخرى ربما تكون أقل شأنا لكنها كانت تسير فى تيار العروبة مثل :

أ – لجنة الإصلاح البيروتية أو جمعية بيروت الاصلاحية : والتى تأسست عام ١٩١٢ من أعيان بيروت المسلمين والمسيحيين، وأنضم إلى برنامجها لجنة أخرى برئاسة طالب النقيب فى البصرة، فكان البرنامج المشترك ينادى بالاستقلال الذاتى للدول العربية فى إطار اللامركزية . وكان من أهدافها جعل اللغة العربية لغة الدواوين الحكومية، وأن يكون موظفو الولاية من أبنائها، ويصبح لكل ولاية مجلس تمثيلى . وحين أذيع برنامج الجمعية عام ١٩١٣ سارعت حكومة الاتحاديين بحلها الأمر الذى أدى إلى استياء شديد فى الأوساط العربية .

ب – المؤتمر العربى الأول يونيه ١٩١٣ : جاءت فكرة عقد هذا المؤتمر من خلال بعض الشبان العرب فى باريس، وكانوا ضمن جمعية العربية الفتاة، ووجهوا الدعوات إلى حزب اللامركزية بالقاهرة وبعض الجمعيات الأخرى، والجاليات العربية فى أمريكا . وجرى عقد المؤتمر فى قاعة الجمعية الجغرافية . وقد اتفق المؤتمرون حول فكرة اللامركزية دون الوصول إلى حد الانفصال، لكن الاتحاديين الأتراك حاولوا عرقلة المؤتمر رغم انهم ارسلوا مندوبا لهم فى المؤتمر وافق على كل قراراته، إلا أنه حين صدرت المراسيم التطبيقية من الأستانه جاءت مشوهة للمقررات والاتفاقات التى أبرمت بين العرب

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : تاريخ العرب الحديث والمعاصر ص ٢٤٦ .

والأتراك، وعمد أعضاء الاتحاد والترقى إلى نشر التفرقة بين الزعماء العرب، واغراء البعض بالمناصب وأولهم رئيس مؤتمر باريس نفسه (عبد الحميد زهراوى) . وفى النهاية فشل المؤتمر وسرت العداوة بين الضباط العرب والاتراك .

هكذا بدأت وسارت حركة التيار القومى العربى فى أطوارها المختلفة، ولاقت فى ذلك عنتاً شديداً، شعر العرب فى خلالها باليأس والقنوط فى محاولاتهم للتفاهم مع الدولة العثمانية وتحقيق مطالبهم المتواضعة للعمل فى اطار الوحدة العثمانية حتى وصلوا إلى إختيار طريق الثورة إبان الحرب العالمية الأولى .

مراجع الفصل الثاني

- حمدنا الله مصطفي : التطور الاقتصادي و الاجتماعي في السودان ١٨٤١-١٨٨١ . دار المعارف . القاهرة ١٩٨٥ .

- سعد الزبير : الزبير باشا رجل السودان .

- عبدالرحيم عبدالرحمن : الدولة السعودية الأولى .

- ________ : تاريخ العرب الحديث و المعاصر .

- محمد إبراهيم أبو سليم : منشورات المهدية .

- محمد حرب : السلطان عبدالحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار .

- محمد فؤاد شكري : السنوسية دين و دولة .

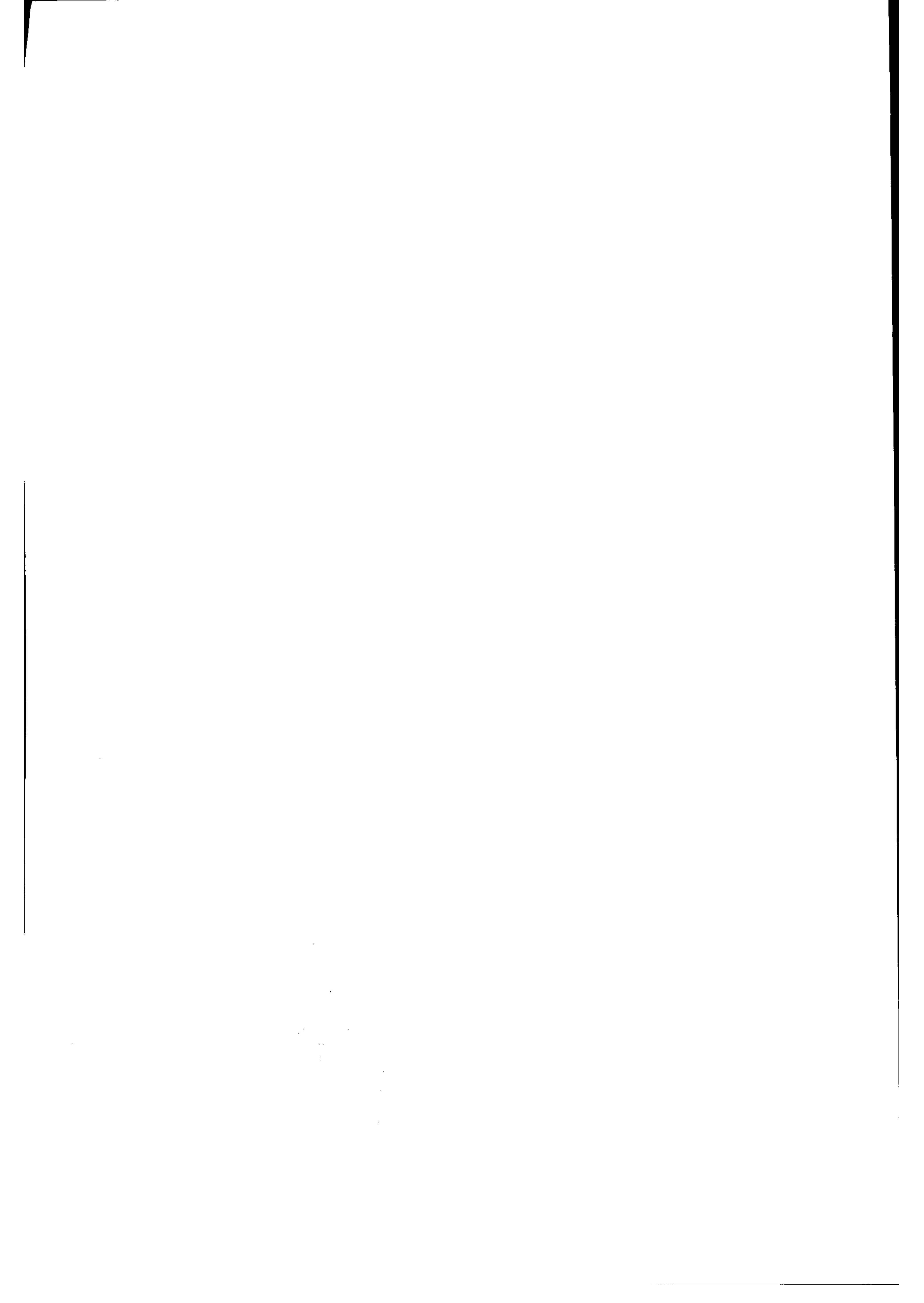
- نعوم شقير : تاريخ السودان . الجزء الثاني .

- هولت : المهدية في السودان ، ترجمة جميل عبيد ، مراجعة د.أحمد عبدالرحيم مصطفى

الفصل الثالث

المشرق العربى والحرب العالمية الأولى

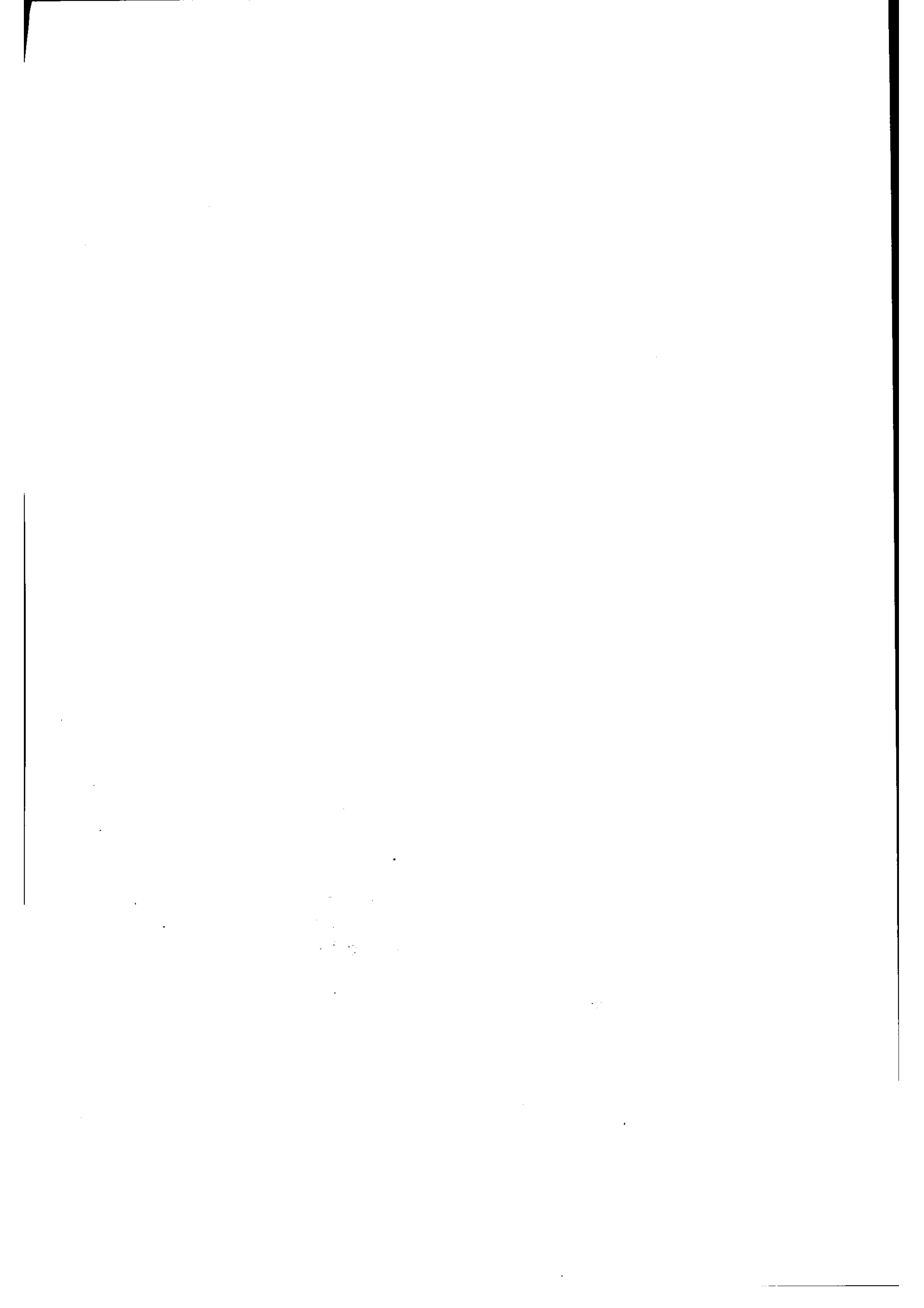
- الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ .
- مراسلات الحسين مكما هون .
- اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ .
- تصريح بالفور عام ١٩١٧ .
- حملة اللنبى وتطور الأحداث .
- ختام الحرب ومصير العرب .



الفصل الثالث (المشرق العربي و الحرب العالمية الأولي)

الأهداف :

- تبيان الدور البريطاني في تغيير العرب لموقفهم من مساندة الدولة العثمانية في بادئ الأمر .
- ظهور مصطلح القومية بشكل سافر فيما عرف بالثورة العربية الكبرى .
- التعرف على الأساليب البريطانية و مراوغات ساسة بريطانيا و إخلالهم بوعودهم تجاه العرب و توالي الطعنات ضد العرب من خلال اتفاقية سايكس – بيكو ، و تصريح بالفور و غيرهما .



الفصل الثالث

المشرق العربى والحرب العالمية الأولى

كانت حادثة سيراييفو فى البلقان هى السبب المباشر الذى أدى إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى حين قتل ولى عهد النمسا على يد أحد أعضاء المنظمات السرية، الأمر الذى أدى إلى إنقسام العالم إلى قسمين : الأول عرف بدول الوفاق وتتزعمه بريطانيا وفرنسا وروسيا . والقسم الآخر بزعامة كل من المانيا والنمسا والمجر ثم انضمت إليه الدولة العثمانية، وعرف باسم دول الوسط . ورغم أن بريطانيا ظلت حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حليفاً تقليديا للدولة العثمانية ضد روسيا، إلا أنها تخلت عن هذه السياسة حين راحت تحتل مصر وقبرص بل وترنو ببصرها إلى جنوبى العراق عقب إستثمار إحدى الشركات البريطانية للنفط الإيرانى . كذلك فقد تحالفت فرنسا، وقد كانت هى الأخرى حليفة للدولة العثمانية، مع روسيا وضعف نفوذها فى العاصمة العثمانية .

والجدير بالذكر أن موقف الاتحاديين فى بادئ الأمر كان هو الحياد إزاء هذه الحرب، إلا أن إتجاه فريق منهم داخل جمعية الإتحاد والترقى التى كانت تقبض على أزمة الأمور، ولاسيما أنور باشا وبعض رفاقه، مالوا ميلاً شديداً نحو المانيا، فشهدت السنوات الأولى من القرن العشرين تفوق التجار الألمان والنمسويين والإيطاليين لاسيما وأن السلطان عبد الحميد كان قد اتجه إلى التقارب مع المانيا التى كانت هى الأخرى تبحث لها عن أسواق ومستعمرات عقب إتمام وحدتها، وراحت تمارس سياسة الزحف نحو الشرق Drang Nach Osten على يد القيصر الألمانى وليم

الثانى، ومن ثم أخذ التغلغل الألمانى صوراً متعددة فى الجوانب العسكرية والإقتصادية والثقافية . ومن أهم ثمرات هذا التقارب الألمانى العثمانى مشروع سكة حديد بغداد .

دخلت الدولة العثمانية الحرب واحتلت بريطانيا العراق وفكر العثمانيون فى غزو مصر التى كانت تحت الإحتلال البريطانى . وفى خلال الحرب بدأت الدولة العثمانية تتبع استراتيجية دينية إسلامية تستند إلى نداءات الجامعة الإسلامية، كما استعمل السلطان لقب الخلافة فى إعلان الجهاد ضد دول الوفاق وطلب إلى مسلمى العالم جميعاً لاسيما الخاضعين للسيطرة الروسية والبريطانية أن يشتركوا فى الحرب ضد « الكفار » . وقد سببت هذه الإستراتيجية إزعاجاً للبريطانيين والفرنسيين والايطاليين فى المستعمرات التى كانت بحوزتهم، لكن الضربة الكبرى التى وجهت إلى هذه السياسة كانت على يد الثورة العربية الكبرى التى نشبت عام ١٩١٦ بقيادة الشريف حسين .

بدأ سير العمليات الحربية فى المنطقة بعد مرور يومين على إعلان الحرب حين نزلت قوات بريطانية – هندية فى مصب شط العرب وكان يقود هذه الحملة « ديلامين » W. S. Delamain . وقد دافع الاتراك عن خطوطهم ومواقعهم لكن البريطانيين راحوا يتقدمون حتى دخلوا البصرة وواصلوا الزحف واحتلوا (القرنة) و (العمارة) فى ٣ يونيه عام ١٩١٥ .

ويبدو أن هناك عاملين رئيسيين كانا يحركان البريطانيين للسيطرة على هذه المنطقة يتمثل أولهما فى بترول عبدان وثانيهما فى المحافظة على هيبة بريطانيا فى الخليج العربى والعراق وإيران وأفغانستان وشبه الجزيرة العربية .

بدأت المرحلة الثانية من الحملة البريطانية بالزحف نحو بغداد حين

صدرت الأوامر الى تونسد Townsend بالهجوم على هذه المدينة لكن دون أن تصله إمدادات كافية فى حين كان الأتراك قد تلقوا إمدادات جديدة فحلت الهزيمة بالجيش البريطانى الهندى فى موقعة (سلمان باك) قرب بغداد فى الرابع عشر من نوفمبر عام ١٩١٥ فانسحبت القوات البريطانية إلى (كوت العمارة) وحاصرهم الجيش التركى فى الرابع من ديسمبر حتى اليوم التاسع والعشرين من ابريل عام ١٩١٥ فأعلنوا الإستسلام .

تمسك البريطانيون بأهمية فتح بغداد، فقاموا بتجهيز حملة بقيادة (مود) فى عام ١٩١٧ هاجمت القوات التركية وطاردتهم حتى سلمان باك (المدائن)، فاضطر الأتراك إلى الإنسحاب عن بغداد فدخلتها الحملة فى هذا العام وأصدر الجنرال مود منشوراً تاريخيا يتقرب من خلاله إلى أهل العراق . ثم تابع الجيش البريطانى زحفه على الجهات الأخرى بقيادة (مارشال) الذى خلف مود فقام بإحتلال سامراء ثم الرمادى وغيرهما، كما توجهت قوة أخرى إلى الموصل حيث توقفت عند النقطة التى تبعد إثنا عشر ميلاً عن الموصل حتى إعلان الهدنة عام ١٩١٨ لأن الموصل كان قد جرى وضعها تحت النفوذ الفرنسى فى معاهدة سايكس - بيكو، فى حين وضعت بغداد والبصرة ضمن منطقة النفوذ البريطانى . ومع ذلك ظلت بريطانيا مصممة على وضع الموصل تحت نفوذها فقامت باحتلالها مع النقطه التابعة لها مقابل حصول فرنسا على جزء من النفط، وبذلك تم وضع العراق كله تحت السيطرة البريطانية .

وقد شن الأتراك والألمان حملة فى جبهة سيناء وقاموا بهجوم واسع على منطقة قناة السويس فى العاشر من يناير عام ١٩١٥ حين زحفت ثمان فرق تركية عبر شبه جزيرة سيناء متجهة نحو غزة - القنطرة - معان - السويس، فتصدى لها البريطانيين بجيش قوامه خمسين ألف

مقاتل أكثره من البريطانيين ومن الاستراليين والهنود وغيرهم . وفى الثالث من فبراير عام ١٩١٥ بدأ الأتراك هجومهم على القناة لكنهم فشلوا تماماً حين تم سحق جنودهم فى الساحل الغربى للقناة، كما نضبت زخائرهم وموادهم الغذائية فاضطروا للعودة إلى قواعدهم فى غزة ومعان. وقد جرى – عقب هذا الهجوم الفاشل – تنظيم غزوات قام بها البدو على مصر من الجهتين الغربية والشرقية لكنها باءت بالفشل .

أما العمليات العسكرية التركية التى جرت فى البحر فقد كان مصيرها الفشل أيضا إذ أن الاسطولين البريطانى والفرنسى كانا يحاصران السواحل السورية وسواحل البحر الأحمر المواجهة لشبه الجزيرة العربية .

كذلك فقد نجح البريطانيون فى شبه الجزيرة العربية فى صد جميع محاولات القوات التركية اليمنية عام ١٩١٥ للإستيلاء على عدن .

الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ :

لعبت المخابرات البريطانية إضافة للجهود الدبلوماسية دوراً هاماً فى تهيئة العرب للثورة فى الحجاز ضد الأتراك العثمانيين فى محاولة من الشريف حسين لاستخدام العرب لتحقيق طموحاته لتكوين دولة عربية كبرى وخلافة إسلامية يكون هو على رأسها . لذلك كله فقد امتنع عن إعلان الجهاد وساندته بعض القبائل فى الحجاز . ويبدو أن الشريف حسين كان واقعاً بين نارين؛ ففى الحجاز كانت توجد وحدات لا بأس بها من القوات التركية . ومن ناحية أخرى كان الأسطول البريطانى يمخر عباب البحر الأحمر وفى مقدوره أن يحاصر موانى الحجاز ويقطع الامدادات الغذائية عنه، لذلك نجده ينتهج فى بداية الأمر سياسة المراوغة التى ظلت عاماً ونصف العام. ففى الوقت الذى أرسل فيه ابنه الأمير فيصل فى عام ١٩١٥ إلى دمشق حيث استقبله جمال باشا، كان على صلات سرية مع القوميين السوريين .

وهناك تساؤل على جانب من الأهمية وهو لماذا فضل البريطانيون الشريف حسين والإعتماد عليه فى هذه الظروف ولم يعتمدوا على الوطنيين السوريين الذين - ربما - كانوا أصلح العناصر وأكثرها وعياً سياسياً ؟. ويجيب البعض بأن هذه المفاضله كانت بسبب وجود القوميين السوريين فى قلب الإمبراطورية العثمانية وكان من الصعب الوصول إليهم، كما أنه لم يكن من الممكن التعاون مع السوريين الموجوديين بالقاهرة الذين انقطعت صلتهم بموطنهم إلى حد ما [١] .

وفى ظننا ان هذا التفسير وإن كان من الناحية الشكلية يعد مقبولاً، إلا أنه فى حاجة إلى اعادة النظر وتقليب وجهات النظر . فلم يكن من المتعذر على بريطانيا التى تملك من الأجهزة المخابراتية والسياسية أن يعوزها الإتصال بالقوميين السوريين، كما أنه ليس من الدقة القول بأن القوميين السوريين الموجودين بالقاهرة قد تقطعت بهم الأسباب مع إخوانهم ونظرائهم فى الشام، فهم جميعاً أصحاب فكر واحد ولم يكونوا يوماً من الأيام بعيدين عن تطور الأحداث، بل إنهم كانوا فى قلب الأحداث لاسيما فى هذه الفترة بل ومشاركين فيها . فلا ننسى أنهم قد أبرقوا إلى المسئولين البرطانيين عقب تصريح بلفور منددين به ومستنكرين له . أما السبب الأقرب إلى الصواب فى تقديرنا - لتفضيل الشريف حسين - ربما يكمن فى استعداد الرجل وطموحاته التى لوح له بها البريطانيون . كما أنه كان مسموع الكلمة من جانب الحجازيين والمسلمين عامة لأنه كان يتمتع بنسب شريف يتيح له اكتساب محبة جميع المسلمين ليس فقط فى المنطقة العربية ولكن فى جميع أرجاء العالم الإسلامى . وباحتضان البريطانيين للشريف حسين يمكن توزيع الولاء الإسلامى بين السلطان العثمانى

---

(١) محمود صالح منسى : المرجع السابق . ص ٧٢ .

والزعيم العربى المسلم، وبهذا تستطيع بريطانيا أن تستثمر ذلك فى تجزئة الولاء فى العالم الإسلامى بين هاتين الزعامتين .

وفى مستهل الحرب العالمية الأولى وبتعليمات من كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر جرى جس نبض الشريف حسين عما إذا كان سيقف مع الدولة العثمانية إذا دخلت الحرب ضد بريطانيا . ولم يكن جوابه حاسماً ربما لأنه لم يكن قد تلقى عروضاً من جانب البريطانيين، الا أنه فى المرة الثانية حين اتصل به كتشنر وافق حين ضمن له تأمين سلطته كشريف وحمايته من أى خطر خارجى ووعده بمساعدة العرب فى نيل إستقلالهم من الدولة العثمانية شريطة التحالف مع بريطانيا .

ونعود إلى إتصال الأمير فيصل بالزعامات السورية فى دمشق عام ١٩١٥ الذى استمع اليهم وتعرف على مطالبهم وهو فى طريقه إلى حضور (مجلس المبعوثان) فى الأستانة . وفى طريق عودته إلتقى بهم مرة أخرى فوجدهم ميالين إلى الثورة ضد العثمانيين لاسيما وأن جمال باشا قائد الجيش الرابع العثمانى فى الشام كان يسير على سياسة البطش والقمع هناك . وبالإضافة إلى ذلك فقد اكتشفت بعض المراسلات بين بعض الزعماء العرب والقنصل الفرنسى للتخلص من الحكم العثمانى ووضع بلادهم تحت الحماية الفرنسية . وعلى هذا النحو جرى وضع خطة للتفاوض بين الشريف حسين وبريطانيا عرفت باسم (بروتوكول دمشق) فى مايو عام ١٩١٥ والتى جاءت نصوصها على النحو التالى :

١ - إعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية وفقاً للحدود التى حددها بروتوكول دمشق .

٢ - موافقة بريطانيا على إعلان خليفة عربى على المسلمين .

٣ - أفضلية بريطانيا فى كل مشروع إقتصادى فى البلاد العربية .

٤ - تعهد الطرفين فى التعاون لمجابهة أى قوة تهاجم أحد الطرفين .

٥ - أن توافق بريطانيا على إلغاء الإمتيازات الأجنبية فى البلاد العربية .

٦ - تكون مدة الإتفاق الخاص بالتعاون العسكرى بين الطرفين خمس عشرة سنة .

وتجدر الإشارة إلى أن بروتوكول دمشق إذا كان قد اشترط إستقلال البلاد العربية داخل حدود معينة فإن هذا الإستقلال عن الدولة العثمانية لا يعنى إستبداله بسيطرة أجنبية، كما أن القوميين العرب لم يكونوا - وفقا لهذا البروتوكول - ملتزمين بأى إتفاق لا يتم وفقاً لهذه الأسس . كذلك فإن هذا البروتوكول لم ينص صراحة على إقامة دولة عربية واحدة، إذ أنه من غير المعقول أن يحدث ذلك فى غياب بقية البلدان العربية الأخرى التى لم تحضر إجتماع دمشق، فلربما لا تقبل الإندماج داخل هذه الدولة الموحدة [١] .

وبموجب بروتوكول دمشق وقيام هذا التحالف قوى مركز الهاشميين فى العالم العربى حيث منحهم أوراقاً إضافية فى معترك اللعبة السياسية مع بريطانيا لتحقيق أهدافهم التى يصبون اليها .

(١) محمود صالح منسى : المرجع السابق . ص ٧٦ .

مراسلات الحسين - مكماهون (١٤ يوليه ١٩١٥ - ١٠ مارس ١٩١٦) :

ما أن عاد فيصل من دمشق وقام بتقديم تقرير لوالده عما دار مع الزعماء السوريين حتى استأنف الشريف حسين مفاوضاته مع بريطانيا والتى اشتهرت باسم (مراسلات الحسين - مكماهون) . وهى عبارة عن عشر رسائل متبادلة بين كل من السير هنرى مكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر والشريف حسين . خمس منها كتبها الشريف حسين وخمس كتبها مكماهون . وهى فى مجموعها تتناول شروط العرب للدخول إلى جانب دول الوفاق أثناء الحرب العالمية الأولى .

وفى أول رسالة للشريف حسين تناول هذه الشروط وهى لا تخرج عن تلك الشروط الواردة فى بروتوكول دمشق، لكن أضيف اليها بند خاص بالخلافة وبند خاص بمد سريان الاتفاق . وكانت حدود الدولة العربية المستقلة التى وردت تحوى الحدود التالية : شمالاً : خط مرسين، أطنة إلى مايوازى خط العرض ٣٧ شمالاً، ثم على إمتداد خط بيرجيك - أورفة - ماردين - مديان - جزيرة ابن عمر والعمادية إلى حدود إيران . وجنوبا : المحيط الهندى باستثناء عدن . وشرقا على إمتداد حدود إيران إلى الخليج العربى جنوبا . وغرباً على امتداد البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى مرسين .

وفى ٣٠ أغسطس بعث مكماهون برده على رسالة الحسين أوضح فيها رغبة بريطانيا فى استقلال البلاد العربية وموافقتها على أن يكون الخليفة عربياً حين يتم إعلان الخلافة، لكنه أرجأ الكلام فى مسألة الحدود المقترحة على اعتبار أن هذا الموضوع سابق لأوانه . وهكذا جاء رد مكماهون على حد قول البعض مثالاً ، للمراوغات الرسمية والحماقة ، لأنه حاول التوفيق بين أمرين يستحيل الجمع بينهما، فالخطاب كان يستميل

الشريف ليصبح حليفاً، ومن جهة أخرى يحرمه من الوسيلة الوحيدة التى تمكنه من جعل التحالف فعالاً[١].

وفى التاسع من سبتمبر عام ١٩١٥ بعث الشريف حسين خطابا إلى مكماهون معرباً عن دهشته لما ورد من مراوغة وفتور بخصوص حدود الدولة العربية المستقلة موضحاً بأن مقترحاته لم تكن من عنده بل تقدم بها الشعب العربى . وكان الحسين متشدداً فى مسألة الحدود واعتبرها مسألة جوهرية، وأنها تتوقف على أمر واحد لا ثانى له وهو هل يقبل بالحدود المقترحة أم يرفضها ؟

أجاب مكماهون على رسالة الحسين فى الرابع والعشرين من اكتوبر عام ١٩١٥ وهى رسالة هامة لأنها تحوى التعهدات التى دخل العرب على أساسها الحرب والتى لم توف بها بريطانيا . وقد ذكر للشريف حسين بأن الحكومة البريطانية قد خولته إعطاء بعض التأكيدات للعرب وهى بمثابة تعهد من جانب بريطانيا للاعتراف باستقلال العرب، وتأييد للشريف فى نطاق الحدود التى عينها الحسين مع استثناء بعض الأجزاء من آسيا الصغرى وسورية . وهذه المنطقة المستثناه من حدود الدولة العربية المستقلة – والتى تضمنها بروتوكول دمشق وخطاب الحسين بتاريخ ١٤ يوليه عام ١٩١٥ – هى المنطقة التى تشمل الان جمهورية لبنان الواقعة غربى دمشق وحمص، والتى تشمل أيضا جزءاً من سورية غربى حمص وحماة وحلب بالإضافة إلى منطقتى الإسكندرونة ومرسين فى الطرف الشمالى الغربى لسورية . وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاستثناء لم يكن يشمل البتة فلسطين التى كانت تعرف باسم (متصرفية القدس الشريف) .

وفى الخامس من نوفمبر عام ١٩١٥ رد الحسين بالموافقة على إستثناء ضم مرسين وأطنة من الدولة العربية رغبة فى تسهيل الإتفاق،

---

(١) جورج أنطونيوس : يقظة العرب . ص ٢٥٣ .

لكنه تمسك بولايتى حلب وبيروت. ولكن فى الثالث عشر من ديسمبر رد مكماهون على الخطاب السابق مصراً على استثناء ولايتى حلب وبيروت نظراً لتعلق المصالح الفرنسية بهما، كما أكد فى خطابه بأن بريطانيا العظمى لا تنوى عقد أى صلح إلا إذا كان متضمناً بشكل أساسى « حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك » . فرد الحسين فى أول يناير عام ١٩١٦ مبدياً تساهلاً فى إنشاء المنطقة الواقعة غربى خط دمشق - حمص - حماة - حلب . وهو تساهل - فى نظر البعض - لتجنب كل ما يكدر صفو التحالف بين بريطانيا وفرنسا . وهكذا كان هذا الخطاب خطوة هامة وفاصلة فى إتمام الصفقة مع بريطانيا، والتسليم بكافة النقاط التى أثارها مكماهون على الرسالة السابقة، واحتفاظ العرب بحقوقهم فيما يتعلق بالبصرة وبغداد ولبنان إلى نهاية الحرب [1] .

وفى الثلاثين من يناير عام ١٩١٦ رد مكماهون على الرسالة السابقة مثنياً على الشريف حسين حول رغبته فى تجنب كل ما يؤدى إلى إحراج بريطانيا فى علاقاتها مع فرنسا، كما أبدى سروره من محاولات الحسين لاقناع الشعب العربى بضرورة الإنضمام إلى بريطانيا وحلفائها والكف عن مساعدة الأتراك والألمان .

لم تسلم مراسلات الحسين - مكماهون من النقد وذلك لأن الاتفاق بين الطرفين - بالنسبة لتحديد المنطقة التى جرى تحديدها لإقامة الدولة العربية المستقلة فى الأقاليم المتحررة من السيطرة العثمانية - لم يكن واضح المعالم حيال هذه الحدود . ومما زاد من حدة النقد لهذه المراسلات موضوع فلسطين التى أصر العرب على أنها جزء لا يتجزأ من المناطق التى تتكون منها الدولة العربية المستقلة حسب إتفاق الحسين - مكماهون، بينما إدعت بريطانيا عكس ذلك، باعتبار أن مكماهون لم يحدد حدوداً

---

(١) عمر عبد العزيز : دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر . ص ٥٦٥ - ص ٥٦٦ .

للدولة العربية بل قبل بمجموع الحدود التى اقترحها الشريف حسين مع بعض التحفظات . ولم تكن تحفظات مكماهون تشمل فلسطين، ولو كانت فلسطين تدخل ضمن تلك التحفظات التى حددها بالإسم لورد ذكرها صراحة [١] .

إعلان الثورة العربية وتطوراتها:

وعقب هذه المراسلات جرى تبادل لبعض الرسائل التى كانت تتعلق بالإستعدادات الخاصة لإعلان الثورة العربية الكبرى ضد الدولة العثمانية فى يونيه عام ١٩١٦ . فقد توجه فى صباح الخامس من يونيه كل من الأميرين على وفيصل إلى المعسكر الذى كانت تتجمع فيه قوة كانت تضم نحو الف وخمسمائة فرد وقاما بإعلان إستقلال العرب عن الدولة العثمانية، وهذا الإعلان يعتبر بمثابة بداية للثورة . وفى مكة المكرمة بدأت الثورة فى العاشر من يونيه حين جرى مهاجمة مراكز الحاميات العثمانية وتم الإستيلاء على مكة . كذلك فقد تم مهاجمة جدة، كما اتجه الأمير عبد الله إلى الطائف فحاصروها إلى أن سقطت فى يده، كذلك تم الإستيلاء على رابغ وينبع . وراح الأمير فيصل يتخذ طريقه صوب الوجه ليجعل منها قاعدة إنطلاق لعملياته العسكرية نحو الشمال، فاستطاع الإستيلاء عليها فى يناير عام ١٩١٧ ، وأصبحت الوجه تشكل تهديداً خطيراً على طريق مواصلات الأتراك فيما بين المدينة المنورة ودمشق . وقد تمكنت قوات الثورة من احتجاز ثلاث فرق عسكرية عثمانية فى اليمن نظراً لانقطاع إتصالاتها وانعزالها عن قواعدها الرئيسية فى الشام . وبالإضافة إلى ذلك كله فقد أغلق الطريق إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى أمام أى تقدم عثمانى ألمانى .

وبسقوط الوجه فى يناير عام ١٩١٧ تكون الثورة العربية قد اختتمت

---

(١)عمر عبد العزيز : المرجع السابق . ص ٥٦٨ .

مرحلتها الأولى التى كانت أعمالها الحربية تدور فى منطقة الحجاز، واحرزت نتائج لا بأس بها من حيث الإستيلاء على عدة مناطق وأسر الكثير من القوات التركية عدا حاميات المدينة المنورة التى حاصرتها قوات الثورة إلى ما بعد إنتهاء الحرب .

أما المرحلة الثانية من عمليات الثورة فقد بدأت مباشرة عقب الإستيلاء على الوجه وانتهت بالإستيلاء على العقبة حين قام فى يوليه عام ١٩١٧ لورانس العرب – الذى حاز ثقة الأمير فيصل وأصبح مستشاره العسكرى والسياسى وقائد العمليات الحربية التى قامت بها جميع الوحدات الشمالية من قوات الحجاز – بغارة عبر الصحراء إستولى فيها على العقبة التى أصبحت قاعدة هامة شكلت الجناح الأيمن للحملة التى سوف تنطلق من مصر بقيادة اللنبى لفتح الشام . وبفتح العقبة جرى تطوير هام لقوات الأمير فيصل من حيث التكوين والتشكيل فأصبحت قوات نظامية مدربة وفق النظم العسكرية الحديثة . وباحتلال العقبة أيضا إستطاع العرب إخلاء سواحل البحر الأحمر من الأتراك تماماً وأصبحوا يشكلون مع الجيش البريطانى جبهة واحدة .

ويرى البعض ان القوميين العرب إقترحوا على لورانس أن يسارع بالتقدم إلى دمشق لأن ذلك سوف يؤدى إلى اندلاع ثورة فى سورية ضد الأتراك، وبذلك يتم تحريرها بجهود العرب الخالصة دون الإستعانة بقوات أجنبية، إلا أن لورانس وقف ضد هذا الإقتراح لأنه كان منافيا لمخططات كل من الساسة والعسكريين البرطانيين، مع الأخذ فى الإعتبار أن لورانس كان يعمل وفقا لتعليمات المخابرات البريطانية [١] .

ولم يكن رد فعل الثورة العربية واحداً فى البلدان العربية . ففى العراق وقف الجزء الخاضع للحكم العثمانى موقفا معادياً للثورة على عكس

---

(١) لوتسكى : تاريخ الأقطار العربية الحديث . ص ٤٦٠ .

الجزء الآخر الذى كان خاضعاً للسيطرة البريطانية . وفى شبه الجزيرة العربية رحب سائر الحكام فيها بالثورة من خلال مهرجان جرى عقده فى العشرين من نوفمبر بالكويت حضره ابن سعود وأمير الكويت وشيخ المحمرة وعدد كبير من الشيوخ . وفى هذا الاجتماع ألقى ابن سعود خطاباً حماسيا حث فيه العرب على الإنضواء تحت راية الثورة خدمة للقضية المشتركة التى تهم كلا من بريطانيا والعرب .

وفى مصر كان العداء واضحاً للثورة لكنه لم يكن شاملاً واستمد قوته من مشاعر النقمة ضد بريطانيا، وأيضا مشاعر الموالاة للعثمانيين . أما الجاليات السورية والعراقية فى مصر فقد كانت أكثر حماساً للثورة وأفسحت الصحافة صدر صفحاتها للثورة نظراً لما كان للسوريين آنذاك من سيطرة على كثير من صحف القاهرة .

إتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ :

وفى الوقت الذى كان الثوار العرب يحاربون فيه من أجل استقلالهم عن الدولة العثمانية وإقامة دولة مستقلة على أساس التعهد البريطانى بالمساعدة فى الوصول إلى هذه الغاية، كانت دول الوفاق الثلاث (بريطانيا – فرنسا – روسيا) تجرى مفاوضات سرية لوضع حد للمسألة الشرقية وتجزئة أملاك الأمبراطورية العثمانية . وقد بدأت فكرة التجزئة والتقسيم حين توصلت بريطانيا وفرنسا إلى عقد إتفاقية سرية مع روسيا فى مارس عام ١٩١٥ لتلبية مطالب روسيا من حيث ضم كل من إستانبول والمضايق – فى حالة إنتصار دول الوفاق – إلى ممتلكات القيصر . وقد عرضت كل من بريطانيا وفرنسا تعهدات شفوية حيال هذا الموضوع إلا أن روسيا لم توافق عليها بل أرادت عقد إتفاق ملزم بخصوص ذلك . واضطرت بريطانيا وفرنسا إلى الموافقة على طلب روسيا – ضماناً لعدم خروجها من بين صفوفهم وعقدها لصلح منفرد مع المانيا – أن تعقد اتفاقية الأستانة فى مارس عام ١٩١٥ . ومن جانب آخر اعترفت روسيا بحقوق بريطانيا وفرنسا فى الممتلكات العثمانية الآسيوية، كما وافقت على أن تكون الأماكن الاسلامية المقدسة ضمن حكومة إسلامية مقدسة .

ما أن فرغت بريطانيا وفرنسا من مطالب روسيا حتى بدأتا الدخول فى مفاوضات سرية بخصوص تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية فى آسيا . ويبدو أن فرنسا كانت ملحة بل ومتلهفة على مسألة التقسيم خوفاً على ضياع مصالحها فى المنطقة لاسيما وأن بريطانيا كانت تقود العمليات العسكرية فى المنطقة وتخشى فى ذات الوقت أن تتم المباحثات بين الشريف حسين وبريطانيا على حساب المصالح الفرنسية فى الشام .

بدأت المفاوضات فى لندن عام ١٩١٥ مثل فيها الطرف البريطانى السير مارك سايكس Sykes والجانب الفرنسى جورج بيكو Picot . وقد تمحض عن هذه المفاوضات الإتفاقية المشهورة باسم سايكس – بيكو،

والإتفاقية السرية البريطانية الفرنسية، واتفاق القاهرة، لأن إحدى مراحل هذه الاتفاقية جرت فى القاهرة .

ومضمون إتفاقية سايكس – بيكو عبارة عن مذكرات متبادلة بين حكومات كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا جرى خلالها تحديد المناطق التى استحوزت عليها كل دولة .

وقد نصت الإتفاقية على أن تستحوز فرنسا على الساحل السورى بشكل مباشر، وجرى تلوين هذا الجزء باللون الأزرق . وبالإضافة إلى هذه المنطقة حصلت فرنسا على المدن الأربع الواقعة داخل الشام وهى دمشق وحمص وحماة وحلب . وإلى جانب ذلك كله جرى ضم الموصل إلى فرنسا ولكن بشكل غير مباشر، واتفق على تسميتها بالمنطقة (أ) .

أما منطقة النفوذ البريطانى المباشر والتى لونت باللون الأحمر فقد تضمنت العراق الذى شمل بغداد والبصرة باستثناء الموصل . وهناك منطقة أخرى ضمت إلى بريطانيا بشكل غير مباشر شملت المنطقة الداخلية من العراق وفلسطين ورمز إليها على الخريطة بالمنطقة (ب) . كما حصلت بريطانيا إضافة إلى ذلك على منطقة حيفا وعكا على ساحل فلسطين .

وقد نصت الاتفاقية كذلك على أن يتكون من المنطقتين أ ، ب الواقعتين بين المناطق البريطانية والفرنسيه إتحاد من الدول العربية أو الدولة العربية المستقلة يرأسها حاكم عربى، على أن تقسم هذه المنطقة إلى منطقتى نفوذ بريطانية وفرنسية ، كما نصت الإتفاقية أيضا على إنشاء ادارة دولية فى فلسطين، وجعل ميناء الاسكندرونة ميناءً حراً لتجارة الأمبراطورية البريطانية .

وهكذا مزقت هذه الإتفاقية ممتلكات الدولة العثمانية فى آسيا وبلاد العرب، وأصرت كل من بريطانيا وفرنسا على رسم الحدود التى تتفق

ومصالح كل منهما . فقد أصرت بريطانيا على أن تسيطر على ميناثى حيفا وعكا لنقل البترول من العراق إلى البحر المتوسط فى حالة استقرار الرأى على جعل فلسطين حكومة دولية .

وفيما يتعلق بفلسطين فقد تم وضعها تحت إدارة دولية نظراً لإختلاف كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا حولها حيث إرتأت فرنسا أن تكون فلسطين ضمن سوريا الواقعة تحت نفوذها، لكن بريطانيا عارضت ذلك كى تكون عكا منفذاً للعراق على البحر المتوسط وحتى تمنع أى تواجد فرنسى أو غير فرنسى قرب قناة السويس ومصر . وأما روسيا فنظراً لمصالحها الدينية ورعايتها للمعاهد والأديرة الأرثوذكسية فى فلسطين فلم تكن لتسمح بانفراد كل من بريطانيا وفرنسا فى الاستحواذ على فلسطين . لذلك كله إرتأت الأطراف ترك فلسطين مؤقتا بحيث يصبح نظام حكمها دوليا بعد الحرب [١] .

وعلى هذا النحو السابق تعتبر اتفاقية سايكس - بيكو معيبة لأنها تناقضت والاتفاق البريطانى مع الشريف حسين، بالإضافة إلى أنها مزقت منطقة المشرق العربى حين وزعتها بين بريطانيا وفرنسا الأمر الذى أدى إلى خلق مشكلات فى سبيل إقامة الوحدة . كذلك فإن هذه الإتفاقية قد وضعت المناطق التى تتمتع بالرخاء تحت السيطرة غير المباشرة لكل من بريطانيا وفرنسا، بينما وضعت الأجزاء الأقل تقدماً تحت السيطرة غير المباشرة اذ لا ضير فى هذه الحالة من مطالبتها بالإستقلال [٢] .

وعقب إندلاع الثورة البلشفية فى روسيا عام ١٩١٧، ورغبة من الحكام الجدد فى التشهير بالعهد القيصرى السابق قاموا بنشر كافة المعاهدات، وأرسل جمال باشا قائد الجيش الرابع فى الشام نص هذه الاتفاقيات إلى الأمير فيصل لكشف بريطانيا وفرنسا والحلفاء . وعلى إثر

---

(١) عمر عبد العزيز : المرجع السابق . ص ٥٧٧ - ٥٧٨ .

(٢) محمود ملسى : المرجع السابق . ص ٨٦.

ذلك راح الشريف حسين يستفسر من المندوب السامي البريطاني في القاهرة، فردت الحكومة البريطانية بأن الترك يعملون على بذر الشقاق بين العرب والحلفاء وأن بريطانيا وحلفاءها مصممون على الوقوف إلى جانب الشعوب العربية، وراحت تبرر نشر الوثائق المتعلقة بالخارجية الروسية بأنها لا تمثل إتفاقية مبرمة، بل هي لا تعدو أن تكون مجرد محاضر محادثات وتبادل وجهات نظر بين بريطانيا وفرنسا وروسيا جرت في بداية الحرب وقبل الثورة العربية، كما ذكرت بأن جمال باشا تجاهل نجاح الثورة العربية وانسحاب روسيا من الحرب الذي خلق ظروفاً مغايرة تماماً لأن هذه الاتفاقية لم تكن ستنفذ بسبب الإنسحاب الروسي ونجاح الثورة العربية . وهكذا استطاعت الحكومة البريطانية أن تهدأ من روع الشريف حسين وتجعله يواصل ثقته في وعود بريطانيا [١] .

(١) محمود صالح منسي : المرجع السابق . ص٨٧.

تصريح بالفور عام ١٩١٧ Balfour Declaration

بينما كان العرب يقومون بدورهم بإخلاص إلى جانب الحلفاء وفقاً للمراسلات والوعود التى جرى الاتفاق بشأنها، إذا بالحكومة البريطانية تصدر تصريحاً على لسان وزير خارجيتها « بالفور » كان بمثابة طعنة غادرة وجهت إلى الأمة العربية لا تزال تعانى منها حتى الآن، ونقصد بذلك تصريح بالفور الصادر فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧ بشأن إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

دوافع التصريح :

أفاض المؤرخون والسياسيون فى تناول الدوافع التى أدت إلى قيام الحكومة البريطانية بإصدار تصريح بالفور . والواقع ان هذه الإجتهادات التى ذكرها هؤلاء المحللون لا يمكن إغفالها لأنها بنيت على أسس علمية ومنهجية، لكن يبقى أن نعيد ترتيبها وتقليب النظر فيها حسب أهميتها التى تتراءى لنا، والتى يمكن تقسيمها إلى قسمين : دوافع رئيسية وأخرى ثانوية.

أولاً الدوافع الرئيسية : وتتمثل فى حرص بريطانيا فى المقام الأول على حفظ وتأمين مصالحها الإستراتيجية فى المنطقة المجاورة للقاعدة البريطانية الرئيسية فى مصر وقناة السويس وتأمين الإتصال البرى مع الشرق . فمما لاشك فيه أن موقع فلسطين يمثل أهمية عظمى للمصالح البريطانية لاسيما وأن الشام سوف يصبح تحت النفوذ الفرنسى وبالتالى ملاصقاً للنفوذ البريطانى فى مصر وقناة السويس الأمر الذى يؤدى إلى تهديد خطوط المواصلات البريطانية .

ويرتبط بهذا الدافع ضرورة ملء الفراغ الناشئ عن إنهيار الأمبراطورية العثمانية وذلك بإقامة دولة يهودية فى فلسطين . ولما كانت

بريطانيا وهى تقوم بعمليات عسكرية فى العراق للإستيلاء عليه، فقد قررت ألا يكون هناك فاصل بينها وبين مصر يقع تحت سيطرة دولة أخرى .

ثانياً الدوافع الثانوية : وهى متنوعة وجاءت على النحو التالى:

١ - كسب العناصر الصهيونية فى كل من المانيا والنمسا لاسيما وأن هذه العناصر كانت تفاوض دول الوسط للحصول على تصريح مماثل من الدولة العثمانية . وقد يفسر ذلك حرص الساسة البريطانيين على إصدار التصريح قبل أن تصدره أية دولة أخرى .

٢ - مخاطبة ود اليهود الروس الذين لعبوا دوراً هاماً فى الثورة البلشفية ومحاولة إغرائهم لإبقاء روسيا فى الحرب .

٣ - إستمالة الرأى العام اليهودى فى الولايات المتحدة الأمريكية إلى جانب دول الوفاق .

٤ - التكفير عن الآلام التى عاناها اليهود - كما يرى بالفور - ومكافأة الدكتور وايزمان على تجاربه العلمية التى لعبت دوراً رئيسياً فى المعارك العسكرية، والإستفادة أيضا من خبرة اليهود الإقتصادية والإعلامية وغيرها .

٥ - ضرب التجمع العربى بكافة صوره وأشكاله من خلال زرع عنصر غريب بين القسمين العربيين فى كل من آسيا وافريقيا حتى يتم فصلهما باقامة حاجز بشرى قرب القاعدة البريطانيه فى مصر والسويس يكون حليفا للاستعمار . وقد ظهر تقرير للسياسة البريطانية فى عام ١٩٠٧ مفاده أن السواحل الجنوبيه والشرقية للبحر المتوسط هى مكمن الخطورة على الإستعمار ولابد من تجزئة هذه المنطقة ومحاربة إتحادها [١] .

---

(١) محمود ملمى : المرجع السابق . ص ٨٩ .

نص التصريح :

هذا التصريح عبارة عن خطاب من وزير الخارجية البريطانية بالفور إلى اللورد روتشيلد جاء على النحو التالي :

« عزيزى اللورد روتشيلد . يسرنى جداً أن أنهى إليكم بالإنابة عن حكومة جلالته التصريح التالى الذى ينطوى على العطف على أمانى اليهود والصهيونية . وقد عرض على الوزارة وأقرته . إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، وستبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أنه يفهم جليا أنه لن يؤتى عمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى » .

وقد سبق هذا التصريح مداولات إستمرت زهاء عامين (١٩١٦ - ١٩١٧) بين كل من المنظمة الصهيونية والحكومة البريطانية، إلا أن المباحثات الرسمية بين الطرفين بدأت فعلاً فى فبراير عام ١٩١٧ ثم تلى ذلك مباحثات مع حكومتى فرنسا وإيطاليا وجرت الموافقة على المشروع الصهيونى فى كل من لندن وباريس وروما . وحتى يصبح نجاح حملة اللنبى فى فلسطين مؤكداً جرى تأخير إعلانه . كذلك فقد وافقت على هذا التصريح قبل إعلانه الولايات المتحدة الأمريكية، وهكذا جرى تهيئة المناخ الدولى لهذا التصريح قبل إصداره .

والجدير بالذكر ان بريطانيا لم يكن لها الحق فى إصدار مثل هذا التصريح لأنها لم تكن تملك فلسطين . فحين صدوره فى الثانى من نوفمبر عام ١٩١٧ لم تكن جميع الأراضى الفلسطينية قد احتلت بعد، بل جرى إحتلال الجزء الجنوبى منها، ولم تكن مدينة القدس قد سقطت إلا فى ديسمبر عام ١٩١٧ كما أن فلسطين لم تكن قد أحتلت إلا فى سبتمبر عام ١٩١٨ [١] .

(١) عادل غنيم : الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ إلى ١٩٣٦ . ص ٢١ .

وإذا ما حاولنا إجراء عملية نقد فيلولوجى لبعض العبارات التى وردت فى نص التصريح فى محاولة لفهم الصياغة التى وردت به فسوف نجد أنها وضعت بعناية وحرص شديدين مثل عبارة « تنظر بعين العطف »، و « وطن قومى »، و « ستبذل أقصى جهودها »، وهى عبارات غامضة تحتمل الكثير من التأويلات وهو ما جعل الحكومة البريطانية فيما بعد تفسرها بما يتفق وسير الأحداث ومصالحها . ويلاحظ أن كلمة « عربى » أو « عرب » لم يتضمنها التصريح وإنما جاءت الإشارة إليها عرضاً باعتبار أن العرب طوائف كسائر الطوائف الأخرى من الأقليات التى لا قيمة لها رغم أن عدد الفلسطينيين فى ذلك الوقت كان يبلغ حوالى ٦٥٠ الف فرد بنسبة ٩٠ ٪ من إجمالى عدد السكان، فى الوقت الذى نص فيه التصريح صراحة على أن هناك ما يسمى بالشعب اليهودى فى فلسطين الذى لم يبلغ عدده آنذاك أكثر من ٦٠ الف فرد . ثم ان التصريح أيضا قد غفل عن الحقوق السياسيه للطوائف غير اليهودية، مشيراً فقط إلى الحقوق الدينية والمدنية فقط .

صدى التصريح عربيا ودوليا :

فوجئ العرب بتصريح بالفور، وكانوا قد علموا بصدوره من مصر حين نشرت جريدة المقطم نص التصريح مرتين فى العاشر والثانى عشر من نوفمبر عام ١٩١٧، وقابله القادة العرب الموجودون فى القاهرة بمعارضة شديدة الأمر الذى جعل السلطات البريطانية تبذل جهداً كبيراً فى إخفائه .

أما وقد أذيعت أخبار التصريح فإن الشريف حسين راح يستفسر من الجانب البريطانى عن حقيقته، فبعثت إليه الحكومة البريطانية عن طريق (هوجارث) أحد رؤساء المكتب العربى فى القاهرة آنذاك بتصريح ذكرت فيه بأنها مصممة بالنسبة لفلسطين ألا يخضع شعب لشعب آخر، ولكن نظراً لوجود أوقاف وأماكن مقدسة لكل من المسلمين أو المسيحيين أو

اليهود فينبغى إقامة نظام خاص لهذه الأماكن، وبالنسبة للمسجد الأقصى فهو خاص بالمسلمين ولن يوضع بشكل مباشر أو غير مباشر تحت أى سلطة غير مسلمة . وفيما يتعلق باليهود ونظرا لأن الرأى العام اليهودى فى العالم يحبذ عودتهم إلى فلسطين فإنه لن يقام عائق فى سبيل ذلك [١] .

ويبدو أن الشريف حسين قد أقنع نفسه بهذا الرد حين أجاب على رسالة هوجارث قائلاً : إنه مادام تصريح بالفور يرمى إلى إيجاد مأوى لليهود من الإضطهاد فسيبذل قصارى جهده ونفوذه لتحقيق هذه الغاية وأنه يقبل أى ترتيب ملائم لحماية الأماكن المقدسة، لكنه لا يقبل تنازل العرب عن حق السيادة .

وزيادة على ذلك راح الشريف حسين يبعث الرسائل إلى أتباعه فى مصر وإلى قوى الثورة يطمأنهم بأنه تلقى تأكيدات بريطانية حول عدم تعارض الإستيطان اليهودى فى فلسطين مع استقلال العرب، ويحثهم على استمرار الثقة العربية فى الوعود البريطانية لنيل إستقلالهم، بل ويطلب من السكان العرب فى فلسطين الترحيب باليهود كأخوة لهم [٢] .

أما عرب فلسطين فقد أبلغوا بالتصريح رسميا فى ٢٠ فبراير عام ١٩٢٠ حين أذاع الحاكم العسكرى لفلسطين ذلك فى بيان، رغم أن القيادات العسكرية البريطانيه كانت تكذب ما تنشره الصحف حول صدوره . وقد أحدث ذلك الإعلان إستياءً كبيراً بين الأهالى، فاجتمع رجالات فلسطين وقرروا القيام بمظاهرة كبرى يوم الجمعة ٢٧ فبراير عام ١٩٢٠ إشترك فيها نحو أربعين الف شخص طافوا بالقنصليات الأجنبية فى القدس محتجين على إتخاذ فلسطين وطنا قوميا لليهود . كذلك فقد تظاهرت المدن الفلسطينية الأخرى وقدمت إحتجاجات إلى الحكام العسكريين [٣] .

---

(١) عادل غنيم : المرجع السابق . ص ٢٢ - ٢٣ .
(٢) نفس المرجع . ص ٢٣ .
(٣) نفس المرجع . ص ٢٤ .

وقد بعث الزعماء السوريون المقيمون فى القاهرة ببرقية فى الرابع عشر من نوفمبر عام ١٩١٧ إلى وزير الخارجية البريطانى إحتجوا من خلالها على هذا التصريح ذاكرين أن فلسطين جزء حيوى من الشام ولا يمكن القبول بفصلها سياسيا أو إجتماعيا . ويبدو أن الزعماء السوريين قد انخدعوا هم أيضاً بالردود التى تلقوها من الساسة البريطانيين التى ذكرت لهم بأن تحقيق الأهداف القومية للعرب مرتبطة بمدى التعاون مع الصهيونية، وأنه ليس فى نيتهم إقامة دولة يهودية فى فلسطين، وما كان تصريح بالفور إلا خطوة من خطوات السياسة البريطانية التى ترمى إلى نشر العدالة بين القوميات الصغيرة . ويبدو أن ذلك كله قد أدى إلى شعور الزعماء السوريين بالاطمئنان [١] .

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق . ص ٢٨٥ .

العربية الآسيوية، إلا أن واقع الحال يقول إنه أستبدل بحكم أوربى إستعمارى من خلال بريطانيا وفرنسا وهو ما ظهر جلياً خلال مؤتمر الصلح فى باريس عام ١٩١٩ .

ختام الحرب ومصير العرب :

وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، ووجهت الدعوة إلى الملك حسين ملك الحجاز لإرسال مندوب عنه إلى مؤتمر الصلح . وبالفعل كلف إبنه الأمير فيصل للقيام بهذه المهمة . وقبيل إنعقاد مؤتمر الصلح جرت لقاءات من وراء الكواليس بين كل من كليمنصو رئيس الوزارة الفرنسية ولويد جورج رئيس الوزارة البريطانية تم فيها الإتفاق شفوياً على تنازل كليمنصو عن ولاية الموصل فى شمالى العراق لبريطانيا، ووضع فلسطين تحت سيطرة بريطانيا مقابل تخلى بريطانيا عن تأييد فيصل فى الشام .

تقدم الأمير فيصل بمذكرتين إلى مؤتمر الصلح فى يناير طالب من خلالهما بحصول البلاد العربية على الإستقلال وفقاً للحدود التى طالب بها والده بإستثناء الحجاز الذى هو دولة مستقلة فعلاً، وعدن التى كانت بحوزة بريطانيا . وقد استند فيصل فى هذا المطلب إلى أساسين هامين : أولهما : الدور الذى لعبه الجيش العربى فى تحرير بلاده، وثانيهما المبادئ الأربعة عشر التى أعلنها الرئيس الأمريكى ويلسون وعلى رأسها مبدأ حق تقرير المصير . وفى فبراير من نفس العام (١٩١٩) كرر هذا المطلب .

وكان هناك إقتراح من الرئيس الأمريكى ويلسون بإيفاد لجنة رباعية تضم كلاً من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا لمعرفة مطالب الشعوب العربية فى المشرق لكن الدول الثلاث انسحبت من هذه اللجنة وبقيت الولايات المتحدة وحدها من خلال عضويها كنج - كرين King Crane - حيث عرفت اللجنه باسميهما وقامت بزيارة الشام . ومن جانب آخر شكل الأمير فيصل هيئة تسمى (المؤتمر السورى العام) من نواب

يمثلون جميع مناطق الشام . وفى ختام زيارة اللجنة للشام وضعت تقريرها الذى حوى قسمين : الأول يختص بسوريا وفلسطين والثانى يختص بالعراق رغم عدم زيارة اللجنه له لكنها إلتقت ببعض الزعماء العراقيين فى سوريا . وجاءت توصيات اللجنة فى صالح الشعوب العربية فى سوريا ولبنان والعراق إلا أن تقرير اللجنة لم يوضع موضع التنفيذ ولم تتح له الفرصة كى يبحثه مؤتمر الصلح بل وضع فى سجلات المؤتمر حيث غادر الرئيس الأمريكى ويلسون باريس إلى بلاده، ولم يعد لمبدأ تقرير المصير أى قوة لتنفيذه .

وفى سبتمبر عام ١٩١٩ قررت الحكومة البريطانية جلاء قواتها عن الشام فى نوفمبر من نفس العام وتسليم حاميات دمشق وحمص وحماة وحلب إلى الأمير فيصل، وتسليم حاميات المنطقة الواقعة غربى خط سايكس - بيكو إلى الفرنسيين . ووفقا لذلك أصبح من حق الفرنسيين إحتلال لبنان، كما أصبح يحق لفيصل فى ذات الوقت السيطرة على داخلية الشام فوافق كليمنصو على ذلك شريطة أن تترك فرنسا بمفردها للإتفاق مع فيصل . وعلى الفور أرسلت فرنسا قوات عسكرية يقودها الجنرال (جورو) .

وفى مارس عام ١٩٢٠ إجتمع المؤتمر السورى العام وقرر إستقلال بلاد الشام، ونادى بفيصل ملكاً عليها، كما قرر العراقيون المجتمعون فى دمشق إستقلال العراق ونادوا بقيام إتحاد سياسى واقتصادى بين الشام والعراق، وتولى الأمير عبد الله بن الحسين عرش العراق، وإعلان إنتهاء الإحتلال البريطانى للعراق .

لم تكن بريطانيا راضية عن قرارات المؤتمر السورى فاجتمع مجلس الحلفاء الأعلى دون حضور الولايات المتحدة الأمريكية فى لندن وسان ريمو فى أبريل عام ١٩٢٠ وقررت الدولتان ضرورة قيام دولة منتدبة فى كل من الشام والعراق بحيث تتولى بريطانيا الإنتداب على العراق

وفلسطين والأردن، بينما تتولى فرنسا الإنتداب على سورية ولبنان .

راحت فرنسا تنفذ الإنتداب والقضاء على مملكة فيصل فى دمشق حين وجه الجنرال (جورو) إنذاراً فى الرابع عشر من يوليه عام ١٩٢٠ يطلب فيه ضرورة الموافقة على قبول الإنتداب الفرنسى . ووافق فيصل على الإنذار فى الوقت الذى كانت فيه القوات الفرنسية قد بدأت تزحف صوب دمشق حتى وصلت إلى خان ميسلون قرب دمشق، فاشتبك جيش فيصل مع الجيش الفرنسى فى الموقعة الشهيرة (موقعة ميسلون) . ولم يصمد جيش فيصل حيث إنهار سريعاً وقتل قائده يوسف العظمة واحتلت دمشق، وغادر فيصل البلاد إلى أوربا .

وأما تطورات الأحداث فى العراق فقد وصلت إلى قيام ثورة عرفت بثورة العشرين فى يونيه عام ١٩٢٠ تكبدت من جرائها بريطانيا كثيراً من الخسائر . وقد فكرت بريطانيا فى خطة تحافظ من خلالها على مصالحها فى العراق، وعدم تنازلها عن الانتداب على العراق، وفى ذات الوقت تقوم بتحقيق جزء من الأمانى العربيه من خلال تعيين حاكم عربى على العراق يكون خاضعاً للنفوذ البريطانى، فوجدوا ضالتهم فى الأمير فيصل بن الحسين الذى فقد عرشه فى دمشق إلى جانب أن فى تعيينه نوعاً من الوفاء بالوعد الذى أعطى لوالده خلال الحرب ودفعاً لتهمة الخيانة التى يمكن أن تلصق ببريطانيا . ومن المعروف أن المؤتمر العراقى فى دمشق كان قد أتخذ قراراً باستقلال العراق وتولية الأمير عبد الله عليه، لذا فقد سعت بريطانيا إلى إقناع الأميرعبد الله بأن يتنازل لأخيه فيصل عن عرش العراق ملوحةً له بإمارة شرقى الأردن ونجحت فى ذلك . ثم جرى إستفتاء الشعب العراقى فى مسألة توليه فيصل تحت سمع وبصر السلطات البريطانية فجاء الإستفتاء لصالح فيصل حيث نصب على عرش العراق فى أغسطس عام ١٩٢١ (١) .

---

(١) محمود ملسى : المرجع السابق . ص ١١٠ .

هكذا كانت مسيرة العرب خلال الحرب العالمية الأولى مع دول الوفاق ، فقد دخلها العرب على أساس مساعدة بريطانيا وحلفائها فى الحرب على أمل الحصول على الإستقلال . وبر العرب بوعدهم لكن بريطانيا وحلفاءها تنكروا لوعودهم واتفاقاتهم، وحلوا محل الدولة العثمانية من خلال فرض نظام الإنتداب على كل من العراق وفلسطين وبلاد الشام لتبدأ بعدها مرحلة صراع مريرة من جانب شعوب هذه المنطقة فى مواجهة الإستعمار البريطانى والإستعمار الفرنسى حتى حصلت هذه البلدان على استقلالها فيما عدا فلسطين التى سلمتها بريطانيا إلى اليهود عام ١٩٤٨ لتصبح شاهداً على نكران الجميل والتخلى عن الوعود للعرب، وجرحاً غائراً فى جسد الأمة العربية لا يزال حتى الآن ينزف دماً .

مراجع الفصل الثالث

- جورج أنطونيوس : يقظة العرب .

- عادل غنيم : الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧إلي ١٩٣٦ .

- عمر عبدالعزيز : دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر .

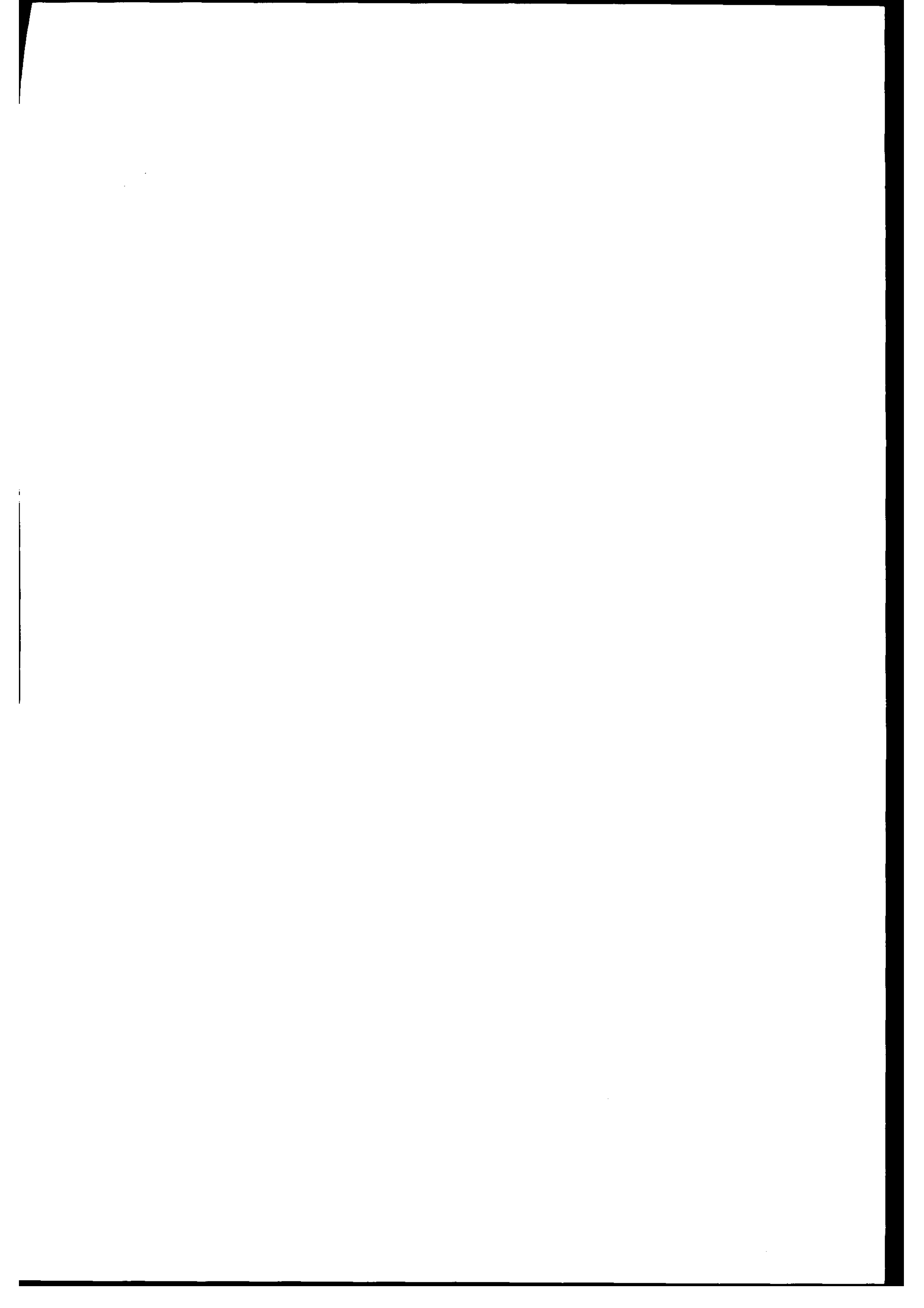
- لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث .

- محمود صالح منسي : تاريخ العرب الحديث و المعاصر ، المشارقة و المغاربة .

الفصل الرابع

المشرق العربي في ظل الانتداب

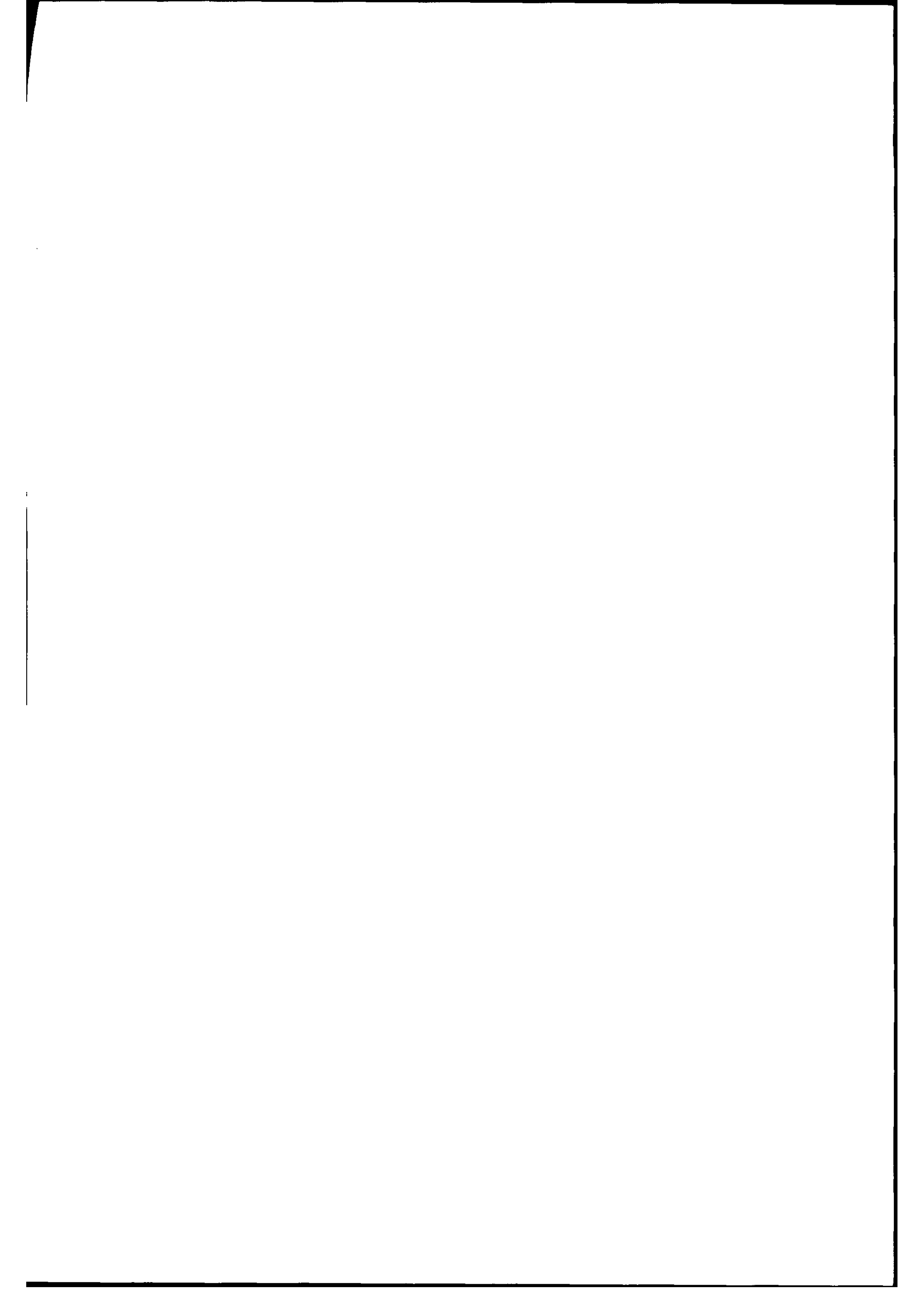
- العراق تحت الانتداب البريطاني
- سوريا تحت الانتداب الفرنسي
- لبنان تحت الانتداب الفرنسي
- الأردن تحت الانتداب البريطاني



الفصل الرابع (المشرق العربي في ظل الانتداب)

الأهداف :

- التعرف على أساليب المستعمر البريطاني و الفرنسي التي مارسها على الدول التي جرى انتدابه عليها ، و الفروق بين سياسة كل من بريطانيا و فرنسا .
- التعرف على رد فعل الشعوب العربية و مواجهتها للمستعمر من خلال الثورات التي أعلنت رفضها للمستعمر.



أولا : العراق

إستطاعت بريطانيا خلال أحداث الحرب العالمية الأولى السيطرة على جنوبى العراق وبغداد إلى أن تمكنت من إخضاع العراق كله للإحتلال البريطانى، علماً بأن اتفاقية سايكس - بيكو قد وضعت الموصل فى شمالى العراق تحت النفوذ الفرنسى إلا انه أمكن وضعها مع بقية أجزاء العراق فى مؤتمر سان ريمو تحت السيطرة البريطانية .

ثورة العشرين فى العراق :

بدأت أحداث هذه الثورة فى الثانى من يونيه عام ١٩٢٠ وظلت حتى أكتوبر من نفس العام . وترجع أسبابها إلى ما أصاب العمال العراقيين ورؤساء العشائر من أضرار عقب إنتهاء الحرب العالمية الأولى، فقد كانوا خلالها يتمتعون بكثير من المزايا . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها راحت السلطات البريطانية تقتر على رؤساء العشائر وتسرح العمال، فبدأت أحوالهم تتدهور وعم الغضب صفوفهم . وإضافة إلى هذا السبب هناك النظم الضرائيبية الجديدة التى وصفتها سلطات الإحتلال والتى امتدت إلى كل بيت، حين راحت هذه السلطات تطبق القوانين التى كان معمولاً بها فى الهند . صحيح أن المواطن العراقى قد عرف هذه الضرائب أثناء الحكم العثمانى لكنها الآن بدت أشد وطأة لاسيما وأنها بدأت تفرض من سلطة غير شرعية .

ومن الأسباب التى يمكن إضافتها أيضاً تلك التطورات والأحداث الكبرى التى جرت فى بعض أجزاء العالم العربى كثورة عام ١٩١٩ فى مصر بزعامة سعد زغلول . فقد كانت السلطات البريطانية فى العراق تدرك خطورة وصول أنباء هذه الثورة إلى العراق فحاولت منع تسريبها إليه لاسيما وإن بريطانيا كانت عدواً مشتركاً فى العراق ومصر . ومن هذه

الأحداث أيضاً قرارات مؤتمر سان ريمو فى ٢٥ أبريل عام ١٩٢٠ الذى أقر السيطرة على العراق وغيرها . ولما كانت سوريا قد أعلنت رفضها لقرارات هذا المؤتمر وثارت عليه فقد كان من الطبيعى أن يثور العراق أيضاً معلناً رفضه لها أيضاً لاسيما أنه كان ينتظر نفس المصير الذى لقيه الأمير فيصل فى سوريا حين هزم فى معركة ميسلون، وانسحب فى أعقابها عدد من الضباط العرب إلى العراق أصبحوا بمثابة دفعة معنوية قوية لأهل العراق، خاصة وأن هؤلاء الضباط كانوا يحملون بين جوانحهم أفكاراً قومية وحدوية .

ومن الأسباب التى يجدر الإشارة إليها فى قيام هذه الثورة الدور الذى لعبته الزعامات الشيعية فى العراق، فقد كانوا غاضبين لما جرى فى كل من النجف وكربلاء من تصفية للإستقلال المركزى الذى كانتا تتمتعان به . ومن المعروف أن لهذه الزعامات الدينية سابقة فى ذلك من خلال إثارة شعب إيران ضد استبداد الشاه والتسلط الأجنبى عام ١٩٠٦[١] .

أما السبب المباشر لإندلاع هذه الثورة فقد تمثل فى قيام الحاكم العام البريطانى فى الرميثة (على الفرات الأوسط) بالقبض على أحد شيوخ العشائر، فدخل رجاله بالقوة إلى سراى الحكومة وأطلقوا سراحه بعد قتل الحراس، واقتلاع خطوط السكك الحديدية شمالى الرميثة وجنوبها .

هكذا تجمعت أسباب هذه الثورة التى قادها رؤساء العشائر وعلماء الدين الشيعة وقادة جمعية (حرس الاستقلال)، وبدأ الصدام مع السلطة البريطانية، وتم إحراز إنتصارات مؤثرة فى الجانب البريطانى إلى درجة

---

(١) عبد العزيز نوار : المرجع السابق . ص ٤٢١ ومابعدها .
، انظر أيضاً : لوتسكى : المرجع السابق . ص ٢٨٩

جعلت السلطات البريطانية تفكر بل وتستعد للجلاء عن أجزاء من العراق، إلا أنه سرعان ما دبت الخلافات بين الشيعة والسنة وبين العرب والأكراد، ناهيك عن الصدامات الدامية بين العشائر الأمر الذى جعل الثورة تنحصر بشكل رئيسى فى المناطق الريفية لأن الثورة فى المدن كان قد جرى وأدها منذ البداية [١] .

وقد بلغت خسائر البريطانيين خلال هذه الثورة ٤٢٦ قتيلاً و ١٢٢٨ جريحاً و٦١٥ مفقوداً ، وقدرت الخسائر المادية بعشرين مليون جنيه استرلينى . كما بلغت الخسائر العراقية ثمانية آلاف قتيل . وكان للتفوق البريطانى فى الأسلحة أثره فى إزدياد الخسائر العراقية . وبالرغم من هذه الخسائر فى صفوف العراقيين فإن الثورة قد كشفت عن قدرتهم على التعبير عن أنفسهم ضد التسلط البريطانى بشكل فعلى وكشفت عن نضجهم السياسى .

ويرجع فشل ثورة العشرين إلى عدة عوامل تمثلت فى عدم استناد الثورة إلى التخطيط والتنظيم والتسليح القوى، بل على المشاعر فقط، كما أن التركيب العشائرى فى العراق بخصائصه المعروفة قد جعل العشائر الثائرة تعمل بشكل انفرادى دون تنسيق جماعى الأمر الذى سهل ضرب كل جماعة على حدة . فقد أفتقرت الثورة إلى قيادة عامة وعدم وجود دولة تقف بجوار الثوار .

ومن عوامل الفشل الرئيسية تفوق السلطات البريطانية فى السلاح الذى حسم المعارك لصالحها، كما أن الثورة لم تكن شاملة لكافة مناطق العراق، فقد تخلف الأكراد فى شمالى البلاد عن ركب الثورة [٢] .

وفى سبيل تهدئة روح الثورة وإخمادها لجأت الحكومة البريطانية

(١) لوتسكى : المرجع السابق ص ٢٩١ .

(٢) إسماعيل ياغى : العالم الإسلامى الحديث والمعاصر . الجزء الأول . قارة آسيا . ص ١٨٧ .

إلى أسلوب تغيير رجال الحكم وفقاً للظروف المناسبة؛ فالعسكريون أولاً لمواجهة وضرب الحركات الثورية المسلحة ووأدها، ثم يأتى بعدها دور المدنيين وهو ما سارت عليه بريطانيا فى العراق وغيرها . ففى العراق أبعدت الحكومة البريطانية ولسن A. Wilson أسندت منصب المندوب السامى إلى السير برسى كوكس P. Cox لتهدئة النفوس والخواطر، فاستطاع فى ٢٧ أكتوبر عام ١٩٢٠ أن يشكل ما يسمى بالحكومة المؤقتة برئاسة عبد الرحمن الكيلانى مما سهل إحتواء السلطات البريطانية لكثير من زعماء الثوار الأمر الذى أدى إلى الإستسلام فى النهاية .

عهد الملك فيصل (١٩٢١ - ١٩٣٣) :

لم تكن فترة حكم الملك فيصل للعراق سهلة وميسرة، بل حفت بكثير من الصعاب، وإزاء ذلك راح يسلك طريق الحذر الشديد، فقد كانت تتراءى أمامه تلك الحوادث العصيبة التى مرت به وبوالده من قبل وهما يخوضان الثورة العربية والوقوف بجوار بريطانيا وحلفائها ، وكان يذكر جيداً كيف فقد عرشه فى دمشق حين اصطدم برغبات الفرنسيين والبريطانيين ، لذلك كله فإننا نجده وهو يتسنم سدة الحكم فى العراق يبدو أكثر واقعية ومن ثم راح يحاول أن يوفق بين طموحات التيار الوطنى وبين المصالح اليريطانية والحذر منها فى محاولة للحفاظ على عرشه ، وفى سبيل ذلك كله لم يكن يأنف قبول النصائح البريطانية أو يتعجل الوصول إلى الغايات دفعة واحدة ، بل اتبع سياسة (خذ وطالب) التى تعنى السير فى طريق إستقلال العراق خطوة خطوة .

ولما كان العراقيون – وعلى رأسهم الملك فيصل –غير راضيين عن نظام الإنتداب فقد جرى البحث عن صيغة أخرى لا تختلف فى جوهرها عن الإنتداب ولكنها ترضى أو تسكت المعارضة العراقية ، فكانت معاهدة عام ١٩٢٢ .

معاهدة عام ١٩٢٢ :

هكذا كانت الظروف المحيطة بالأمير فيصل ، وما كان بوسعه أن يصطدم بالسلطات البريطانية حتى لاتتكرر ميسلون . وفى ظل هذه الأوضاع قدمت بريطانيا المعاهدة إلى وزارة عبد الرحمن النقيب فى العاشر من اكتوبر عام ١٩٢٢ شريطة أن يوافق عليها المجلس التأسيسى المزمع قيامه .

نصت معاهدة ١٩٢٢ على تعهد بريطانيا بتقديم المشورة والمساعدة للعراق على أن لاتمس هذه المشورة سيادة العراق القومية . ونصت المادة الثالثة بأن لا يحتوى القانون الأساسى المزمع إصداره على أى شئ مخالف لنصوص هذه المعاهدة . كذلك فقد نصت المعاهدة على عدم التمييز بين أهل العراق ، وضرورة المحافظة على حقوق الطوائف فى أمور التعليم ولا سيما التدريس بلغات هذه الطوائف فى مدارسها الخاصة بها . وهذا يوضح أن بريطانيا تعطى لنفسها حق التدخل فى شئون العراق الداخلية الدقيقة (١) .

وفى المجال الإقتصادى نصت المعاهدة على تمتع الأجانب بفرص متساوية فى مجالات العمل الإقتصادى فى العراق تطبيقاً لسيلسة (الباب المفتوح) التى كانت تمارسها الدول الكبرى. ولا شك أن هذه السياسة الإقتصادية كانت ضارة بالنسبة للدول الصغرى التى لا تستطيع مزاحمة الكبار والمشاركة بشكل فعلى وقوى .

وفى المجال العسكرى نصت الإتفاقية على أن يصبح العراق قادراً على الدفاع عن نفسه خلال أربع سنوات ، وأن تخصص الحكومة ربع ميزانيتها لهذا الغرض مقابل أن تقدم بريطانيا الأسلحة والمدربين والمستشارين العسكريين .

---

(١) عبد العزيز نوار : المرجع السابق . ص ٤٧٧ .

كذلك فقد نصت المعاهدة على سعى بريطانيا لقبول العراق عضواً فى عصبة الأمم فى أقرب فرصة . كما اتفق على أن تسرى هذه المعاهدة لمدة عشرين عاماً ، إلا انه جرى تخفيض مدتها فى عام ١٩٢٣ الى أربع سنوات فى أعقاب معاهدة الصلح مع تركيا .

إن نصوص معاهدة ١٩٢٢ كانت مجحفة للعراق ، فقد تضمنت قيوداً شديدة على إستقلاله ، إذ كان من حق المندوب السامى البريطانى الإعتراض على أى قرار يتعارض والمصالح البريطانية ، كما كان لزاماً على الحكومة العراقية أن تقدم نسخة من محاضر جلساتها إلى المندوب السامى ، وكان يوجد إلى جانب كل مسئول عراقى كبير مستشار بريطانى له السلطة المطلقة . وقد اتاحت هذه المعاهدة الفرصة لتدخل السلطات البريطانية فى شئون العراق الداخلية وجعلت من بريطانيا وصية على الطوائف العراقية التى شكلت نسبة كبيرة من سكان البلاد ، كما أنها راحت تشرط مسبقاً بأن لا يحتوى القانون الأساسى المنتظر صدوره على أى شىء مخالف لنصوص المعاهدة . ومعنى ذلك أنه مطلوب من هذا القانون تأكيد السيطرة البريطانية والتسلط على أجهزة الدولة القائمة حالياً والتى من المزمع قيامها .

وإذا كان العراق قد تخلص عن طريق الحكومة البريطانية من استمرار تطبيق الإمتيازات الأجنبية فإنه قد أرغم على تنفيذ ما هو أسوأ منها ، ونعنى بذلك سياسة (الباب المفتوح) . والواقع أن الملك فيصل كما قلنا لم يكن بوسعه أن يقف أمام التسلط البريطانى لأنه فيما يبدو كان قد وعى الدرس تماما رغم انه كان يشكو دوماً بأن هذه المعاهدة ليست بالمعاهدة التى وعده بها تشرشل .

بعد أن وقعت المعاهدة جاءت الخطوة التالية لإجراء انتخابات عامة لتشكيل مجلس تأسيسى كان الهدف منه التصديق على معاهدة ١٩٢٢ مع

بريطانيا ، ووضع دستور للبلاد ، ثم وضع قانون لمجلس نيابى . وقد ظهرت معارضة من جانب الشيعة التى راحت تحث على مقاطعة الانتخابات ، وفى ذات الوقت كانت هناك ضغوط تركية فى الشمال فى منطقة الموصل أدت إلى خلق صعوبة فى إجراء الانتخابات الأمر الذى ادى إلى استقالة عبد الرحمن النقيب من الوزارة ، فطلب الملك فيصل من عبد المحسن السعدون تشكيل وزارة جديدة فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩٢٢ . وفى عهد هذه الوزارة جرى تخفيض مدة معاهدة ١٩٢٢ إلى اربع سنوات. وخلال عام ١٩٢٤ جرت الانتخابات وتم تكوين المجلس التأسيسى، وبدأت بريطانيا تضغط على هذا المجلس للمصادقة على الإتفاقية حين قدمتها إلى المجلس فى العاشر من يونية وهددت بأنه ما لم يتم مصادقة المجلس عليها فى العاشر من يونيه عام ١٩٢٤ فإن بريطانيا ستتقدم فوراً إلى عصبة الأمم للموافقة على صك الإنتداب فى صيغته الأصلية . وبالفعل نجحت بريطانيا فى إرغام المجلس على توقيع المعاهدة.

وقد برر البعض الموافقة على قبول المعاهدة بأن قضية الموصل لم تكن حتى ذلك الوقت قد تم حسمها لصالح العراق لأن تركيا كان يمكن أن تكسب هذه القضية لدى عصبة الأمم وتأخذها ، لذلك كله فإن العراق كان فى حاجة إلى مساندة قوة كبرى ، والقوى الكبرى فى ذلك الوقت كانت تتمثل فى كل من بريطانيا وفرنسا وايطاليا وهى الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى ، ولما كانت فرنسا وايطاليا تناصبان العرب العداء لم يكن هناك مفر من الإنصياع إلى الجانب البريطانى [١] .

والجدير بالذكر أن موافقة المجلس كانت مشروطة بمحافظة بريطانيا على حقوق العراق فى ولاية الموصل بأجمعها .وان على الحكومة

---

(١) عبد العزيز نوار : المرجع السابق . ص ٤٥٣ .

البريطانية إعادة النظر فى المعاهدة وإجراء تعديل عليها فى أقرب وقت .

وقد جرت محاولات لتعديل معاهدة ١٩٢٢ فوقعت معاهدة ١٩٢٦ ومعاهدة ١٩٢٧ وهما عبارة عن تحسينات طفيفة أشبه بعمليات تجميلية لمعاهدة ١٩٢٢ ، إلا أن ذلك لم يكن يفقد العراقيين الأمل فى تعديلات أوسع وأشمل فكانت معاهدة عام ١٩٣٠ .

معاهدة ١٩٣٠

ألف نورى السعيد وزارة جديدة فى ٢٣ مارس عام ١٩٣٠ – وهو معروف بميوله البريطانية – فسعى إلى إيجاد صيغة تفاهم مع الحكومة البريطانية لعقد معاهدة جديدة سوف تكون أساساً للسياسة العراقية طيلة ربع قرن . وقد توصل الطرفان إلى توقيع المعاهدة فى ٣٠ يولية عام ١٩٣٠ .

نصت هذه المعاهدة على قيام تحالف وثيق بين كل من الحكومتين البريطانية والعراقية ، واشترطت ضرورة التشاور بين الطرفين بشكل صريح فى كافة الشئون الخارجية . كما نصت أيضا على ضرورة أن يقدم العراق ما فى وسعه فى حالة الحرب إلى صاحب الجلاله البريطانية من تسهيلات داخل الأراضى العراقية من سكك حديدية وأنهار وموانىء ومطارات ووسائل المواصلات ، كما سمحت المعاهدة للبريطانيين باستئجار قاعدتين جويتين فى كل من البصرة وغربى الفرات. وقد أذنت المعاهدة لبريطانيا أن تقيم قوات بريطانية فى العراق على أن لا يعتبر ذلك إحتلالاً أو مساساً بسيادة العراق ، وأن تقدم بريطانيا للقوات العراقية مساعدتها فى التدريب والتسليح . واتفق على أن تكون مدة سريان المعاهدة ربع قرن ، وأن يجرى تنفيذها عقب قبول العراق عضواً فى عصبة الأمم [١].

---

(١) عبد العزيز نوار : المرجع السابق . ص ٤٦٠

وإذا كانت هذه المعاهدة البريطانية العراقية قد حققت بعض المكاسب للعراق من حيث إنهاء الانتداب وقبوله رسميا عضواً فى عصبة الأمم فى ٣ أكتوبر عام ١٩٣٢ وأصبح دولة مستقلة ، وإرسال بريطانيا إلى العراق مندوبا لها أصبح يدعى سفيراً بدلا من المندوب السامى ، إلا ان هذه المعاهدة لم تكن بين دولتين متكافئتين بل وقعت فى ظل إحتلال بريطانى جعلت العراق يدور فى فلك الأمبراطورية البريطانية ، واحتفظت بريطانيا لنفسها بقوات داخل البلاد . ورغم المصادقة العراقية من قبل المجلس النيابى على هذه المعاهدة فقد لاقت معارضة شديدة نظرا للسيطرة الفعلية لبريطانيا فى العراق . أما الملك فيصل فقد كان يؤيد المعاهدة ويرى أنها قد حققت للعراق أمنية زوال الانتداب ودخول عصبة الأمم والحصول على مظاهر الدولة المستقلة (١) .

وفى أعقاب توقيع المعاهدة إندلعت حركة الأشوريين فى الموصل . ولم يكن الأشوريون من العراق بل جاءوا اليه وافدين إما من تركيا أو إيران متأثرين بأحداث الحرب العالمية الأولى وظلوا يعيشون على الإعانات البريطانية لقاء تجنيدهم للقيام بأعمال الحراسة فى المطارات وغيرها . ويبدو أن الأشوريين كانوا يأملون أن تستمر هذه الرعاية البريطانية لكنهم لاحظوا تغيرها فى أعقاب معاهدة ١٩٣٠ وأنهم أصبحوا مجرد مواطنين عاديين من غير إمتيازات وقد تولى القائد العراقى بكر صدقى إخماد هذه الحركة الثورية بعنف (٢) .

عهد الملك غازى الأول (١٩٣٣ - ١٩٣٩):

إختلفت شخصية الملك الجديد غازى الأول الذى تولى الحكم عام ١٩٣٣ عن شخصية والده الملك فيصل ؛ فالملك غازى شاب صغير فى الحادية والعشرين من عمره ، قليل الخبرة ، بينما كان والده واسع الخبرة ،

---

(١) محمود ملمى : المرجع السابق . ص ١٢٦

(٢) نفس المرجع . ص ١١٩

حنكته التجارب التى مر بها منذ أن شارك مع والده الحسين فى الثورة العربية ، واحتك بكثير من القادة العسكريين والشخصيات السياسية ، كما خاض معارك فى الشام لتحريره من الأتراك ، ومعارك أخرى ضد الفرنسيين إلى أن فشل فى الإحتفاظ به . فكل هذه التجارب أكسبته خبرات وجعلته يبدو أكثر حذراً وهو يتولى عرش العراق ومن ثم راح يمسك العصا من المنتصف لإرضاء الوطنيين فى العراق والسلطات البريطانية على السواء . أما ابنه غازى فقد أعلن منذ البداية معارضته للبريطانيين ، وانضم إلى صفوف الوطنيين ، ولم يكن بالتالى يتقبل أية نصيحة من بريطانيا أو عمه الأمير عبد الله أمير شرقى الأردن – الذى كان يتمتع بعلاقات طيبة مع بريطانيا – أو من الساسة العراقيين الموالين لبريطانيا من أمثال نورى السعيد .

اوضاع *العراق الداخلية* :

شهدت الأوضاع الداخلية فى عهد الملك غازى تنافساً شديداً بين الساسة العراقيين للوصول إلى الحكم . كما شهدت أيضاً ظاهرة تدخل العسكريين بشكل سافر فى الأمور السياسية ، لا سيما فى أعقاب معاهدة ١٩٣٠ حيث جرى إدخال نظام التجنيد الإجبارى فى عام ١٩٣٤ ، والتحاق الكثير من أبناء العراق بالكلية الحربية ومن ثم تخرج ضباط وطنيون أصبح لهم رأى ليس فقط فى الشئون العسكرية بل والشئون السياسية . ولما كان الجيش يمتلك القوة العسكرية وبالتالى التغيير السريع فقد تدخلوا كثيرا فى حسم بعض الأمور . ومن جانب أخر فقد وقر فى نفوس هؤلاء العسكريين أنهم قطاع هام من الشعب آن له أن يلعب دوراً ما فى تيار الحركة الوطنية .

ومن بين الأدوار التى قام بها العسكريون إخمادهم لثورات الفرات الأوسط (الرميثة وسوق الشيوخ والمنتفق) عام ١٩٣٥ ، والقضاء على حركة بارزان والزيدية فى الشمال .

وفى التاسع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٣٦ قاد الفريق بكر صدقى إنقلابا عسكريا حين زحف على بغداد وقدم إنذاراً إلى الملك ، وأطاح بوزارة ياسين الهاشمى وجئ بوزارة حكمت سليمان . ولم يمتد عمر هذا الانقلاب طويلاً فقتل بكر صدقى . والجدير بالذكر أن الذين نفذوا هذا الانقلاب العسكرى لم يكونوا من أصول عربية بل كانوا من أصول تركية وتركمانية وشيعيه، فقائد الإنقلاب كان كرديا ، لذلك فقد انقسم العراقيون ازاءهم لاسيما وأن توجهاتهم نحو الوحدة العربية كانت ضعيفة وكانوا يؤمنون بمبدأ العراق للعراقيين .

وقد استقالت وزارة حكمت وشكلت وزارة جميل المدفعى ثم جاءت بعدها وزارة نورى السعيد فى الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٩٣٨ .

اوضاع العراق الخارجية :

أما الأوضاع الخارجية للعراق فى عهد الملك غازى فقد شهدت بعض التحركات الودية مع الجيران حين جرى تحسين العلاقات مع إيران وتوقيع معاهدة تقسيم شط العرب بينهما ، وتوقيع معاهدة أخاء وتحالف مع المملكة العربية السعودية (١٩٣٦ - ١٩٣٧) وكذلك مع اليمن .

ونظراً لتطورات الأحداث العالمية فى دول المحور ولا سيما من جانب موسولينى وإقدامه فى الهجوم على الحبشه ، فقد شعرت تركيا بضرورة تكوين جبهة من دول المنطقة تقف أمام أطماع موسولينى فجرى توقيع إتفاق (سعد آباد) عام ١٩٣٧ بين كل من تركيا والعراق وإيران وافغانستان ، ومن خلاله تعهدت هذه الدول بالامتناع عن التدخل فى الشئون الداخلية لكل واحدة منها .وعدم اللجوء إلى الأساليب العدوانية ضد بعضها البعض بالإضافة إلى إحترام الحدود فيما بينها .

ويبدو أن العلاقات مع الكويت فى ذلك الوقت قد شابها شئ من التوتر ؛ فقد كان للملك غازى طموح شخصى فى التوسع السياسى ، وهذا

كان يغذيه شعور الملك بدور قومى عربى ، بالإضافة إلى تطلعات العراق التقليدية نحو الخليج لتنمية مصالحه الاقتصادية والسياسية ، كذلك فقد برزت أسباب أخرى تمثلت فى المشكلات التى كانت قائمة بين العراق والكويت حول ممتلكات شيخ الكويت من أراضى وبساتين فى جنوبى العراق.

ولم تكن بريطانيا لتقبل هذه الأطماع من جانب الملك غازى تجاه الكويت ، بالإضافة إلى العلاقة السيئة بين الملك والسلطات البريطانية لاسيما وأن هذه الأطماع سوف يكون لها مردود سئ فى دول الخليج العربى وخاصة المملكة السعودية الأمر الذى أدى وقوف الملك عبد العزيز عسكريا مع شيخ الكويت . وكانت بريطانيا تحاول - إزاء ذلك كله - التخلص من الملك غازى إلى أن لقى مصرعه فى حادث سيارة فى الثالث من أبريل عام ١٩٣٩ .

فيصل الثانى ملكا : (١٩٣٩ - ١٩٥٨)

يمكن تقسيم فترة حكم الملك فيصل الثانى إلى فترتين :

الأولى : منذ عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٥٣ وخضع خلالها لوصاية خاله الأمير عبد الإله ونورى السعيد ، والثانية منذ عام ١٩٥٣ حين بلغ سن الرشد وحتى عام ١٩٥٨ .

وقد ظل الأمير عبد الإله ونورى السعيد ينفذان النصائح البريطانية بكل دقة ، وحين إندلعت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ قطعت الحكومة العراقية علاقتها السياسية مع المانيا وضيقت على الرعايا الألمان فى العراق رغم المعارضة الشديدة فى البلاد لتلك الإجراءات لا سيما من جانب فريق الوطنيين وعلى رأسهم رشيد عالى الكيلانى الذى خلف نورى السعيد فى رئاسة الوزارة .

إنقسم العراقيون خلال الحرب العالمية الثانية إلى قسمين : الأول :

بزعامة الوصى عبد الإله ونورى السعيد تدعمهم بريطانيا . والقسم الآخر من الثوار الوطنيين وكانوا يضمون أيضا أولئك الضباط الذين أطلق عليهم المربع الذهبى وهم العقداء : صلاح الدين الصباغ ، وفهمى سعيد ومحمود سليمان وكامل شبيب ، وكان لديهم طموح كبير بإمكان تحرير العراق وفلسطين أيضا. وقد رفضت وزارة الكيلانى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع إيطاليا مما إضطر بريطانيا إلى تغيير وزارته عام ١٩٤١ وجئ بوزارة طه الهاشمى التى قررت إقصاء الضباط المعروفين بالمربع الذهبى فرفضوا وتحركت قواتهم فى ابريل عام ١٩٤١ الأمر الذى اضطر ريئس الوزارة على الاستقاله وهروب الوصى على العرش ولحق به نورى السعيد إلى شرقى الأردن .

ولما كان هذا الانقلاب يعد تحديا لهيبة بريطانيا وحلفائها فى الشرق الأوسط لذلك فقد سعت – تساندها الولايات المتحدة الأمريكية فى ذلك – لاستعادة سلطة الوصى والقضاء على حركة رشيد عالى الكيلانى ، واقترح السفير البريطانى فى العراق ان تطلب بريطانيا مرور قواتها عبر العراق لاختيار مدى إحترام رشيد عالى الكيلانى لمعاهدة ١٩٣٠ ، فوافق لكنه طلب سرعة تحركها إلى وجهتها الأخيرة بالإضافة إلى مطالب أخرى رفضتها بريطانيا ، فبدأت الحرب بين بريطانيا والعراق فى الثانى من مايو عام ١٩٤١ حين فتح البريطانيون النار على العراقيين من قاعدة الحبانية. .وأثناء ذلك طلب العراق اعادة العلاقات مع المانيا وكان العراقيون يأملون فى وصول مساعدات حربية لهم من المانيا الا أنها لم تصل بسرعة بينما توالت النجدات البريطانية إلى العراق عن طريق البصرة وفلسطين والأردن ، وظلت المعارك طوال شهر كامل لينتصر الجيش البريطانى ويعود الوصى عبد الإله ويهرب الكيلانى وأعوانه إلى المانيا ، وتشكلت وزارة جديدة بزعامة نورى السعيد عملت على تتبع العناصر الوطنية واعدامهم ، وفى ذات الوقت عادت بريطانيا إلى

السيطرة والتدخل فى شئون البلاد لمساعدة عملائها وعلى رأسهم نورى السعيد .

العراق فى اعقاب الحرب العالمية الثانية .

شهدت السنوات التى تلت الحرب العالمية الثانية فى العراق بعد عودة الوصى ونورى السعيد توالى عدد كثير من الوزارات ، كما شهدت تخفيف قبضة بريطانيا واعوانها فى العراق على الشعب ومنحه نوعا من الحرية . ففى عام ١٩٤٦ طلب رئيس الوزراء توفيق السويدى من بريطانيا إعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٠ لا سيما وان مصر فى ذلك الوقت كانت تجتاحها حركة مفاوضات مع بريطانيا لإعادة النظر فى معاهدة ١٩٣٦ . وتمشيا مع هذه السياسة الجديدة نحو اطلاق الحريات أعلن الوصى عبد الإله السماح بتأليف الأحزاب والجمعيات السياسية . ومن أهم الأحزاب التى برزت إلى الساحة السياسية حزب الإستقلال ، وحزب الأحرار ، والحزب الوطنى الديمقراطى ، وحزب الشعب ، وحزب الاتحاد الوطنى . وقد تنوعت أهداف هذه الأحزاب وتوجهاتها ما بين التأكيد على الاصلاحات الزراعية والاهتمام بالعمال ، والدعوة إلى الوحدة العربية .

وفى عام ١٩٤٧ زار الأمير عبد الإله الوصى بريطانيا – بعد أن سحبت الأخيرة قواتها من العراق وأبقت وحدات جوية وفقاً لمعاهدة ١٩٣٠ فى الحبانية والشعيبة – وجرت مباحثات بين الطرفين مثل العراق فيها صالح جبر وزير الخارجية ، ومثل الجانب البريطانى فيها بيڤن Bevin ، وقد توجت هذه المباحثات بمعاهدة جبر / بيڤن فى يناير عام ١٩٤٨ والتى تسمى أيضا . بمعاهدة بورت سموث .

نصت هذه المعاهدة على إقامة تحالف دفاعى بين بريطانيا والعراق فى حالة تعرض أى منهما للخطر ، والغاء المعاهدات السابقة وموافقة العراق على منح بريطانيا تسهيلات للقوات البريطانيه على أرضه ، وإقامة قواعد جوية للحفاظ على الأمن الدولى مع قيام العراق بالإتفاق على

القوات المرابطة فى الحبانية والشعيبة.

لم يتقبل الشعب العراقى هذه الإتفاقية ، وقامت المظاهرة فى البلاد الأمر الذى أدى إلى أن يصدر الأمير عبد الإله بياناً بالغاء المعاهدة .

شارك الجيش العراقى فى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ مع القوات الأردنية ، لكن يبدو ان هذه الحرب كان لها تأثير سئ على ظروف العراق المالية حين انقطع تدفق البترول من كركوك عبر الأنابيب إلى حيفا التى وقعت تحت السيطرة الاسرائيلية مما أدى إلى خسارة مالية كبيرة للعراق .

حلف بغداد عام ١٩٥٥ :

إذا كانت الحرب العالمية الثانية بين دول الحلفاء ودول المحور والتى إستخدمت فيها الأسلحة العسكرية بكافة أنواعها قد انتهت فعلا فى عام ١٩٤٥ ، فإنه قد فتحت صفحة جديدة لنوع جديد من الحروب أطلق عليها (الحرب الباردة) وكان طرفا هذه الحرب كلاً من الاتحاد السوفيتى باعتباره زعيماً للمعسكر الشرقى ، والولايات المتحدة الأمريكية باعتباره زعيماً للمعسكر الغربى ، ومن ثم راح كل طرف منهما يحيط نفسه بسياج من الأنصار والأحلاف السياسية والعسكرية . وفى إطار هذه الإستراتيجية جرى التفكير من جانب المعسكر الغربى فى إنشاء حلف يقف فى مواجهة المد الشيوعى فى منطقة الشرق الأوسط من تركيا وحتى باكستان .

وإذا كانت أكثر البلدان العربية - وعلى رأسها مصر- قد رفضت الإنضواء فى مثل هذه الأحلاف فإن نورى السعيد قد وافق على الدخول مع المعسكر الغربى فى تحالف سياسى عسكرى ربما على أساس أن ذلك سوف يخلص العراق من معاهدته الثنائية مع بريطانيا والتى سوف ينتهى أجلها عام ١٩٥٧ ، ويحل محلها نظام أمن جماعى يرضى عنه الشعب ويكون بديلا للنظام الثنائى مع بريطانيا (١) .

---

(١) محمود ملسى : المرجع السابق ص ١٤١

مضى نورى السعيد نحو هدفه فعقد ميثاقاً عسكريا مع تركيا فى فبراير عام ١٩٥٥ ، وفى أبريل إنضمت بريطانيا إلى الميثاق العراقى التركى، وانضمت إيران فى اكتوبر من نفس العام . ورغم ان الحلف تم بمباركة الولايات المتحدة الإمريكية فانها تريثت فى الانضمام رسمياً ثم انضمت باكستان فى أكتوبر من نفس العام . وجرى عقد أول إجتماع للحلف فى نوفمبر عام ١٩٥٥ فى بغداد .

لم يكن الشعب العراقى راضياً عن الانضمام لهذا الحلف واشتدت المعارضة العراقية إزاءه ، كما أن الرأى العام العربى قد أدان بشدة التواطؤ الجديد بين نورى السعيد وبريطانيا وتركيا واعتبره بمثابة خيانة لمصالح الشعوب العربية وتهديد لأمنها . وقد استغل نورى السعيد هذه المعارضة العراقية فنكل بالوطنيين وخصومه السياسيين تحت ستار مكافحة الشيوعية . ويمكن القول بأن ثورة ١٤ يوليو (تموز) عام ١٩٥٨ فى العراق التى قادها عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف كانت واحدة من النتائج الهامة لحلف بغداد .

ثانيا: سوريا

مر بنا فى معرض حديثنا عن الثورة العربية الكبرى وتطورات أحداث الحرب العالمية الأولى وما أنتهت إليه فى منطقة الشرق العربى كيف وقف الأحرار العرب فى سوريا لمناصرة الشريف حسين والحلفاء ضد الدولة العثمانية ودخول جيوش الأمير فيصل دمشق عام ١٩١٨، ثم ما أنتهت اليه لأحداث فى ميسلون ومغادرة فيصل دمشق فى ٢٤ يوليه عام ١٩٢٠ وسيطرة القوات الفرنسية على سوريا .

يمكن تقسيم تاريخ سوريا المعاصر تحت الانتداب الفرنسى إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى (١٩٢٠ - ١٩٢٦) وكانت تتميز بالعنف الشديد والثورات ، وتولى قادة عسكريين فرنسيين أمثال جورو Gouraud، وويجان Weygand ، وسرايل Sarrail) نظرا لطبيعة المرحلة العنيفة التى تقتضى وجودهم . وكما يبدو فإن فرنسا راحت تفرض وصايتها وسيطرتها على سوريا قبل صدور صك الإنتداب بسنتين ، وشرعت فى الغاء صلاحيات الحكومة السورية ، والسيطرة على الجيش ، والأمن العام، والجمارك والشركات ، وخط حديد الحجاز ، كما قامت بفرض اللغة والثقافة الفرنسية داخل الادارات والمحاكم ، وإثارة الفرقة بين الطوائف الدينية ، وربط الإقتصاد السورى بمثيله الفرنسى واستخدام كل وسائل الإرهاب والنفى ، وضرب حركات المقاومة . كذلك فقد جرى تقسيم سوريا وتجزئتها إلى عدة دول :

١- دولة سوريا وعاصمتها دمشق والتى تم الحاق سنجق الإسكندرونه إسميا بها وان تمتع هذا السنجق بادارة ذاتيه .

٢- حلب .

٣- دولة العلويين ، وعاصمتها اللاذقية .

٤- دولة جبل الدروز ، وعاصمتها السويداء .

وكانت فرنسا ترمي من سياسة التجزئة هذه إلى اضعاف وحدة البلاد ليسهل السيطرة عليها ، وكانت تتذرع بأن ذلك استجابة للواقع السكاني بالإدعاء بأن سوريا تحوى عدة شعوب وليس شعباً واحداً .

لم يتقبل الشعب السورى مثل هذه الإجراءات فاندلعت المقاومة المسلحة ضد المستعمر الفرنسي ، ومن أهمها حركة الشيخ صالح العلى (١٩١٩ - ١٩٢١) فى جبل العلويين التى انطلقت منذ احتلال فرنسا للساحل ، وثورة ابراهيم هنانو الذى اتصل بالشيخ صالح العلى وشجعه على ثورته . كذلك فقد اندلعت ثورة فى حوران فى مطلع عام ١٩٢٠ جرى خلالها قتل بعض الجنود السوريين وبعض الوزراء السوريين أمثال الدروبى واليوسف ممن حاولوا إقناع الثوار بقبول الإنتداب الفرنسى . ومن تلك الحوادث العنيفة حادث القنيطرة عام ١٩٢٣ حين هاجم الثوار الچنرال (جورو) وحقى العظم حاكم دمشق .

الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ - ١٩٢٧):

تعتبر ثورة عام ١٩٢٥ فى سوريا أكبر حركات المقاومة الوطنية السورية المسلحة ضد المستعمر الفرنسى فى هذه المرحلة والتى شملت أجزاء واسعة من سوريا ولبنان ؛ فقد انطلقت الثورة من جبل العرب متجهة شمالاً ولتعم سوريا غربا حتى جبال لبنان ، وشمالاً حتى حماه بزعامة سلطان باشا الأطرش .

ففى عام ١٩٢٥ وصل حاكم فرنسى جديد للبلاد هو الجنرال موريس سراى الذى بدأ عهده بالتودد إلى الزعماء الوطنيين الذين قدموا إليه عدة مطالب تتمثل فى توحيد البلاد السورية ، والدعوة إلى وضع دستور للبلاد ، وضرورة أن تكون الحكومة مسئولة أمام البرلمان بدلا من المندوب السامى وإلغاء المحاكم الأجنبية وغيرها من المطالب .

وإذا كانت هذه المطالب تعتبر بمثابة دوافع أساسية للثورة فإن الدافع المباشر لها كان يتمثل فى الخلاف الذى دار بين الدروز والفرنسيين حول تعيين حاكم الجبل . فحينما أقام الفرنسيون دولة جبل الدروز تركوا الأمير سليم الأطرش يتولى حكم الجبل وفقا للإتفاقية التى أبرمها كاترو مع زعماء الجبل فى مارس ١٩٢١ الا أنه بوفاة سليم باشا الأطرش نقض الفرنسيون هذا الأتفاق وعينوا حاكما فرنسيا بدلا منه . وقام الحاكم الفرنسى باساءة معاملة سكان الجبل الذين رفضوا أوامره وطلبوا مقابلة الجنرال (سراى) لتنفيذ الاتفاق السابق أو استبدال كارتيه فلم يقابلهم بترحاب بل عنفهم ورفض مطالبهم وقبض عليهم كرهائن عدا سلطان باشا الأطرش الذى لم يقبل من الأساس دعوة المفوض الفرنسى . ومن المعارك التى حدثت موقعة المزرعة التى هزمت فيها القوات الفرنسية. وحين انتشرت الثورة فى البلاد أطلق الفرنسيون مدافعهم على دمشق ، وأمطروها بقنابلهم طيلة أيام ثلاثة .

إستاء العالم لهذه الفظائع الفرنسية ضد السوريين وتحرك الرأى العام العالمى إزاءها ، بالإضافة إلى عصبة الأمم ولجنة الانتدابات ، فما كان من فرنسا إلا أن تستدعى مفوضها السامى العسكرى (سراى) وتعين مكانه مفوضا مدنيا يدعى (دوجوفنيل) لتهدئة الخواطر ووقف الثورة ، وطلبت إليه التفاوض مع الوطنيين ، فدعا إلى انتخابات نيابية إلا أن هذه الانتخابات قوطعت بسبب التدخل . كما حاول ارضاء الشعب فألف حكومة جديدة ضمت بعض الوطنيين ، لكن حكومة بلاده لم توافق على تحقيق برنامجه فاستقال .

المرحلة الثانية (١٩٢٦ - ١٩٣٦):

إذا كانت المرحلة السابقة قد اتسمت بطابع عسكرى من خلال الثورات المسلحة التى جرت فى البلاد ومن خلال المواجهة الفرنسية الحادة من خلال جنرالاتها العسكريين ، فقد اتسمت المرحلة الثانية بتعيين

مفوضين ساميين مدنيين ، وإجراء مفاوضات سياسية بين الطرفين السورى و الفرنسى كانت بمثابة بديل للغة السلاح والاستبداد .

وفى اعقاب إستقالة دوجوفنيل عينت فرنسا (هنرى بونسو) poncot مفوضا ساميا على كل من سوريا ولبنان فى أغسطس عام ١٩٢٦ وحاول التقرب من الزعماء السوريين ، والغى الأحكام العرفية ، وقام بتعيين حكومة مؤقتة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسنى فى عام ١٩٢٨ للإشراف على الانتخابات لقيام جمعيه تأسيسية تضع دستوراً للبلاد ، وأسفرت الأنتخابات عن فوز الوطنيين الذين انتخبوا هاشم الأتاسى رئيسا للجمعيه التى انتخبت لجنة لاعداد الدستور برئاسة ابراهيم هنانو ، فقامت اللجنة بعملها وصاغت الدستور الذى حوى خمس عشرة مادة تنص على وحدة سوريا ، ونظام حكمها الجمهورى النيابى ، وأن تكون السلطة التشريعية فيها من مجلس واحد ، واما السلطة التنفيذية فتكون فى يد رئيس الجمهورية ، إلا أن فرنسا لم تقبل هذه المواد فطلب المندوب السامى إلغاء ست مواد من الدستور كانت تتعلق بالوحدة السورية والتمثيل الخارجى والجيش وسلطات رئيس الجمورية فرفضت الجمعية فقام المندوب بتعطيلها إلى أجل غير مسمى .

ظلت الأحوال لمدة أربع سنوات تتسم بالإضطرابات والاحتجاجات إلى ان أجريت الإنتخابات واجتمع المجلس النيابى فى عام ١٩٣٢ وانتخبت محمد على العابد رئيسا للجمهورية . وفى تلك الاثناء عينت فرنسا (دى مارتيل) De Martel مفوضاً ساميا جديداً فتقدم بمشروع معاهدة عرضت على المجلس النيابى فرفضها ، واندلعت المظاهرات وجئ بالشيخ تاج الحسنى مرة أخرى رئيسا للوزارة وكان معروفاً بميوله الفرنسية ، وقامت السلطات الفرنسية باعتقال عدد من الزعماء الوطنيين من أعضاء الكتلة الوطنية فاعلن االإضراب العام لمدة ستين يوماً الأمر الذى اضطر الفرنسيين إلى الاعلان عن استعدادهم لإطلاق سراح المعتقلين وإصدار

عفو عام فى حالة إنهاء الإضراب ثم قامت بعزل الشيخ تاج الدين الحسنى. ويطلق البعض على هذه الأعمال إنتفاضة عام ١٩٣٦ .

المرحلة الثالثة ١٩٣٦ - ١٩٤٦:

دخلت فرنسا مع السوريين فى مفاوضات لعقد معاهدة تعترف باستقلال سوريا ، وجرى إرسال وفد إلى باريس برئاسة هاشم الأتاسى ، وظلت المفاوضات طيلة ستة أشهر نظرا للانتخابات النيابية فى فرنسا ، إلى أن أسفرت عن عقد معاهدة بين البلدين فى سبتمبر عام ١٩٣٦ تنص على إنهاء الانتداب ، وقيام تحالف بين فرنسا وسوريا على أساس السيادة والاستقلال مع التشاور فى السياسة الخارجية ، وتولى سوريا مسئولية الأمن فى البلاد ، وقد اعطت المعاهدة لفرنسا تسهيلات فى الطرق والمواصلات . وعلى الرغم من بعض السوءات والتحفظات التى حوتها هذه المعاهدة فقد إرتاضا الشعب السورى ، فا ستقال رئيس الجمهورية محمد على العابد وانتخب فى ديسمبر عام ١٩٣٦ هاشم الأتاسى رئيسا للجمهورية .

ولم تحسم الحكومة الفرنسية موقفها النهائى من المعاهدة الأمر الذى أفضى فى النهاية إلى رفضها لهذه المعاهدة . ويعود هذا الرفض أساساً إلى معارضة الفريق الإستعمارى الذى كان يقود دفة السياسة الفرنسية آنذاك ، فقد تولى رئاسة الوزارة إدوارد دلادييه الذى كان يصرعلى بقاء أقاليم البحر المتوسط ومواصلاتها تحت سيطرة فرنسا ، بالاضافة إلى شعور الفرنسيين بأن هذه المعاهدة سوف تؤثر فى مركز فرنسا فى شمالى إفريقيا. كذلك فإن فرنسا كانت تخشى من قيام سوريا باستعادة الاقاليم التى ضمتها فرنسا إلى لبنان عشية إعلان الإنتداب ، بالإضافة إلى أنها كانت تريد حماية طرق مواصلاتها إلى الشرق الاقصى ، وتخشى أن تقوم بريطانيا أو أى قوة أخرى فى الإحلال محلها بمجرد تخليها عن سوريا .

وفيما يتعلق بقضية لواء الاسكندرونة فقد تساهلت فرنسا مع تركيا

حين سمحت بإقامة إدارة ذاتية فى اللواء فى أوائل عام ١٩٣٧ . وقد أصدرت فرنسا نظاماً أساسيا له يتضمن إستقلالاً داخلياً تاماً ، أما الشئون الخارجية فكانت تحت إدارة الحكومة السورية . ولما كانت هذه السياسة الخارجية خاضعة لفرنسا فقد أصبح لواء الاسكندرونة منفصلاً عن سوريا .
وفى عام ١٩٣٧ أرسلت عصبة الأمم المتحدة لجنة تشرف على الإنتخابات فى اللواء ف فإنحازت فرنسا لصالح تركيا . وجرى الضغط على العناصر غير التركيه لتسجيل أسمائهم كأتراك للتصويت فى الجانب التركى ، كما قامت فرنسا بتهجير عناصر تركيه كانت تسكن بالقرب من اللواء، واستقطبت العناصر الأرمينية وبعض الأقليات الأخرى ، ثم اجريت الانتخابات وجاءت النتيجة لصالح العناصر التركية رغم الاكثرية العربية فانفصل لواء الاسكندرونة عن سوريا ، واطلق على نفسه إسم جمهوريه (هاتاى) ، ثم انضم إلى تركيا فى عام ١٩٣٩ بموافقة فرنسا .

سوريا ومعركة الاستقلال :

لقد كانت الحرب العالمية الثانية نقطة تحول هامة فى حياة سوريا السياسية وتطور تيار الحركة الوطنية فيها . فمن المعلوم أن الألمان خلال هذه الحرب هاجموا فرنسا وحطموا قواتها وأجبروها على الإستسلام فى عام ١٩٤٠ ، وأقاموا فيها حكومة مواليه لهم بقيادة المرشال (بيتان) الذى وقع معهم ومع الإيطاليين هدنة ، وتشكلت حكومة مواليه للألمان سميت بحكومة فيشى . وفى المقابل شكلت حكومة فرنسية رفضت الخضوع لألمانيا أطلق عليها حكومة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديجول .

وقد عينت حكومة فيشى مفوضاً جديداً هو الجنرال دانتز Dantz الذى بدأت بريطانيا تنظر إليه على أنه يمثل خطراً على مركزها ومصالحها فى المنطقة ويتيح لألمانيا وإيطاليا السيطرة على سوريا ولبنان ، لذلك كله قررت بريطانيا تخليص سوريا من حكومة فيشى الموالية للألمان، وبالفعل فقد تم ذلك فى صيف عام ١٩٤١ حين احتلت القوات

البريطانية والفرنسية الحرة سوريا دون مقاومة ، ووعدت حكومة فرنسا الحرة من خلال بيان لها اذاعته على لسان مندوبها العام (كاترو) بإنهاء الإنتداب ومنح كل من السوريين واللبنانيين استقلالهم .

ومع كل هذه الوعود من جانب حكومة فرنسا الحرة فقد ظلت تحكم سوريا بالشدة مثلما كانت تفعل حكومة فيشي ، لكنها حاولت إرضاء السوريين حين عهدت إلى كاترو فى اوائل عام ١٩٤٣ بإعادة الحياة الدستورية وإجراء الإنتخابات التى أسفرت عن إختيار شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية . وقد حاولت فرنسا ان يكون لها وضع خاص فى سوريا ولبنان- رغم اعتراف بعض الدول كالولايات المتحدة باستقلال سوريا فى أغسطس عام ١٩٤٤ - لكن الحكومة السورية رفضت تماماً أن يكون لفرنسا أى امتيازات سياسية أو اقتصادية أو ثقافية، وفى ذات الوقت سعت كى تصبح عضواً فى هيئة الأمم المتحدة من خلال حضورها مؤتمر (سان فرانسيسكو) الذى دعت إليه دول الحلفاء كل الحكومات التى أعلنت الحرب على المحور للحضور تمهيدا لإنضمامها إلى الأمم المتحدة شريطة ان تعلن هذه الحكومات الحرب على دول المحور قبل أول مارس عام ١٩٤٥، فأعلنت سوريا الحرب فى فبراير من نفس العام . وأمام تصميم المقاومة السورية والتأييد العالمى من جانب بريطانيا ومجلس الأمن رضخت فرنسا إلى الإنسحاب من سوريا فى إبريل عام ١٩٤٦ .

ثالثا : لبنان

هناك تشابه كبير جداً فى دراسة الحياة السياسية اللبنانية بمثيلتها السورية ، فقد جمع كلاً من سوريا ولبنان تاريخ مشترك ممتد وتراث اجتماعى متشابه . فهناك تداخل بين الساحل وسوريا الداخلية ربط بينهما النظام القانونى العثمانى منذ القرن السادس عشر وحتى قيام الحرب العالمية الأولى . وأما من الناحية الاحتماعية فقد وجدت طوائف عدة مشتركة بين البلدين بنسب مختلفة إلى أن خضع كلاهما لتجربة الإنتداب الفرنسى فى اعقاب الحرب العالمية الأولى وحكما بواسطة ادارة واحدة .

وليس معنى ذلك أنه لم تكن هناك فروق خاصة لتشكيل حياة سياسية مميزة فى لبنان ، فقد كانت الأوضاع الإجتماعية فى لبنان أكثر تعقيداً ، كما كانت الأوضاع الاقتصادية فى البلدين مختلفة إلى حد ما . وأخيراً فإن رجال الانتداب الفرنسى لم يجابهوا مقاومة لبنانية بشكل قوى كالتى واجهوها فى سوريا .

لقد مر الانتداب الفرنسى للبنان بثلاث مراحل كالتى مرت بها سوريا . أولها من عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٢٦ ، والثانية من عام ١٩٢٦ وحتى عام ١٩٣٦ ، والثالثة إستمرت من عام ١٩٣٦ حتى نشوب الحرب العالمية الثانية .

فى أواخر اغسطس عام ١٩٢٠ أصدرت جورو مرسوماً بإنشاء دولة لبنان الكبير التى تكونت من بيروت والبقاع ومدن طرابلس وصيدا وصور وملحقاتها وضمها إلى متصرفية جبل لبنان . وعلى هذا النحو إزدادت مساحة لبنان فأصبحت ضعفى ما كانت عليه فى زمن المتصرفية . وأصبحت كل من بيروت وطرابلس تتحكمان فى تجارة سوريا ، كما تضاعف عدد السكان ووفد عليهم لاجئو الأرمن ما بين عامى ١٩١٥ ، ١٩٢٢ ، ونتيجة لذلك تقلصت الأكثرية المسيحية ، وفقد الجبل تجانسه مقابل توسيع أراضيه المنتجة ومنافذه البحرية .

ومن المعروف أنه فى ١٢ يوليو عام ١٩٢٠ صدر قرار من جانب جورو بتعيين لجنة إدارية تكونت من سبعة عشر عضوا ، وكانت أعمال هذه اللجنة مؤقتة فاستبدلت بمجلس تمثيلى عام ١٩٢٢ يتكون من ثلاثين نائبا يمثلون المناطق والطوائف المختلفة برئاسة حبيب باشا السعد. وكان قد صدر من قبل قرار بتعيين الكومندان ترابو (Trabaud) حاكماً على لبنان الكبير ، وبقيت السلطة العليا بيد المفوض السامى الذى يحكم فى كل من سوريا ولبنان .

وكما سبق القول فقد توالى على سوريا ولبنان ثلاثة مفوضين ساميين فى الفترة من ١٩٢٠ وحتى ١٩٢٦ (جورو - ويجاند - سرايل) وفى عهدهم سادت الحركات العصيانية فى كل من سوريا ولبنان ، فقد تأثر دروز الشوف بإخوتهم فى حوران وقاوموا المستعمر الفرنسى ، وفى زمن سرايل نشبت ثورة ١٩٢٥ التى سبق الحديث عنها فى كل من سوريا ولبنان والتى امتدت من حوران إلى دمشق . وقد استدعى سرايل نتيجة التنكيل بالثوار وعين (دى جوفينيل) الذى دعا المجلس النيابى إلى العمل على وضع دستور تم إنجازه فى مايو ١٩٢٦ ، وتحول المجلس التمثيلى إلى مجلس تأسيسى ثم إلى مجلس نيابى . وجاءت خطوة ثانية تمثلت فى إعلان مجلس الشيوخ من جانب المفوض السامى الذى قام بتعيين أعضائه الستة عشر ثم دعا المجلسين معاً (مجلس النواب ومجلس الشيوخ) لإنتخاب رئيس الجمهورية .

ويبدو أن سلطات الإنتداب الفرنسى كانت قد اعدت سلفاً مرشحها لرئاسة الجمهورية وهو شارل دباس الذى كان يتمتع بالكفاءة والنزاهة والاعتدال ، فقد حاول التخفيف من كراهية بقية الطوئف الموارنة ، كما عرف عنه النزعة الاستقلالية ومقاومة الاتجاه الوحدوى مع سوريا لا سيما وأنه كان معروفاً بكفاحة ضد الدولة العثمانية .

ولا يفهم من هذه التطورات أن الوطنيين اللبنانيين قد سيطروا على مقدرات البلاد ، بل ظلت سلطة المستشارين والمفوض السامى الفرنسى فوق الجميع .

وفى عام ١٩٣٢ أصدر المفوض السامى قراراً بوقف العمل بموجب الدستور وحل المجلس النيابى واقاله الوزارة وتعيين شارل دباس رئيسا للجمهورية لأجل غير مسمى . ولما استقال دباس فى أواخر عام ١٩٣٣ أعلن المفوض السامى تعيين حبيب السعد رئيسا للجمهورية لمدة سنة ثم جدد له سنة أخرى . وفى عام ١٩٣٦ أختير إميل أده من جانب مجلس النواب رئيساً للجمهورية بأغلبية ضئيلة أمام بشارة الخورى .

معاهدة ١٩٣٦ :

وعلى غرار المعاهدة السورية وقعت فرنسا مع لبنان معاهدة ١٩٣٦ إستندت على نموذج المعاهدة البريطانية العراقية . ونصت على إقامة معاهدة تحالف وصداقة بين الطرفين لمدة خمسة وعشرين عاماً ، وتقوم فرنسا بمساعده لبنان على دخول عصبة الأمم ، وفى المقابل يسمح لفرنسا بتسهيلات عسكرية باستخدام قاعدتين جويتين ، والإحتفاظ - لمدة خمس سنوات - بقوات برية فى مناطق محدودة ، والإشراف على السياسة الخارجية ، وتمتع السفير الفرنسى فى بيروت ودمشق بحق الأسبقية على أقرانه السفراء.

ولم يتم التوقيع على المعاهدة فى فرنسا نظراً لتغير الوزارة وعودة الأحزاب اليمينية للحكم التى لم تكن تقبل التنازل عن أى جزء من إمبراطورية فرنسا الإستعمارية .

لبنان والحرب العالمية الثانية :

وفى الحادى والعشرين من سبتمبر عام ١٩٣٩ قام المفوض السامى بتعليق الدستور اللبنانى وإقالة الحكومة ومجلس النواب وتثبيت إميل أده رئيساً للجمهورية بالتعيين .

وقد مر لبنان بنفس الظروف السياسية التى مرت بها سوريا ، وفى خلالها عين (دانتز) مفوضا عاماً وكان ميالاً لحكومة فيشى الموالية للألمان . وقد تعاونت بريطانيا فى تخليص البلاد من هذه الحكومة الموالية فى صيف ١٩٤١ * .

---

* انظر فيما سبق ص

لقد كان تعيين دانتز مفوضاً وقائدا عاماً لقوات فيشى فى الشرق مدعاة لتخوف اللبنانيين . فهذا الرجل هو واحد من الذين أساءوا لوفد الدروز حين طلب مقابلة سرايل عام ١٩٢٥ ، وهو أيضا الذى وقع على صك إستسلام باريس للنازيين . فهو يمثل - على حد قول البعض - العداء للبنان ، كما يمثل فى ذات الوقت الهزيمة لفرنسا . وقد إنذر دانتز كل من رفض التعاون مع السلطات الفيشية ، أو أظهر تمرداً . كذلك فقد عمت الإضطرابات ومات الكثيرون فى كل من دمشق وبيروت . وبعد فترة استقال الرئيس إميل أده فى ابريل عام ١٩٤١ وقام دانتز بتعيين (الفرد نقاش) رئيسا للدولة . وجاءت البلاد لجنة المانية ايطالية تمتعت بنفوذ كبير ، كما لعبت دوراً بارزاً فى مساندة ثورة رشيد عالى الكيلانى فى العراق فى الثانى من مايو عام ١٩٤١ ضد البريطانيين . وعلى هذا النحو وضع مطارا (رياق) وحلب تحت إمرة الألمان لمساندة ثورة الكيلانى وإمدادها بالأسلحة مقابل السماح لثمانين ألف فرنسى من الأسرى فى المانيا بأن يعودوا إلى بلادهم .

ولم تكن هذه التصرفات من جانب رجال حكومة فيشى تروق لرجال حكومة فرنسا الحرة بزعامة الجنرال ديجول ، فتحرك مندوبها العام (كاترو) الذى وجه نداءات من إذاعة القاهرة داعياً فرنسى الشرق للانضمام إلى صفوف حركة الجنرال ديجول .

وقد اقنع كاترو حلفاءه البريطانيين بتوجيه حملة لتخليص لبنان وسوريا من القوات الفيشية فى يونيه عام ١٩٤١ وقامت طائرات الحلفاء بإلقاء آلاف النسخ من بيان لكاترو يعد فيه بالتحرير والاستقلال. . ونجحت الحملة وواصل الديجوليون ممارسة الإنتداب الفرنسى فى البلاد، وجاء ديجول إلى لبنان فى أوائل أغسطس عام ١٩٤١ واتصل بالزعماء الموالين لفرنسا لكنه لم يبت فى الوعود التى أذاعها كاترو بإسمه وترك الأمور لتدبير كاترو الذى حمل لقب المندوب السامى العام . وحاول

كاترو من خلال جولاته فى البلاد التبشير بالإستقلال الذى وصفه بشارة الخورى رئيس الكتله اللبنانية بأنه مزيف .

وفى صيف عام ١٩٤٢ جاء ديجول مرة ثانية إلى لبنان وصرح بأنه « لا يرى مبرراً لاستفتاء الشعوب فى إجراء انتخابات نيابية وقوات رومل على أبواب الاسكندرية تهدد منطقه الشرق الأوسط ،وأنه سوف يأتى يوم تزول فيه هذه الموانع » .

وتوالت الأحداث بعد معركة العلمين وتأزمت الأمور وسارت المظاهرات فأصدر كاترو قراراً بإقالة النقاش ورئيس وزرائه سامى الصلح وتعيين أيوب ثابت رئيساً للدولة فى ١٨ مارس عام ١٩٤٣ لكنه أقيل فخلفه (بتروطراد) فى ٢١ يوليو عام ١٩٤٣ ، ثم أنتخبت بشارة الخورى فى ٢١ سيتمبر عام ١٩٤٣ رئيساً للجمهورية فى انتخابات جرت تحت اشراف لبنانى - فرنسى - بريطانى وكلف رياض الصلح برئاسة الحكومة. ثم بدأت معركة الاستقلال إلى ان تم جلاء آخر جلدى فرنسى عن لبنان فى الحادى والثلاثين من ديسمبر عام ١٩٤٦ لتصبح دولة مستقلة ذات سيادة كاملة ، تمارس دورها فى كافة الأتجاهات العربية والدولية .

رابعاً : الأردن

قيام شرقي الأردن :

كانت الأراضى التى أقيمت عليها إمارة شرقى الأردن قبل عام ١٩١٨ جزءاً من أراضى الدولة العثمانية وتابعة لولاية دمشق. وخلال أحداث الحرب العالمية الأولى فى المشرق العربى جرى إحتلالها من جانب قوات الثورة العربية والقوات البريطانية والتى كان يقودها الأمير فيصل واللنبى . وعقب دخول قوات فيصل سوريا أصبح شرقى الأردن جزءاً من مملكة فيصل التى أقيمت فى سوريا عام ١٩٢٠ .

بعد أن تم القضاء على مملكة فيصل فى دمشق عقب موقعة ميسلون عام ١٩٢٠ توجه الأمير عبد الله أخو الأمير فيصل إلى جنوبى الشام فى منطقة معان فى محاوله منه لتجميع القبائل وتوجيه نداء إلى السوريين للثورة ضد الفرنسيين. والجدير بالذكر أن شرقى الأردن عقب إنتهاء الحرب العالمية الأولى كانت قد أدرجت هى وفلسطين فى صك الإنتداب وجرى وضعهما تحت السيطرة البريطانية بموجب مؤتمر سان ريمو فى أبريل عام ١٩٢٠ الذى صادق عليه مجلس عصبة الأمم فى الرابع والعشرين من يوليه عام ١٩٢٢ .

ما أن شعر البريطانيون بتحرك الأمير عبد الله للثأر لأخيه فيصل حتى قرروا أن يضربوا أكثر من عصفورين بحجر واحد ، فقد كانت الثورة متأججة فى العراق ، والأمير عبد الله يفكر فى إستعادة الشام من فرنسا ، لذلك كله فقد جرى عقد مؤتمر الشرق الأوسط بين القاهرة والقدس فى مارس عام ١٩٢١ تحت رئاسة ونستون تشرشل توصل إلى قرارات تقضى باختيار فيصل ملكاً على العراق وتأسيس حكومة وطنية فى شرقى الأردن برئاسة الأمير عبد الله تكون مستقلة إستقلالاً إداريا تاماً وتساعدها الحكومة البريطانية ماديا، وتسترشد برأى مندوب بريطانى فى عمان ، مع إنشاء قاعدتين جويتين لبريطانيا ، وعدم الإعتداء على الحدود السورية .

وفيما يتعلق بالحدود الجنوبية لإمارة شرقى الأردن طلب الأمير عبدالله من والده الملك حسين أن يوافق على ضم منطقتى (معان) و (العقبة) إلى شرقى الأردن . ويبدو أن موافقه والده كانت فى بادئ الأمر شفهية ولم تأخذ شكلاً رسميا إلى ان ضم الملك عبد العزيز آل سعود فى عام ١٩٢٤ وكان يريد هو أيضا الإحتفاظ بهاتين المنطقتين باعتبارهما جزءا من الحجاز لكنه وافق فى نهاية الأمر على ضمهما إلى شرقى الأردن وفقاً لمعاهدة جدة مع بريطانيا عام ١٩٢٧ .

معاهدة ١٩٢٨ :

سار الأمير عبد الله على نهج أخيه فيصل فى عقد معاهدة مع بريطانيا فى عام ١٩٢٨ والتى حرصت من خلالها على أن تكون مطابقة لبنود الإنتداب ، فقد أعطت المعاهدة لبريطانيا الحق فى الإشراف على السياسة الخارجية للإمارة وجعلت من المفوض السامى البريطانى فى القدس مسئولاً عن ذلك ، بالإضافة إلى حق بريطانيا فى الإشراف المالى وحماية الأجانب . أما الجانب العسكرى فقد شغل حيزاً هاماً وكبيراً فى المعاهدة حيث منحت بريطانيا الحق فى إبقاء قواتها المسلحة فى شرقى الأردن ، ومراقبة التشكيلات العسكرية فى الداخل ، كما نصت المعاهدة على تحمل الأمارة نفقات القوات البريطانية المرابطة . وقد التزمت بريطانيا بتقديم معونات مالية للإنفاق على القوات المسلحة ، كما خولت المعاهدة البريطانيين الحق فى شئون القضاء فيما يتعلق بأفراد القوات المسلحة البريطانية والأردنية .

لم يرض الشعب الأردنى عن هذه المعاهدة فاندلعت المظاهرات فى كافة المدن ، وأرسلت برقيات الإحتجاج إلى عمان. وكان حزب الشعب – الذى أسسه فى عام ١٩٢٧ جماعة من مشايخ البدو الذين يتمتعون بنفوذ كبير – قد أعلن أن هذه المعاهدة تعد فى نظره عملاً إجراميا . وفى السادس عشر من أبريل عام ١٩٢٨ جرى إصدار أول دستور لشرقى الأردن (القانون الأساسى) ، وتم من خلاله وضع السلطة التشريعية فى

يد الأمير والمجلس التشريعى . ولم يكن الأمير مسئولاً أمام المجلس بل كان بإمكانه حل المجلس التشريعى وإصدار المراسيم .

وفى معرض الحديث عن تطور إمارة شرقى الأردن نشير إلى تشكيل الفيلق العربى فى عام ١٩٢٢ والذى تألف من الف فرد تحت إشراف الجنرال بيك Peake الذى سبق له أن خدم كقائد للهجانة المصرية . وقد ظل بيك طوال سبعة عشر عاماً قائداً للفيلق العربى حتى حل محله (جلوب) فى عام ١٩٣٩ . وقد حوى هذا الفيلق جنوداً عراقيين وحجازيين وفلسطينيين وسوريين وغيرهم وكان أكثر أفراده من البدو .

ويبدو ان هذا الفيلق العربى من خلال تشكيله واشراف البريطانيين عليه كان يرمى إلى تحقيق أطماع السياسة البريطانية فى المشرق العربى. ففى عام ١٩٤١ تم الإستعانة بهذا الفيلق فى قمع ثورة رشيد عالى الكيلانى فى العراق ، كما أستخدم فى إنتزاع الشام من حكومة فيشى . كذلك فقد أرسل هذا الفيلق إلى سيناء وشمالى افريقيا عام ١٩٤٢ حين اقتربت قوات رومل من العلمين .

وإلى جانب هذا الفيلق العربى وجدت قوة عسكرية أخرى فى إمارة شرقى الأردن عرفت بإسم قوة حدود شرقى الأردن تشكلت عقب معاهدة ١٩٢٨ وشاركت مع هذا الفيلق فى تنفيذ المخططات العسكرية البريطانية فى المنطقة .

وخلال الحرب العالمية الثانية إتصلت المعارضة الأردنية بدول المحور فى محاولة للخلاص من السيطرة البريطانية . كذلك فقد وعدت بريطانيا الأردن بمنحه الإستقلال عقب إنتهاء الحرب خاصة وأن الأمير عبد الله قد أبدى إخلاصه فى القضاء على ثورة الكيلانى وانتزاع الشام من حكومة فيشى .

معاهدة عام ١٩٤٦ :

وفى مارس عام ١٩٤٦ جرى توقيع معاهدة بريطانية أردنية فى لندن شبيهة بمعاهدة عام ١٩٣٠ مع العراق إعترفت من خلالها بريطانيا بشرقى الأردن كدولة مستقلة ، ووافقت على تبادل التمثيل الدبلوماسى مع الوعد بتقديم مساعدة مالية للفيلق العربى والدفاع عن الإمارة ضد أى تهديد خارجي . وقد وافق الأردن على حق بريطانيا فى إبقاء قوات بريطانية على الأراضى الأردنية مع الحصول على التسهيلات اللازمة فى المواصلات عبر أراضيه والقيام بتدريب القوات الأردنية المسلحة . وفى مايو عام ١٩٤٦ أعلن قيام المملكة الأردنية الهاشمية .

ولم يكن جميع الأردنيين راضيين عن هذه المعاهدة فراحوا يطالبون بتعديلها ، كما كانت كل من سوريا ولبنان غير راضية أيضاً عنها ، بالإضافة إلى عدد من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة . وقد إنعكس كل ذلك فى رفض طلب الأردن الإنضمام لعضوية الأمم المتحدة . وأمام ذلك كله قامت بريطانيا بتعديل معاهدة عام ١٩٤٦فعقدت معاهدة فى مارس عام ١٩٤٨ قبل شهرين من إنتهاء الإنتداب البريطانى على فلسطين . وقد حصلت بريطانيا من خلال هذه المعاهدة على تملك قاعدتين جويتين فى الأردن ، وإنشاء مكتب دفاع بريطانى مشترك لحل المشكلات المتعلقة بالأمن الخارجى للأردن .

وعلى الرغم من أن هذه المعاهدة الجديدة قد خففت من قبضة بريطانيا على شرقى الأردن إلا أن النفوذ البريطانى ظل قويا نظراً للبنود العسكرية التى حوتها المعاهدة وجعلت الأردن يدور فى فلك الإستعمار البريطانى .

وفى معرض الحديث عن التطورات السياسية للأردن نشير إلى بعض المشاريع الوحدوية الهاشمية فى كل من الأردن والعراق ، فقد كان الأمير عبد الله يفكر فى مشروع سوريا الكبرى الذى يرمى إلى تجميع كل من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن فى دولة واحدة تكون الأردن نواة

لها، كما كان العراقيون أيضا لهم مشروع خاص أطلق عليه مشروع الهلال الخصب Fertile Crescent وذلك بضم الشام إلى العراق الذى كان يحكمه فرع هاشمى آنذاك .

وقد لاقى مشروع سوريا الكبرى الذى دعا إليه الأمير عبد الله معارضة من جانب السوريين الذين كانوا يفضلون ان يكونوا هم نواة تجمع وحدوى وليس شرقى الاردن الضعيف سياسيا واقتصاديا ، كما كان السوريون أيضا يحبذون النظام الجمهورى وليس الملكى . كذلك فقد عارضه قطاع واسع من الفلسطينيين بقيادة أمين الحسينى مفتى القدس لأن تحقيق مثل هذا المشروع سوف يأتى على حسابهم ، لأنه يعنى التفاهم مع بريطانيا . ولم يقبل آل سعود هذا المشروع لأنهم رأوا فيه التفافاً أو تطويقا لهم من الشمال ، إضافة إلى رفض مصر له التى كانت ترى أنها الأجدر بتزعم العالم العربى بما تملكه من كثافة بشرية وقطاع عريض من المثقفين .

حاول الأمير عبد الله فى معرض الأحداث التى مرت بها فلسطين والمنطقة أن ينفذ مشروعه لكنه لم يستطع لمعارضة كثير من الدول العربية فى المشرق العربى . ففى حرب عام ١٩٤٨ فى فلسطين تولى عبد الله قيادة الجيوش العربية بناءً على طلبه ، وكانت القوات الأردنية خلال هذه الحرب تتمثل فى الفيلق العربى الذى حوى ضباطاً بريطانيين على رأسهم جلوب الذى تسبب فى تسليم كل من اللد والرملة لليهود فاتهم الفيلق بالخيانة . ورغم كل ذلك فقد خرج الأردن من هذه الحرب بمطالب تمثلت فى ضم معظم الأراضى التى كانت قد خصصت للدولة العربية فى مشروع التقسيم الذى قررته الأمم المتحدة ، بالإضافة إلى القدس القديمة . وفى ديسمبر عام ١٩٤٨ عقد مؤتمر فى (أريحا) دعا إلى ضم الجزء العربى من فلسطين إلى الأردن فوافق البرلمان الأردنى على قرارات هذا المؤتمر وأعلن الملك عبد الله رسميا فى ٢٧ ديسمبر عام ١٩٤٩ حل البرلمان الأردن وإجراء إنتخابات فى كل من الضفة الشرقية والضفة الغربية لنهر الأردن لبرلمان جديد . وفى ٢٤ ابريل عام ١٩٥٠ أصدر

مجلسا البرلمان الأردنى قراراً بوحدة الضفتين مع الإحتفاظ بحقوق عرب فلسطين كاملة .

عارضت أكثر الدول العربية هذا الإجراء وطالبت بطرد الأردن من الجامعة العربية ، إلا أنه تم التوصل إلى حل يقضى بتعهد الأردن بأن ضم الضفة الغربية إجراء مؤقت حتى تتم التسوية النهائية للقضية الفلسطينية . وفى ٢٠ يوليه عام ١٩٥١ جرى إغتيال الملك عبد الله عند المسجد العمرى بالقدس .

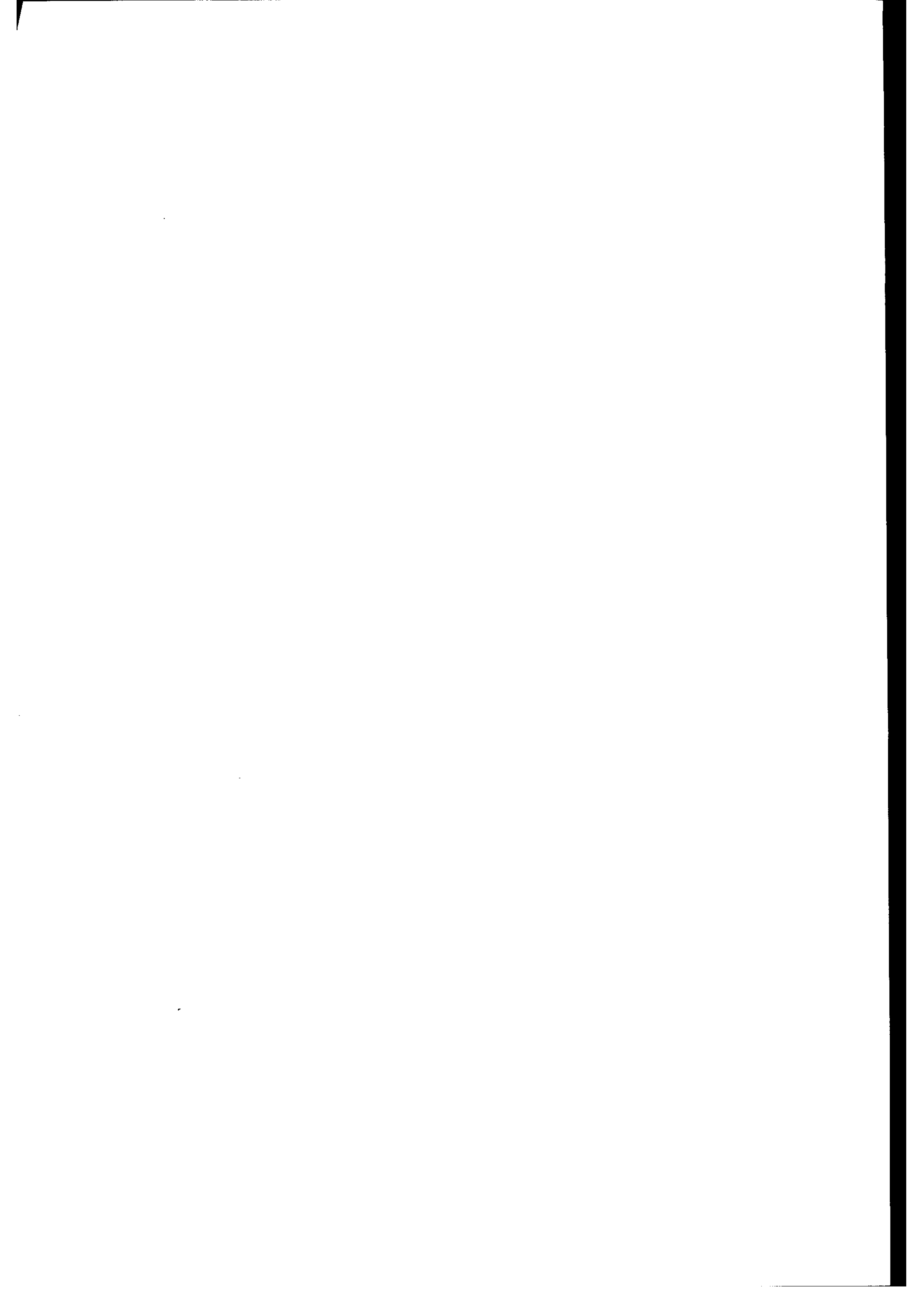
تولى طلال الحكم خلفا لوالده لكنه لم يمكث فى الحكم سوى ثلاثة أشهر قام خلالها بأعمال جليلة للمملكة ، فحاول أن يتخلى عن الأسلوب الذى سار عليه والده ، فأعلن رفضه لفرض أى شكل وحدوى ، كما قام بزيارة الرياض لازاله أية رواسب فى العلاقات مع الدولة السعودية . وفى المجال الداخلى أطلق حرية الشعب واعتبره مصدراً للسلطة ، إلا انه لم تطل مدة حكمه كثيراً ، فاستبعد عن العرش بزعم إصابته بمرض نفسى ، وجرى نفيه إلى استانبول وظل بها حتى وفاته . وتشير بعض المصادر إلى مسئولية بريطانيا فى عزله الذى جرى فى الحادى عشر من أغسطس عام ١٩٥٢ ليخلفه ابنه الحسين .

مراجع الفصل الرابع

- إسماعيل ياغي : العالم الإسلامي الحديث و المعاصر . الجزء الأول قارة آسيا .

- عبدالعزيز نوار : تاريخ العرب الحديث .

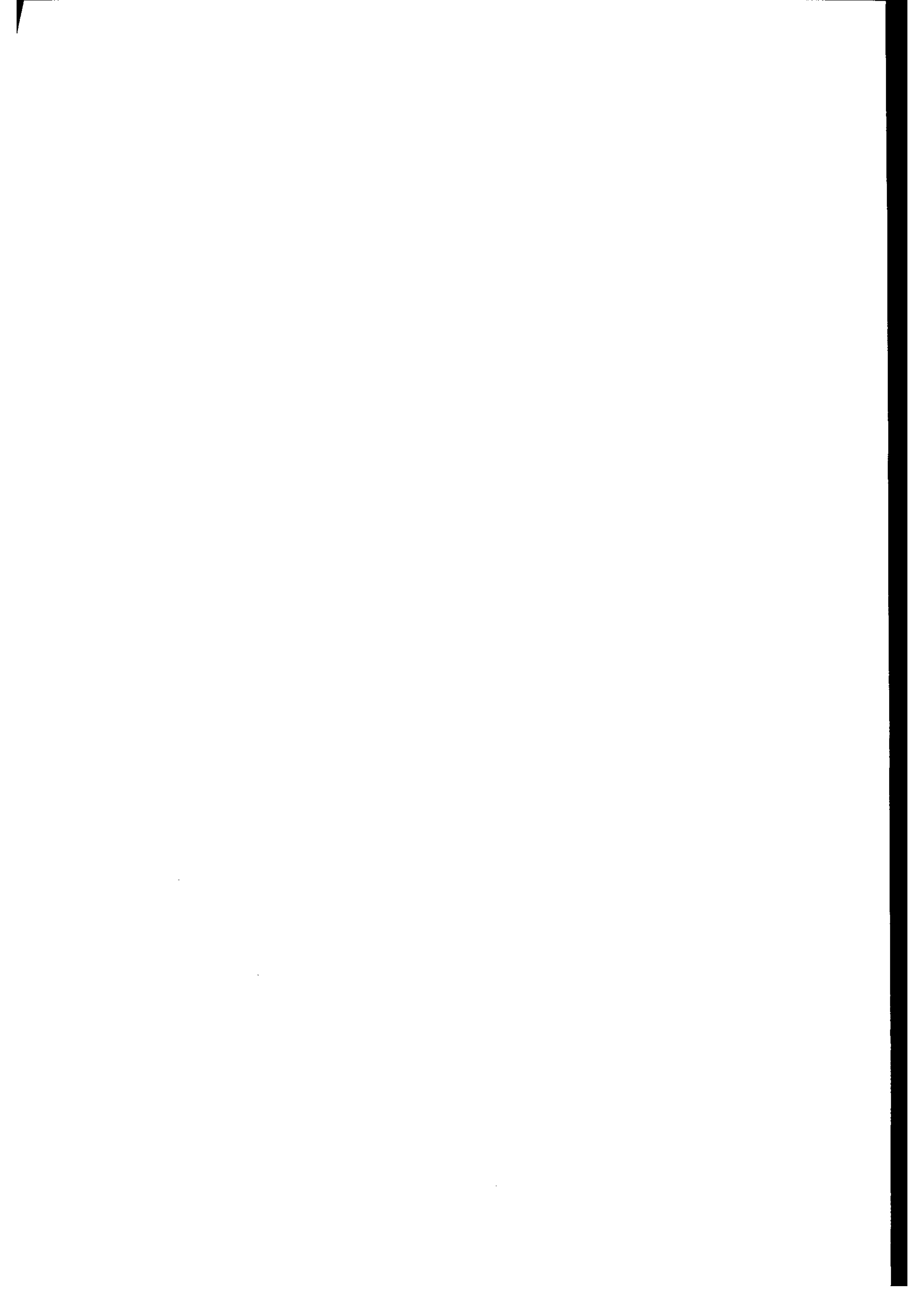
- لو تسكي : تاريخ الأقطار العربية المعاصر .



الفصل الخامس

فلسطين بين الصهيونية والإنتداب البريطاني

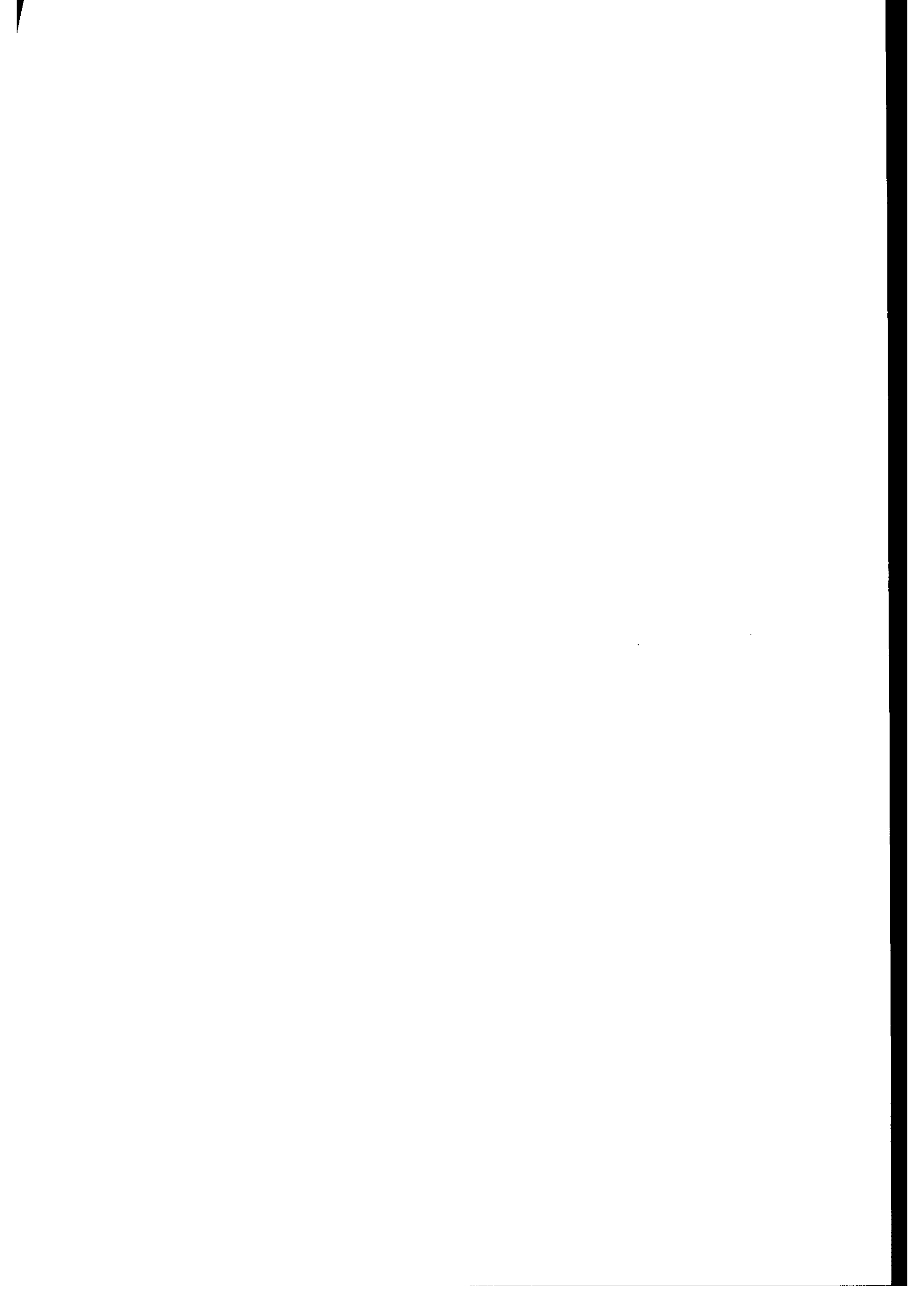
- الحركة الصهيونية .
- الإنتداب البريطانى وتطور الحركة الوطنية الفلسطينية .



الفصل الخامس (فلسطين بين الصهيونية و الانتداب البريطاني)

الأهداف :

- التعرف على جذور الصهيونية و أساليبها في الحصول على وطن قومي .
- التعرف على أسلوب بريطانيا خلال الانتداب في تمكين الصهيونية من فلسطين .
- التعرف على رد فعل العرب تجاه بريطانيا و الصهيونية من خلال حوادث ١٩٢٩ ، وثورة عام ١٩٣٦ .
- تبيان العوامل التي أدت إلي ضياع فلسطين و دور القوى الخارجية في تمكين الصهيونية و الوصول إلي الوضع الراهن .



الحديث عن القضية الفلسطينية هو حديث عن قضية الأمة العربية كلها بل قل إن شئت قضية العالم الإسلامى كله ، فقد شغلت البلاد العربية- ولا تزال - بهذه القضية ودخلت من أجلها حروباً عدة منذ عام ١٩٤٨ ومروراً بحرب عام ١٩٦٧ ووصولاً إلى حرب السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ . وإذا كانت البلدان العربية المجاورة لفلسطين - كمصر والأردن وسوريا ولبنان - قد شاركت بشكل مباشر واحتلت أراضى واسعة منها ولا يزال بعض منها محتلا - فإن البلدان العربية الأخرى قد شاركت أيضا فى هذه القضية من خلال الدعم الاقتصادى والسياسى وحتى العسكرى أحيانا .

ولم يشهد التاريخ الحديث أو المعاصر مشكلة سياسية معقدة، شغلت العالم بأجمعه واستحوذت على إهتمام رجال السياسة وتضاربت إزاءها الآراء، واستعصت معها الحلول، مثل القضية الفلسطينية، فقد كثرت حولها المؤتمرات العلنية والسرية، وتبودلت من خلالها الصفقات ، وتولدت عنها مشكلات ، وأندلعت من أجلها حروب وانتفاضات صاحبها كثير من المآسى والأهوال ولاتزال هذه القضية تشغل العالم العربى والإسلامى والعالم أجمع .

إن مسيرة القضية الفلسطينية مسيرة طويلة وشائكة ومعقدة .. إختلط فيها الدهاء والمكر الصهيونى الممسك بخيوط اللعبة السياسية من خلال الدعم العالمى غير المشروط .ومن أسف أن هذه المسيرة هى أيضا مسيرة مأساوية لأنها ارتبطت بمغتصب لا يقيم للإنسانية وزناً ولا يحترم أية مبادئ دولية، تقوده طغمة عسكرية شربت لبان الدم ونمت فى أحضان الغدر وراحت من ثم تطرد الأهالى وتذور الوثائق وتقتل النساء والشيوخ والأطفال وتقيم المستوطنات ، وحين مدت لها الأيدى ترفع أغصان الزيتون وتجنح للسلم كما أمر الإسلام إذا بهم يناورون ويحاورون وليصدق

فيهم كل وصف جاء فى القرآن الكريم من نقضهم للمواثيق وقتلهم للأنبياء وجدلهم العقيم .

اهمية فلسطين :

أولاً : الأهمية الاستراتيجية : تتمتع فلسطين بموقع إستراتيجى هام، فهى تقع فى غربى آسيا بين خطى عرض ٢٩,٣٠ ° و ٣٣,١٠ ° شمالاً وبين خطى طول ٣٤,١٥ ° و ٣٥,٤٠ ° شرقى خط جيرينتش، يحدها من الشمال لبنان، ومن الشرق المملكة الاردنية وسوريا، ومن الجنوب جمهورية مصر العربية، ومن الغرب البحر المتوسط .

وتضم فلسطين بداخلها صحراء النقب ذات الأهمية الاستراتيجية إذ أنها تعتبر بمثابة حلقة الوصل والمعبر بين شمالى شبه الجزيرة العربية وشبه جزيرة سيناء . كذلك فإن موقع فلسطين بشكل عام يعتبر الطريق الوحيد الذى يربط بين وادى النيل وبين وادى دجلة والفرات وبلاد الشام، وهى بذلك تعتبر حلقة وصل بين البلدان العربية؛ فسواحلها تتمم سواحل مصر وسواحل الشام، وأراضيها تسمح بوصل الحدود المصرية بالحدود السورية والأردنية، ووصل كل من العراق وشبه الجزيرة العربية بالبحر المتوسط .

وقد أدركت أوربا الإستعمارية خطورة وأهمية هذا الموقع الإستراتيجى لفلسطين منذ زمن بعيد فراحت تخطط للإستيلاء عليها فبريطانيا مثلاً كانت تحاول منذ نهاية القرن الثامن عشر الإحتفاظ بنفوذ متفوق لها فى منطقة الشرق الأدنى الغربى فى محاولة للسيطرة على طرق المواصلات العالمية للوصول إلى مستعمراتها فى الهند والشرق الأقصى، وبناءً على ذلك عمدت إلى منع كل قوة إقليمية أو خارجية

للسيطرة على هذه المنطقة . وما كانت الحملة الفرنسية التى قادها بونابرت فى عام ١٧٩٨م على مصر والشرق العربى وتصدى بريطانيا لها إلا مرحلة من مراحل الصراع بينهما على طرق المواصلات المؤدى إلى الشرق . ذلك أن فرنسا فى صراعها مع بريطانيا فى الميدان الأوربى لم تكن قد أحرزت نصراً مؤزراً فراحت تجرب حظها فى ميدان آخر لضرب غريمتها بريطانيا فأرادت قطع طريق المواصلات المؤدى إلى أهم مستعمرة بريطانية فى الشرق وهى الهند وذلك بالإستيلاء على مصر والشام ومن بينها فلسطين، ويقال إن بونابرت قد أشار إلى مدينه عكا إحدى مدن فلسطين قائلاً : « لو فتحت عكا لفتحت الشرق » وفى ذلك دلالة على أهميتها الإستراتيجية .

وإضافة إلى ماسبق فإن بريطانيا قد وقفت بالمرصاد لمشروعات محمد على التوسعية فى القرن التاسع عشر سواء فى آسيا أو افريقيا . ففى آسيا ضم محمد على بلاد الشام التى تحوى فلسطين واتخذها قاعدة إنطلاق للصدام مع الدولةالعثمانية، وهنا شعرت بريطانيا مع كثير من الدول الأوربيه الطامعة فى تقسيم الدولة العثمانية أن محمد على باستيلائه على هذه المنطقة قد بدأ يهدد طريق المواصلات لاسيما وأن قواته قد وصلت إلى جنوبى الجزيرة العربية والخليج العربى وأصبح الأمر يستلزم الوقوف فى وجهه نظراً لخطورة المناطق التى استولى عليها من الناحية الاستراتيجية فألبت بريطانيا الدول ضده وأخرجته من هذه المناطق بعد عقد معاهدة لندن ١٨٤٠ - ١٨٤١ لاسيما وان بريطانيا كانت قد استولت على عدن عام ١٨٣٩ باعتبارها موقعا استرتيجيا وراحت تحطم أمبراطورية مصر الإفريقية نظراً لأهمية الأراضى التى كانت تسيطر عليها مصر من الناحية الاستراتيجية .

ولما كانت بريطانيا قد استطاعت الإستيلاء على مصر عام ١٨٨٢

حمايةً لخطوط مواصلاتها الإستعمارية وقناة السويس شعرت بأن من يسيطر على فلسطين يمكن أن يهدد منطقة القناة، لاسيما وأن المشروعات الألمانية قد بدأت تظهر إلى الوجود فى الأجزاء العربية من الأمبراطورية العثمانية، ثم أخيراً تحالف الدولة العثمانية - التى كانت تسيطر على فلسطين وبقية الشام - مع المانيا خلال الحرب العالمية الأولى الأمر الذى بدأ يشكل خطورة بالغة بالنسبة لبريطانيا فى المنطقة والخوف من إتخاذ فلسطين قاعدة إنطلاق وهجوم ضد البريطانيين فى مصر، لذلك كله عمدت بريطانيا إلى الإستيلاء على فلسطين خلال الحرب العالمية الأولى، واستمر انتدابها عليها حتى سلمتها لليهود فى عام ١٩٤٨ .

ثانيا : *الأهمية الدينية* :

تتمتع فلسطين بأهمية دينية عظيمة لكونها مهد الديانات السماوية، فعلى أرضها أقام سيدنا ابراهيم عليه السلام وبشر بديانة التوحيد ودفن هو وزوجته سارة وأبناؤه فى واحدة من مدنها وهى مدينة الخليل، ثم أتى من بعده موسى وعيسى عليهما السلام، وعلى أرض فلسطين ولد المسيح عليه السلام وفيها كنيسة القيامة .

وبالنسبة للمسلمين تعتبر فلسطين بلاداً مقدسة مباركة ففيها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وهو ثانى مسجد أقيم فى الإسلام بعد المسجد الحرام فى مكة المكرمة، وهو المسجد الذى أسرى إليه محمد صلى الله عليه وسلم حيث قال الله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير »* .وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تشد الرجال إلا لثلاثة مساجد مسجدى هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى »** .

---

* سورة الاسراء .

** رواه مسلم .

ومن الخطأ القول بأن تاريخ فلسطين الإسلامى يبدأ منذ أن دخلها عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عشرين ربيع أول سنة ١٥ هـ الموافق لليوم الثانى من مايو سنة ٦٣٦م بل إن فلسطين قد ارتبطت بالإسلام قبل ذلك بقرون طويلة بأمر الله وبرسالته والزحف الممتد على مدار التاريخ . فقد كانت الأرض كلها أرض إيمان وإسلام وكان الناس عليها أمة واحدة تعبد الله حتى تفرقوا بعد ذلك مؤمنين وكافرين فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وكان نوح عليه السلام رسول الله ونبيه فانطلقت بهم الدعوة الإسلامية فى الأرض وختمت النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم . فإبراهيم عليه السلام هاجر إلى ربه، هاجر بدينه الإسلام إلى فلسطين يحمل اليها رسالة الله ثم ذهب بعد ذلك مع زوجته هاجر وولده إسماعيل إلى مكة المكرمة وبنى الكعبة المشرفة لترتبط دار الإسلام كلها بإبراهيم أول المسلمين حيث يقول الله تعالى « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » * .

وتحرك موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة وأمر قومه الذين آمنوا معه فى مصر بذلك والذين نجاهم الله برحمته من فرعون وملأه، أمرهم بحمل رسالة الإسلام إلى فلسطين . وحين انحرف الناس عن الإسلام فى فلسطين بعث الله عيسى عليه السلام نبياً مسلماً ورسولاً يدعو إلى الإسلام ولتمتد معه رسالة أمة الإسلام على أرض فلسطين المسلمة المباركة . وازداد الناس انحرافاً عن الإسلام فظهر الفساد فى الأرض فبعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام ثم أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليؤم الأنبياء كلهم تاكيداً على إمتداد أمة الإسلام الواحدة فى التاريخ البشرى، وأن فلسطين ملك للإسلام والمسلمين. ثم ينطلق المسلمون من المدينة المنورة يحملون دين الإسلام إلى شتى البقاع ومنها فلسطين التى دخلها عمر بن الخطاب بنفسه وهو ما لم يحدث فى بقية الفتوحات .

---

* سورة الحج .

ثالثا : الأهمية العربية :

لا شك أن فلسطين عربية وأن الأدلة التاريخية تؤكد ذلك ؛ فالوجود العربى فى هذه المنطقة كان قديماً جداً على عكس زعم اليهود أنهم أسبق فى الوجود من العرب وأن الأخيرين جاءوا مع الفتح الإسلامى . فالعرب أسبق وهم سكان فلسطين القدماء المنحدرين من قبيلة كنعان التى جاءت من الجزيرة العربية منذ سنة ٢٥٠٠ق.م ، فعرفت فلسطين بأرض كنعان . أما اسم فلسطين فينسب إلى قبيلة فيلستيا التى غزت ساحل فلسطين من جزيرة كريت واندمجت مع الكنعانيين . ولم تنقطع صلة العرب بفلسطين أبداً ولاسيما قبل الإسلام ، فالقرآن الكريم يسجل هذه العلاقة والصلات الدائمة فى قوله تعالى « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف... »* .

أما العبرانيون فترجع صلتهم بفلسطين إلى عام ٢٠٠٠ق.م تقريبا حين جاء إبراهيم ببعض الكلدانيين وعبريهم نهر الأردن وأقاموا بأرض كنعان ثم هاجروا إلى مصر وعادوا منها إلى أرض كنعان بقيادة موسى عليه السلام الذى أنقذهم من خسف فرعون . وفى عام ٥٨٦ق.م غزا بختنصر ملك آشور وبابل فلسطين واستولى على أورشليم وأحرقها وهدم هيكل سليمان وأسر أهلها وأرسلهم إلى بابل مكبلين . وحين إستولى الفرس على بابل سمحوا لليهود بالعودة إلى أرض كنعان فأقاموا فيها حكومة خاصة تخضع للفرس، ثم جاء الرومان فاستولوا على فلسطين وحدثت بينهم وبين اليهود نزاعات دينية فأمر الامبراطور « أدريانوس » بتدمير أورشليم سنة ١٣٥م فكانت نهاية اليهود فى فلسطين وحين جاءت الفتوحات الإسلامية إلى هذه المنطقة سقط بيت المقدس فى أيدى المسلمين وظلت فلسطين إسلامية عربية .

الحركة الصهيونية :

الصهيونية كلمة أشتقت من لفظ صهيون نسبة إلى جبل صهيون

---

* سورة قريش .

الواقع شرقى مدينة القدس القديمة، ويقال إنه اسم كنعانى الأصل ورد ذكره فى التوراة والإنجيل . ويهدف اليهود من إختيار هذا الاسم إلى إثارة الشعور العنصرى والدينى لدى يهود العالم وكسب تأييد وتعاطف العالم الغربى المسيحى .

والصهيونية بمعناها الخاص تعتقد فى ضرورة تكوين مجتمع يهودى يحكم فلسطين وتتحقق من خلاله آمال اليهود فى العودة إلى الأرض المقدسة .

أما الصهيونية فى معناها العام فهى حركة سياسية تستند فى أصولها إلى الفكر الصهيونى النابع من عقائد التوراة وشرائع التلمود، كما أنها تستمد حيويتها من إرتباط الفكر اليهودى بعقائد دينية وعنصرية ثابتة فى أذهانهم . وعلى هذا النحو أصبحت الصهيونية حركة سياسية واضحة المعالم تستند على أيديولوجية ثابتة ترمى إلى تجميع شتات اليهود فى فلسطين وإنشاء دولة يهودية ، وليست تعبيراً عن طائفة دينية .

ولم تكن الصهيونية وليدة القرن التاسع عشر كما يذهب الكثيرون ولكنها فكرة قديمة تمتد جذورها التاريخية منذ السبى البابلى عام ٥٨٦ق.م فمنذ ذلك الوقت راحو يضعون فكرة العودة إلى صهيون ويرددون هذه الفكرة فى صلواتهم وأناشيدهم التى نظموها فى مسباهم فى بابل، فهى فكرة قديمة إلا أن الشكل الأخير لهذه الحركة كان قد تبلور فى القرن التاسع عشر لتأخذ الحركة طابعاً سياسياً منذ عقد المؤتمر الأول للصهيونية فى أواخر القرن التاسع عشر .

ويعتبر تيودور هرتزل المنظم الفعلى للحركة الصهيونية حيث صاغ أفكارها من خلال حركة سياسية ذات طابع عالمى فأنشأ فى عام ١٨٩٧ مجلة أسبوعية أسماها (العالم) كانت بمثابة الصحيفة الرسمية الناطقة باسم الحركة الصهيونية . وفى ٢٩ أغسطس عام ١٨٩٧ سعى هرتزل إلى

عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة « بال » بسويسرا والذى حضره ما يقرب من مائتى عضو من جميع أنحاء العالم لوضع ميثاق للحركة، وراح هرتزل يخطب فى المؤتمرين قائلاً : « إننا إجتمعنا هنا لكى نضع الحجر الأساسى للمأوى الذى سيضم الشعب اليهودى » .

وقد حدد المؤتمر الأول الصهيونى عدة خطوات لتحقيق هذا الهدف مثل اتباع الوسائل العملية لإنشاء مستعمرات زراعية وعمرانية فى فلسطين، وتنظيم جماعات الهجرة عن طريق المنشآت المحلية والدولية، وتقوية الروح القومية اليهودية، والإقدام على خطوات جديدة للإستفادة من تنافس الدول ومساعداتها لتحقيق هدف الصهيونية .

وفى محاولة من الصهيونية لكسب تأييد الدول والحكومات لتحقيق هدفهم سعى هرتزل حثيثا نحو المانيا وقابل الأمبراطور الألمانى « ولهلم » فى استانبول فى الثامن عشر من أكتوبر عام ١٨٩٨ الذى قرر عقد اللقاء فى القدس فى الثانى من نوفمبر من نفس العام . وحاول هرتزل إقناعه بالتوسط لدى السلطان العثمانى لإقناعه فى الحصول على تصريح بإقامة شركة يهودية تحت حماية المانيا . ويبدو أن الأمبراطور ولهلم لم يلق بالاً لمشروعات هرتزل التى كانت تتجاوز القدرات الألمانية . وظلت المانيا حتى ١٩١٤ لاتبدى اهتماماً للأفكار الصهيونية رغم إصطباغ الصهيونية بالصبغة الألمانية من حيث وجود شخصيات بارزة من اليهود الألمان، وصدور قرارات المؤتمرات الصهيونية باللغة الألمانية بالإضافة إلى وجود مقر اللجنة التنفيذية فى كولونيا منذ عام ١٩٠٥ وانتقاله إلى برلين عام ١٩١١[١] .

كذلك فقد فكر هرتزل فى الإتصال بالسلطان عبد الحميد الثانى للحصول على موافقته فى الهجرة إلى فلسطين والحصول على ضمانات قانونية لمنح اليهود إستقلالاً ذاتيا فيها . وحاول هرتزل إغراء السلطان

(١) عمر عبد العزيز : المرجع السابق . ص ٥٩٨

بتقديم معونة مالية لاسيما وأن الدولة العثمانية كانت تعيش وضعاً مالياً سيئاً، فقد بلغ العجز فى الميزانية العثمانية للعام المالى عام ١٨٧٥ خمسة ملاين ليرة عثمانية، كما بلغت ديون الدولة ثلاثمائة مليون ليرة، وقيمة الفوائد أربعة عشر مليون ليرة [١] .

وأمام إستمرار تدنى الأوضاع المالية العثمانية راح اليهود وعلى رأسهم هرتزل يطلبون من السلطان عبد الحميد الثانى أرضا فى فلسطين لتوطين اليهود مقابل أموال طائلة لكنه رفض بشدة، ونصح اليهود أن يحتفظوا بملايينهم [٢] .

وكان اليهود قد اقترحوا على السلطان عبد الحميد أن يبيعهم (المزارع السلطانية) الواقعة على ساحل فلسطين أو تأجيرها لهم لمدة تسعة وتسعين عاماً لكن السلطان عبد الحميد رفض تماما ، وعقب هذا الرفض خرج الوفد الصهيونى ليقول المتحدث باسمه وهو المحامى اليهودى (إيمانويل قراصو) لكبير أمناء القصر بأنه سوف يأتى هنا مرة أخرى ليقوم بدور آخر مختلف، وقد حدث بالفعل أن كان إيمانويل قراصو ضمن وفد (الاتحاد والترقى) الذى أبلغ السلطان عبد الحميد قرار خلعه ! [٣] .

ولم يكف هرتزل عن سعيه لإقامة الوطن اليهودى فاتصل برجالات السياسة البريطانيين لاسيما جوزيف تشمبرلين وزير المستعمرات البريطانية والذى عرف عنه معاداته للسامية وكان يتمتع بنفوذ واسع داخل الحكومة البريطانية، فطلب هرتزل من أحد وسطائه أن يبلغوا تشمبرلين رغبته فى كسب تأييده لإقامة وطن يهودى داخل الممتلكات

---

(١) محمد حرب : المرجع السابق . ص ٥١ ، انظر أيضا : مذكرات السلطان عبد الحميد . ترجمة محمد حرب . ص ١٣٩ .
(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : المصدر السابق . ص ١٤١
(٣) نفس المصدر . ص ١٤٢ ، ١٤٣

البريطانية وحبذا لو كان فى قبرص أو شبه جزيرة سيناء المصرية لكنه فشل فى مسعاه .

هرتزل والدولة اليهودية :

وربما يكون من المفيد أن نشير هنا إلى بعض الخطط والمرتكزات التى أصبحت دليل عمل للحركة الصهيونية، ومن بينها تلك الأفكار التى رسمها ثيودور هرتزل فى كتابه (الدولة اليهودية) .

ظهرت فكرة هذا الكتاب عند هرتزل فى منتصف عام ١٨٩٥ ، وقام بتسجيل أفكاره فى نهاية هذا العام ، ثم نشره فى فبراير من عام ١٨٩٦ .

وتعتبر فكرة هرتزل الاستراتيجية بسيطة جدا فى بدايتها والتى لخصها فى العبارة التالية ، فلنمنح السيادة على جزء من الأرض يكفى للإحتياجات الحقيقية لأمة، وسوف نتكفل بالباقى ، [١] .

ورغم الملاحظات التى أوردها بعض الدارسين حول إنعكاس ثقافة هرتزل القانونية والمسرحية على صياغة أفكاره ، فإنه نجح فى عرض تصوراته حول الدولة اليهودية المستقبلية، وإثارة عدة أفكار كبرى مثل اللغة، والقوانين، والجيش، وانشاء الجمعية اليهودية، والشركة اليهودية، وشراء الأراضى، والاعتداد بالملكية الخاصة لتكون أساساً إقتصاديا نحو الإستقلال . وراح هرتزل يتحدث عن المهاجرين وطريقة نقلهم، والمساكن التى يجب أن تبنى للعمال وخاصة الفئات الفقيرة منهم فى وطنهم الجديد وضرورة ضمان الشركة اليهودية لسلامة المبانى .

إن أهمية هذا الكتاب تكمن فى أنه نقل المسألة اليهودية من قضية محلية خاصة باليهود فى البلدان التى كانوا يعيشون فيها سواء فى روسيا أو المانيا أو غيرها إلى قضية سياسية . كذلك فإنه قضى على عزلة اليهود

---

(١) انظر : الدولة اليهودية . ترجمة محمد يوسف عدس ، مراجعة د . عادل غنيم ص ٦

واتكفائهم على أنفسهم وشتاتهم وجعل منهم شعباً يتحدث عن دولة بعد أن كانوا يعيشون كأقلية داخل البلاد التى سكنوها . وهكذا أصبح هذا الكتاب دليل عمل للحركة الصهيونية حدد لهم معالم الطريق للوصول إلى هدفهم المنشود فى إقامة دولة يهودية خاصة بهم [١].

بروتوكولات حكماء صهيون :

ومن الخطط التى رسمها اليهود ما سمى ببروتوكولات حكماء صهيون. ولا نريد أن نقف طويلا عند مسألة صحة هذه البروتوكولات من عدمه حيث تشير الدلائل إلى صحتها، لأنهم نشطون فى تنفيذ محتوياتها على نطاق عالمى، ويكفى أن حاييم وايزمان الزعيم الصهيونى وأول رئيس لدولة اسرائيل لم ينكرها بل قال : « إن بروتوكولات حكماء صهيون هى المؤامرة اليهودية السرية للتسلط على العالم [٢] ».

ومما يدعو إلى إعادة النظر فى قراءة هذه البروتوكولات قراءة جديدة أن اليهود والصهيونية نشطون فى تنفيذ الأفكار التى حوتها هذه البروتوكولات حرفا حرفا ولا يحيدون عنها قيد أنملة ضاربين عرض الحائط بكل نداءات السلام ومؤتمراته . بحيث أصبح العرب الآن أمام ما يمكن أن نطلق عليه « ورطة عالمية » . فالعرب والفلسطينيون مدوا يد السلام ولكن مفهوم السلام بدا مختلفاً عند اليهود، فلابأس عندهم من الجلوس مع العرب أمام وسائل الإعلام ومنحهم كلمات جوفاء مقابل قطف ثمار السلام . وفى المقابل راح اليهود ينفذون خطط الآباء أو الحكماء التى وضعوها منذ القرن التاسع عشر بكل دقة.

تتكون هذه البروتوكولات من أربعة وعشرين بروتوكولاً، وكل بروتوكول يحوى فكرة أو عدة أفكار فى مخطط دولتهم العالمية وكلها أفكار

---

(١) المصدر السابق ص ٧ - ٩

(٢) الموسوعة الفلسطينية . المجلد الأول - تأليف العميد عبد الرازق محمد أسود . ص ٨٧

تدمـيـرية، فـهى تتـحـدث عن القـوة وارتبـاطـهـا بالحق، وعن الازمـة الإقـتـصـادية العـالميـة، والمحـافل الماسـونيـة والتـسلح والعنف ومـبـرراته، والدعـاية وكـيف يعـالجـهـا اليـهـود، وتـدمير الأبنيـة الحـاضرة والتـمـهـيد للإستـبداد، والصـحـافة وكيـفيـة السيطرة عليـهـا وتكمـيم أفـواههـا، وألغاء الديانات غير اليهودية، وغير ذلك من الأفكار الهدامة .

وسوف نركز هنا على الأفكار التالية :

١- العنف والتسليح .

٢- الماسونية طريق خفى للسيطرة اليهودية .

٣- الإعلام .

٤- الإقتصاد والمال .

٥- الأديان .

اولا بروتوكولات صهيون والعنف :

جـاء فى البـروتـوكـول الأول « إن الحق للقـوة وأن العـنف هو الأصل، وأن الخـداع والمكر همـا الطريقـة التـى تسير عليـهـا الحكـومات، وأن الشر هو الوسيلة الوحـيدة لبلوغ الخيـر » كذلك فقد ورد فى نفس البـروتـوكـول « إن أفضل طريقة للحكم هو العنف والإرهاب وليس النقاش الأكاديمى »[1].

وإذا حـاولنا أن نؤكـد تلك النصوص المقتـبسة من البروتوكـول الأول بأمثلة واقـعيـة فى مسيرة الصهيونية واليـهود الدموية فلسوف نجدها حافلة بالأمـثلة إلى درجة أن المرء ليقع فى حيرة من جراء تزاحم جـرائم العنف الصـهـيـونـى . وإذا أردنا أن نؤرخ للإرهاب فى العـالم فـعلينا أن نبـدأ بالمنظمات اليهودية الصهيونية . ومن هذه المنظمات منظمة « السيكارى » التى تعـد أول منظمة إرهابيـة يهودية إستـخـدمت القتل والإغـتـيـال . وقد

(١) إحسان حقى : بروتوكولات حكماء صهيون (مترجم) دار النقاش . بيروت ، ١٩٩٠ ص ٣٢ .

ظهرت قبل ميلاد المسيح (٧٣ - ٦٦ ق.م) وضمت جماعات من المتطرفين عرفوا دينيا باسم (زيلوت) ، وكان تأسيسها بالقدس واستعملت الخلايا السرية .

وهناك منظمة (هاجاناه) أرجون هاجاناه هفرى أو منظمة الدفاع العبرية التى تأسست فى عام ١٩٢٠ ، وكانت منظمة عسكرية ليهود فلسطين وشاركت فى حرب عام ١٩٤٧ / ١٩٤٨ بستة ألوية، وكانت المهمة الرئيسية للهاجاناه هى إحتلال أكبر قسم من فلسطين العربية حتى خارج حدود التقسيم، ثم تحولت هذه المنظمة بعد إعلان قيام إسرائيل إلى جيش نظامى . ومن أبرز أعمالها الارهابية مذبحة الرملة فى يونية عام ١٩٤٨ ، ومذبحة (الدوائمة) بقيادة موشى دايان فى ٢٨ - ٢٩ أكتوبر عام ١٩٤٨ . ولم يقتصر نشاط هذه المنظمة ضد الفلسطينيين بل امتد إلى السلطات البريطانية فى فلسطين .

ومن منظماتهم أيضا منظمة (إيتسل) التى تأسست عام ١٩٣٧ فى مدينة القدس، وهى منظمة منشقة عن الهاجاناه إنتهج زعماؤها خطا عسكرياً إرهابيا متطرفا ضد العرب ومؤسسات الإنتداب البريطانى . ومن أشهر جرائمها - بالاشتراك مع منظمة أرجون - مذبحة ديرياسين فى التاسع من ابريل عام ١٩٤٨ ، وعملية نسف فندق الملك داود فى القدس بهدف إتلاف الوثائق السرية التى صورت من مبنى الوكالة اليهودية والتى تؤكد تورطها فى النشاطات الارهابية التى تقوم بها الهاجاناه وبعض المنظمات الأخرى .

وهناك منظمة (شتيرن) التى أسسها الإرهابى إبراهام شتيرن فى أعقاب إنفصاله عام ١٩٤٠ عن منظمة إيتسل ومن أشهر أعمالها إغتيال اللورد موين Moyne الوزير البريطانى المفوض فى الشرق الأوسط لرفضه التواطؤ مع هذه العصابات لتحقيق مطالبها فى فلسطين .

وهناك منظمة (ما عتس) ظهرت فى السبعينيات واتخذت من تل أبيب مقراً لها، وحركة « كاخ» بزعامة مائير كاهانا الذى يعد ابرز

الشخصيات الدينية والسياسية والصهيونية فى حقبة الثمانينيات . ويعد كاهانا مسئولاً عن تجميع الحركات المنادية بهدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل مستخدماً كل الوسائل الإرهابية من تهديد بالقتل وإغراء بالمال . ومن جرائمه محاولة اقتحام المسجد الأقصى فى الحادى عشر من أبريل عام ١٩٨٢ واصابة الكثيرين بالرصاص . وقد تم اغتيال كاهانا فى الولايات المتحدة عام ١٩٩١ . واستمراراً لتعاليم كاهانا جرت مجزرة الحرم الإبراهيمى فجر يوم الجمعة ١٥ من رمضان عام ١٤١٤ هـ (٢٥ فبراير عام ١٩٩٤) حين ارتكب أحد المتطرفين اليهود ويدعى (جولد شتين) مذبحة بشعة راح ضحيتها نحو تسعين شهيداً كانوا داخل الحرم يؤدون صلاة الفجر .

ويتواصل الإرهابى الصهيونى فى كل مكان من أرض فلسطين ولبنان وغيرهما، وهذا المسلسل الأرهابى المستمر لا يرتبط بمسئولية فردية وحسب بل تقع المسئولية فى تقديرنا على عاتق الحكومة الإسرائيلية التى ترعى الإرهاب وتسلحه وتحميه وتسهل لليهود الإقامة فى المستوطنات فهى إذن شريك أساسى فى الجرائم الارهابية ومنفذ أمين لبروتوكولات حكماء صهيون . ولعل ما يحدث الأن ضد الشعب الفلسطينى من قتل وتشريد وتدمير للمنازل ليؤكد تماماً ما ذهبنا إليه ؛ فالدبابات الإسرائيلية المتطورة، وطائرات الأباتشى تقذف حممها يوميا على الشعب الأعزل من كل سلاح سوى سلاح الحجارة اثناء اجتياحها لأراضى الضفة الغربية فى مارس – ابريل عام ٢٠٠٢ .

إن هذا المسلسل الدموى الصهيونى – فى تقريرنا – لن تتوقف حلقاته لأنه مرتبط بركنين أساسيين :

الأول : دينى توراتى النزعة يدعو إليه الحاخامات اليهود بشكل بعيد تماماً عن روح الأديان السماوية .

الثاني : فكرى يتمثل فى بروتوكولاتهم التى وضعوها من عشرات السنين، وهى تحثهم على تدمير كل ما هو غير يهودى .

وفيما يتعلق بالتسليح فقد اعتبرته البروتوكولات أداة رئيسيه لتنفيذ العنف . فقد جاء فى البروتوكول السابع « إن تدعيم التسلح وزيادة القوى البوليسية هما العاملان الرئيسيان لتحقيق المخطط ... وانه من اللازم ألا يكون فى أى بلد من البلدان أحد خارج عنا إلا جماهير العمال وبضعة أصحاب ملايين مخلصين لنا وشرطة وجيش »[١] .

تلك هى الخطة والهدف العسكرى الذى رسمه حكماء صهيون ليسير عليها الأبناء . وعلى هذا النحو راحت إسرائيل تمتلك ترسانات هائلة من الأسلحة، فهى تمتلك سلاحاً نوويا تهدد به دول المنطقة وترفض الانصياع لأى نداءات دولية للتوقيع على إتفاقية حظر إستخدام هذا السلاح فى الحرب . وإلى جانب الأسلحة النووية تمتلك إسرائيل كميات هائلة من كافة الأسلحة المتطورة، فلديها مئات الرؤوس النووية وأعداد هائلة من الأفراد النظامين والإحتياطى، ومئات الطائرات المتنوعة، وآلاف الدبابات المتطورة والمدافع . وهكذا ندرك من خلال هذا الكم الهائل والمتنوع من الأسلحة أن إسرائيل قد ارتكزت فى مفاهيمها على القوة والقوة فقط وفقا لتعاليم حكماء صهيون .

ثانيا: الصهيونية والماسونية :

أما علاقة الصهيونية واليهود بالماسونية فتبدو جلية فى البروتوكول الرابع الذى جاء فيه « .... والماسونية تقوم مقام حجاب لإخفاء أهدافنا والتمويه عليها، ولكن مخطط عمل هذه السلطة ومركزها الرئيسى يظلان دائما غير معلومين من الشعب » .

---

(١) إحسان حقى : المرجع السابق ص ٥٩ .

وإذا كان اليهود قد أمعنوا فى السرية لإخفاء الماسونية فإنهم أقاموا هيئات أخرى علنية تؤدى مهامها تحت ستار الإخاء الإنسانى وأسموها أندية « الروتارى » التى تأسست فى شيكاغو عام ١٩٠٤ بهدف إمتزاج اليهود بالشعوب الأخرى للوصول إلى جميع المعلومات التى تساعدهم فى تحقيق مآربهم . وقد حرصت المحافل الماسونية أن تضم إلى صفوفها كل أصحاب النفوذ فى العالم خدمة لأهدافها . فقد ورد فى البروتوكول الخامس عشر « ... سنجلب إلى هذه المحافل كل أولئك الذين هم زعماء الشعوب أو يمكن أن يكونوا كذلك لأن هذه المحافل ستكون المصادر الرئيسية لا ستخباراتنا ومنها يأتى نفوذنا ...» .

ومن الإنصاف أن نشير إلى أن معظم إن لم يكن كل ماسونى البلاد العربية والإسلامية لا يعرفون هذه الحقائق الخفية، بل توقفوا عند الدور الإنسانى المعلن لهذ الأندية .

ثالثا : بروتوكولات صهيون والإعلام :

أدرك اليهود خطورة وسائل الاعلام فقرروا السيطرة عليها تماماً . وقد جاء فى البروتوكول الثانى عشر مايلى . « أما الصحافة فإليكم ما سنفعل بها.... سوف نقيدها بالأغلال ونقبض على ناصيتها بإحكام ونعمل مثل ذلك فى غيرها من المطبوعات » . كذلك فقد جاء فى هذا البروتوكول « لا تنسوا أن من بين صحف المعارضة ستكون صحف نصدرها نحن ولكنها تهاجم الأخطاء التى من صالحنا أن تزال . ولا يمكن أنْ ينشر خبر أو اعلان بغير إذننا ... وسوف تكون وكالات الأنباء فى قبضتنا ولن تذيع من الأخبار إلا ما نسمح بنشره » ، ويمضى البروتوكول قائلاً « إنه من الضرورى إن تتنوع ميول هذه الصحف التى

ينبغى السيطرة عليها، فالبعض تكون أرستقراطية، والأخرى جمهورية أو ثورية أو حتى فوضوية ، [١] .

وتطبيقا لتعاليم البروتوكولات راح اليهود يسيطرون على الصحافة العالمية . ففى بريطانيا تبرز صحيفة ، التايمز ، كواحدة من أشهر الصحف البريطانية التى ظهرت عام ١٧٨٨ والتى بذل اليهودى البريطانى ، روتشيلد ، أموالاً طائلة لتظل تحت نفوذهم إلى أن جاء المليونير اليهودى الأسترالى الجنسية روبرت ميردوخ ليشتريها . وامتلك ميردوخ كذلك صحيفة (الصنداى تايمز) وغيرها . وهناك إحصائية نشرت عام ١٩٨١ تشير إلى أن مجموع ما توزعه يوميا خمس عشرة صحيفة ومجلة بريطانية واقعة تحت السيطرة الصهيونية قد بلغ حوالى ٣٣ مليون نسخة [٢] .

ولليهود يد على الصحافة الأمريكية مثل صحيفة ، نيويورك تايمز ، التى اشتراها اليهودى (أدولف أوش) عام ١٨٩٦ ، وصحيفة بالإضافة إلى ، الديلى نيوز ، و ، والنيويورك بوست ، و ، صن تايم ، . كذلك فقد سيطر اليهود على شبكات التليفزيون الأمريكى مثلABC وCBS و CNNغيرها.

وفى فرنسا سيطر اليهود على مجلة الاكسبريس وصحيفتى ، لوفيجارو ، و ، لوكوتيديان ، ، فقد تبنت هاتان الصحيفتان ، على سبيل المثال، وجهة النظر الصهيونية اثناء الغزو الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ ودافعتا بضراوة عن مواقف الصهيونية ازاء المجازر فيى صابرا وشاتيلا

وشنتا حملة عنيفة ضد صحيفتى ، لوماتيه ، و ، ليبراسيون ، لأنهما تجرأتا ونشرتا حقائق عن هذه المجازر تؤكد ضلوع إسرائيل فيها .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد سيطر اليهود سيطرة شبه تامة على

---

(١) إحسان حقى : المرجع السابق ص ٧٧ - ٨٠ .

(٢) فؤاد سيد الرفاعى : النفوذ اليهودى فى الأجهزة الاعلامية والمؤسسات الدولية . ص ١٤-١٩ .

شركات الإنتاج السينمائى خاصة فى أمريكا، كما سيطروا على المسارح ولاسيما المسرح الملكى البريطانى .

رابعا : بروتوكولات صهيون والمال .

وفيما يتعلق بسيطرة اليهود على شئون المال فهو أمر معروف وهى لغتهم التى يجيدونها . وقد جاء فى البروتوكول الثامن « .... إننا سنحيط حكومتنا بجيش من الإقتصاديين، ولذا فإن علم الإقتصاد اليساسى هو العلم الرئيسى الذى يعلى اليهود بتعلمه، وسنكون محوطين بجماعات كثيرة من أصحاب المصارف والتجار والأغنياء وخاصة أصحاب الملايين لأن كل شئ سوف يحل بصورة جوهرية بالأرقام » [1] ..وبناءً على ذلك راح اليهود يسيطرون على أسواق المعاملات التجارية والمال فى العالم . ففى عام ١٨٧٨ أقدم أصحاب المصارف فى الولايات المتحدة على سحب المزيد من السيولة وعلى تحديد القروض الممنوحة مما تسبب فى ١٠,٤٧٨ حالة إفلاس تجارى ومصرفى فى البلاد ، وقد سارع الكونجرس عام ١٨٧٩ إلى اصدار كميات كبيرة من العملات لوقف الأزمات الخانقة المصطنعة .

وفى سبيل الإثراء الفاحش لا يتورع اليهود عن إشعال الحروب . فقد كانت فرنسا عام ١٩١٤ مستعدة للصلح بيد أن شركات مورجان أقنعت الجنرالات الفرنسيين برفض المصالحة وعقد الهدنة مما جعل آل مورجان يحققون مكاسب مالية طائلة أكثر مما حققوه طوال تاريخهم التجارى . كذلك فقد كانت الصحافة اليهودية صريحة فى إعلانها أن الحرب العالمية الثانية لابد أن تعلن دفاعاً عن أسس اليهودية، وعلى هذا النحو مارس اليهود سلطتهم القوية فى إجبار حكومة الرئيس فرانكلين روزفلت على الزج بأمريكا فى الحرب العالمية الثانية ، وكان على رأس هؤلاء

---

(١) إحسان حقى : المرجع السابق ص ٦٢ .

اليهود برنارد باروخ مستشار روزفلت للشئون الإقتصادية والذى كان يطلق عليه ملك أمريكا غير المتوج أو « دزرائيلى أمريكا » [١] .

ويذكر أحد الباحثين بأن الاجتياح الإسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ كانت تحركه دوافع إقتصادية تتمثل فى ضرب البنية التحتية للإقتصاد اللبنانى، وإضعافه لتسهيل عملية إختراقه سواء عن طريق ضرب السياحة اللبنانية أو اغراق الأسواق اللبنانية بالبضائع الإسرائيلية، واخيراً مصادرة دور لبنان المالى لتحل إسرائيل محلها فى المنطقة [٢] .

خامسا: بروتوكولات صهيون والأديان :

ولم تسلم الأديان من تسلط اليهود فقد جاء فى البروتوكول الرابع « ... بفضل الإيمان يمكن قيادة الشعب على أيدى علماء الدين الروحيين، ويمكن للشعب أن ينعم بهدوء فى الطاعة بإدارة رؤسائه الروحيين وذلك بقبول القواعد التى سنها الله فى الأرض، ولذا يجب علينا أن نقضى على كل الأديان وأن ننتزع من قلوب الكوييم الإعتقاد بالله وبالروح وأن نحل محلها صيغاً حسابية وحاجات مادية ...» [٣] . كذلك فقد جاء فى البروتوكول الرابع عشر : « ... عندما نغدو سادة لن نترك ديناً قائماً غير ديننا القائل بالإله الواحد الذى يرتبط به مصيرنا لأننا نحن شعب الله المختار .... » [٤] .

وبناءً على هذه الخطة التى رسمها اليهود فى بروتوكولاتهم راحوا يحاربون كافة الاديان وعلى رأسها المسيحية والإسلام . ففى عام ١٨٩٩ - ١٩٠٠ حاول اليهود حذف كلمة « مسيحى » من لائحة حقوق الإنسان التى أعدتها ولاية « فرجينيا » . وفى ١٩٠٦ - ١٩٠٧ بعث يهود

(١) G. F. Green ; The international Jew . London , 1948 .P. 153

(٢) عبد الفتاح الجبالى : مستقبل الأقتصاد اللبنانى . السياسة الدولية . العدد رقم ٧٤ ص ١٨-١٩ .

(٣) إحسان حقى : المرجع السابق . ص ٥٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٦ .

« أوكلوهاما » بعريضة إلى المؤتمر الدستورى للولاية يحتجون فيها على إستخدام كلمة « مسيحى » فى الدستور الجديد الذى كان فى طور الإعداد . وفى عام ١٩٠٨ سارع الحاخامات اليهود بالاشتراك مع المطبوعات اليهودية فى الحملة على بيان قاضى المحكمة العليا الذى قال : إن هذه البلاد مسيحية [١] .

أما صور محاربة اليهود للإسلام فكثيرة ويصعب إحصاءها ولكن تكفى الإشارة إلى بعض منها . ففى العاصمة البلجيكية بروكسل تم طبع سورة (مريم) وأول سورة (البقرة) على ورق التغليف ليستعملها أحد اليهود فى محلاته. وفى محلات (مارك سبنسر) اليهودى فى لندن انتجت ملابس داخلية طبعت عليها عبارة « لإله الا الله » . وفى فلسطين أصدرت محكمة يهودية فى القدس حكما بفرض غرامة مالية على مؤذن مسجد الشيخ جراح بالقدس بعد إدانته بتهمة رفع صوته فى أذان الفجر .

من ذلك كله يحق لنا ان نتساءل هل اختلفت أو تغيرت بتغير الزمن الأفكار التى وردت ضمن هذه البروتوكولات فى الوقت الحاضر وهل أقلع اليهود عنها ؟ .

---

(١) هنرى فورد : اليهودى العالمى . بيروت . دار الآفاق . ص ١٩٩ .

فلسطين تحت الإنتداب :

وفى اعقاب إستيلاء اللنبى على بيت المقدس فى السابع من ديسمبر عام ١٩١٧ واحتلال فلسطين كلها فى سبتمبر عام ١٩١٨ دخلت البلاد تحت إدارة عسكرية عرفت باسم « الإدارة الجنوبية لبلاد العدو المحتلة » وأعلن البريطانيون انها أجراءات مؤقتة تنتهى بانعقاد مؤتمر الصلح، إلا أن مؤتمر سان ريمو الذى عقد فى إيطاليا فى الخامس والعشرين من أبريل عام ١٩٢٠ وافق على تعيين بريطانيا دولة منتدبة على فلسطين قبل أن يتم إعلان صك الإنتداب رسميا من جانب عصبة الأمم فى ٢٤ يوليه عام ١٩٢٢، واعلنت بريطانيا إنتهاء الحكم العسكرى واستبداله بحكم مدنى، وعينت أول مندوب سام لها فى فلسطين يدعى السير هربرت صمويل Herbert Samuel.

وقد جاء صك الإنتداب محققاً لمطلب هام من مطالب الصهيونية حين نص فى مادته الثانية على مسئولية الدولة المنتدبة فى وضع البلاد فى أحوال سياسية وإدارية لضمان إنشاء وطن قومي لليهود . كذلك فقد اعترف فى المادة الرابعة بدور كل من الوكالة اليهودية والجمعية الصهيونية فى إبداء المشورة لإدارة فلسطين والتعاون معها فى الشئون الإقتصادية والإجتماعية واتخاذ التدابير اللازمة فى الحصول على معونة اليهود لأنشاء وطن لهم، كما اعترف صك الإنتداب فى مادته السادسة على أن تقوم إدارة فلسطين بتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين . وفى المادة الثانية والعشرين تقرر ان تكون الانجليزية والعربية والعبرية اللغات الرسمية لفلسطين [١] .

لقد جاء صك الإنتداب متحيزا إلى أبعد حد نحو اليهود، فجاءت بنوده الثمانية والعشرون لترسم تحقيق أحلام الصهيونية فى فلسطين، فلم

(١) عادل غنيم : المرجع السابق . ص ١٢٦ .

يرد فيها ذكر للعرب الا عند الإشارة إلى أن اللغة العربية هى واحدة من اللغات الرسمية الثلاث، والتلميح بكلمات غامضة إلى « السكان الأخرين » بفلسطين، ويقصد بهم العرب فى حين كان العرب آنذاك يمثلون اكثر من تسعين فى المائه من سكان فلسطين . لذلك كله جاء هذا الصك مخيباً لآمال الفلسطينيين فقرروا الإضراب فى ١٣ و ١٤ يوليه احتجاجاً على مشروع الإنتداب، وراحوا يخاطبون كل الجهات الرسمية وغير الرسمية ويرسلون البرقيات إلى ملوك المسلمين يطلبون إليهم الإحتجاج على صك الإنتداب، لكن أحداً لم يعرهم آذاناً صاغية ويتبنى قضيتهم [١] .

لقد قامت الإدارة البريطانية بعملية تهويد واسعة لفلسطين على يد هربرت صمويل فى كافة المجلات الإدارية والاقتصادية والثقافية والسكانية، فراح يعين اليهود على رأس الإدارات الحكومية وحتى كبار رجال الإدارة البريطانين فى فلسطين كانوا من ذوى الميول الصهيونية، ووضعت إدارة التشريع وإدارتا الهجرة والتجارة فى أيدى الصهيونية، وحصل اليهود على استقلال فى إدارة مدارسهم واشرك صمويل هربرت معه اللجنة الصهيونية التنفيذية فى إدارة شئون اليهود، وظلت شئون العرب تحت رحمة اليهود والبريطانيين . وساعد صمويل على نقل الملكية الأراضى إلى اليهود ومنظماتهم . وفى المقابل أصدر قوانيين بالحجز على أراضى العرب . كذلك فقد قامت الإدارة البريطانية بمنح الامتيازات لبعض الشركات اليهودية كشركة روتنبرج التى قامت باستغلال نهر الاردن وروافده وخاصة اليرموك فى توليد الطاقة الكهربائية وتوزيعها فى أرجاء فلسطين وشرقى الأردن، كما قامت نفس الشركة باستخراج الملح من البحر الميت لمدة طويلة من الزمن .

---

(١) عادل غنيم : المرجع السابق . ص ١٢٧ .

أما مسألة الهجرة فقد قام صمويل بفتح أبواب الهجرة أمام اليهود من كل أنحاء العالم فى محاولة لإيجاد أغلبية يهودية أمام عرب فلسطين تمكنهم من تحقيق حكم الوطن القومى اليهودى .

لم يتقبل الفلسطينيون هذه السياسة التى سارت عليها الإدارة البريطانية فى فلسطين والتى بدت واضحة فى تمكين اليهود من السيطرة على البلاد مما أدى إلى نشوب ثورة فى عام ١٩٢٠ أفضت إلى تكوين لجنة تحقيق عسكرية قامت بوضع تقرير أدان سياسة بريطانيا فى فلسطين . وفى مارس عام ١٩٢١ قامت ثورة فى يافا ضد اليهود والمستعمرات اليهودية واجهتها السلطات البريطانية بالعنف وتكونت لجنه تسمى بلجنه مايكرافت Maycraft لدراسة أسباب الاضطرابات التى ارجعتها إلى مساندة بريطانيا للصهيونية وعقب ذلك أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الإبيض لعام ١٩٢٢ أعلنت فيه إستمرارها فى تنفيذ سياسة الإنتداب والهجرة وطمأنت العرب بأن إقامة الوطن القومى اليهودى لا يعنى وضع فلسطين بكاملها تحت السيطرة اليهودية أو القضاء على الشعب العربى فى فلسطين، وانها بسبيل منح فلسطين شكلاً من أشكال الحكم الذاتى ودستوراً وانشاء مجلس تشريعى .

إضطرابات عام ١٩٢٩ في فلسطين :

فى عام ١٩٢٩ وقعت إضرابات وحوادث عرفت عند العرب باسم (حادث البراق)، وعند اليهود باسم (حادث المبكى) . واستمرت هذه الإضطرابات أسبوعين كاملين عمت فيها جميع أرجاء البلاد فى المدن الرئيسية وكثير من القرى ؛ فلم تكن كسابقتها متمركزة فى بعض المدن كالتى حدثت فى القدس عام ١٩٢٠ ويافا عام ١٩٢١ .

ويحد حائط البراق الحرم الشريف من الغرب وهو المكان الذى يعتقد المسلمون أن النبى محمداً (ص) قد عرج منه إلى السماء ليلة الاسراء وأن

البراق ربط فى الغرفة التى يدخل جزء منها فى الحائط الغربى . وحائط البراق هو فى ذات الوقت حائط المبكى عند اليهود وآخر آثار هيكل سليمان الذى دمره الرومان .

وبالرغم من أن هذا الحائط ملكية إسلامية فقد سمحت السلطات الإسلامية لليهود بزيارته والبقاء عند الرصيف الضيق أسفل الحائط، لكنها لم تقبل أن توضع أية مقاعد أو مناضد أو ستائر [١] .

وفى ١٥ أغسطس من نفس العام والذى وافق عيد الغفران عند اليهود خرج عدد من شباب اليهود من تل أبيب وتوجهوا إلى القدس للقيام بمظاهرة ومروا على دوائر الحكومة ثم اتجهوا إلى الحائط . وقد خالفوا أوامر السلطات التى حذرتهم من التظاهر أو رفع الأعلام أو السير على هيئة موكب عسكرى وترديد الأناشيد .

أثارت هذه المظاهرة وما صحبها من استفزازات مشاعر المسلمين فخرجوا فى اليوم التالى – وهو يوم جمعة ويوافق ذكرى المولد النبوى الشريف – فى مظاهرة من المسجد الأقصى تخللتها بعض الخطب وقلبت منضدة الشماس اليهودى وأحرقت بعض الكتب والصحائف الدينية لليهود.

وحين جرت هذه الإضطرابات عاد المندوب السامى البريطانى من إجازته إلى فلسطين ووزع منشوراً عاجلاً يبدو أنه لم يدرس بعناية حمل من خلاله العرب مسئولية هذه الاضطرابات وقام بتأجيل المباحثات المتعلقة ببعض التغييرات الدستورية فى البلاد . ولم ترحب اللجنة التنفيذية العربية بهذا المنشور، وأرسلت مذكرة إلى المندوب السامى استنكرت من خلالها هذا المنشور، كما احتجت ضده أغلب الهيئات الوطنية الأمر الذى دعا المندوب السامى البريطانى فى ٤ سبتمبر عام ١٩٢٩ إلى إصدر منشور ثان تراجع من خلاله عن المنشور الأول .

---

(١) عادل غنيم : المرجع السابق . ص ١٨٩ – ١٩٠ .

وبعد مضى أسبوعين من الإضطرابات قام اللورد باسفيلد وزير المستعمرات البريطانى بتعيين لجنة عرفت باسم لجنة شو Shaw للتحقيق فى الأسباب التى أدت إلى هذه الإضطرابات . وبالفعل وصلت هذه اللجنة إلى فلسطين فى الرابع والعشرين من أكتوبر عام ١٩٢٩ وظلت تؤدى مهمتها حتى السادس والعشرين من ديسمبر عقدت خلالها كثيراً من الجلسات العلنية والسرية .

إن الأسباب التى أدت إلى هذه الإضطرابات – فى نظر اللجنة – كانت تعود إلى المظاهرة التى قام بها الشبان اليهود فى الخامس عشر من أغسطس، وإلى أعمال جمعية حراسة الأماكن الإسلامية المقدسة وإلى أعمال لجنة الدفاع عن حائط المبكى اليهودى . وبالإضافة إلى ذلك اشارت اللجنة إلى الحرية التى منحت لبعض الصحف فى فلسطين عبرية كانت أم عربية، وإلى تحريض بعض الفئات غير المستنيرة من العرب .

وإضافة إلى ما سبق هناك عوامل ثانوية أدت إلى هذه الإضطرابات تمثلت فى نشاط الوكالة اليهودية، وضعف القوة العسكرية الموجودة فى فلسطين [١] . وقد أصدرت اللجنة عدة توصيات تمثلت فى ضرورة أن تصدر الحكومة البريطانية تصريحاً عن سياستها لتفسير الفقرة التى وردت فى صك الإنتداب المتعلقة بحقوق الطوائف غير اليهودية، وأن تصدر الحكومة تصريحاً واضحاً بشأن هجرة اليهود، وتقدم متخصصين حول الزراعة والأراضى السكنية، وتعلن بأن الهيئة غير مؤهلة للمشاركة فى حكومة فلسطين[٢] .

وفى أكتوبر عام ١٩٣٠ أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض الثانى الذى عرف باسم كتاب باسفيلد Pass field وزير المستعمرات البريطانى نص على الآتى :

---

(١) عادل غنيم : المرجع السابق . ص ٢٠١ – ٢٠٣ .
(٢) نفس المرجع . ص ٢٠١ .

١- عدم زيادة عدد السكان اليهود فى فلسطين عن سعتها الاقتصادية .

٢- انه لا توجد أراضى حرة خالية فى فلسطين للإستيطان اليهودى، ولا يمكن أن يتم استيطان لاحقاً إلا من خلال الأراضى الموجودة فى حوزة المنظمات الصهيونية .

٣- عدم إدعاء الوكالة اليهودية بحكم البلد .

٤- إن إنشاء « وطن قومى لليهود » لم يكن الهدف الرئيسى للإنتداب على فلسطين وان التزامات السلطة المنتدبة واحدة تجاه العرب واليهود .

ولم يحظ الكتاب الأبيض الثانى برضا الصهاينة فهاجموه وساندهم بعض الساسة البريطانيين ممن تعاطفوا معهم وعلى رأسهم تشرشل فعدلت الحكومة البريطانية عن هذا الكتاب وتم سحبه، وأرسل رمزى ماكدونالد خطاباً إلى حاييم وايزمان فى الرابع عشر من فبراير عام ١٩٣١ يفسر له هذا الكتاب الذى جاء تفسيره فى صالح اليهود، لذا فقد أسمى العرب هذا الكتاب « الكتاب الأسود » وعادت المشكلة سيرتها الأولى، وراح اليهود يكثرون من الهجرة وشراء الأراضى وإنشاء حرس للمستعمرات، وحاميات عمالية صهيونية لمنع العرب من العمل فى المزارع والمؤسسات الصهيونية .

ونتيجة لكل هذا قام الفلسطينيون بمظاهرات واضطرابات فى عام ١٩٣٣ انطلقت من القدس ويافا وشاركهم فيها بعض الوفود من الأقطار العربية فى سوريا وشرقى الأردن . ويبدو أنه خلال هذه الفترة قد تفاقم أمر الهجرة اليهودية إلى فلسطين فبلغ عدد المهاجرين حوالى ٦٢ الفاً خلال عام ١٩٣٥ ، ناهيك عن الذين دخلوا البلاد بوسائل سرية رغم المحاولات التى بذلها العرب لوقف هذه الهجرة لاسيما عن طريق البحر .

وأمام هذه الهجرة المحمومة من جانب اليهود وإغماض بريطانيا لعينيها عن تسلح اليهود شعر العرب بضرورة القيام بتحرك إزاء هذه

المخاطر فظهرت أول محاولة فدائية تزعمها عز الدين القسام * الذى اتخذ من حيفا قاعدة لنضاله، وانضم إلى جمعية الشبان المسلمين وتولى رئاستها عام ١٩٢٦ .

قام الشيخ عز الدين القسام بتكوين عصبة سرية حملت على عاتقها المقاومة المسلحة ضد بريطانيا والصهيونية . وكانت حركته تقوم على فكرة الجهاد المقدس وأن القوة وحدها هى التى يمكنها منع بريطانيا من الإستمرار فى مشروع إقامة الوطن القومى لليهود .

والجدير بالذكر أن حركة القسام لم تكن مرتبطة بالأحزاب أو حتى القيادات الفلسطينية القائمة فى ذلك الوقت ربما لعدم إيمان هذه القيادات بالاسلوب الذى كان ينتهجه القسام . ولما كان نشاطه يقتصر على شمالى فلسطين فقد بعث إلى الحاج أمين الحسينى يخبره بعزمه على إعلان الثورة فى الشمال طالبا إليه إعلانها فى جنوبى فلسطين فكان رد الحسينى بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل وأن الجهود السياسية كافية لحصول عرب فلسطين على حقوقهم الأمر الذى يشير إلى أن الزعامة الفلسطينية لم تكن تؤمن فى ذلك الوقت باسلوب العمل العسكرى المسلح .

وفى ١٤ نوفمبر عام ١٩٣٥ إشتبك أتباع الشيخ عز الدين مع قوة بريطانية فى أحراش بلدة « يعبد » وحدثت معركة استشهد خلالها القسام مع مجموعة من أتباعه بعد أن ضرب مثلاً رائعاً فى البطولة والكفاح وبرهن على أن لغة القوة هى اللغة الوحيدة التى يفهمها العدو . وهكذا كانت حركة القسام الشرارة الأولى التى أشعلت المقاومة المسلحة ضد سلطات الإنتداب البريطانى والأهداف الصهيونية .

---

* ولد عز الدين القسام فى جبلة الواقعة قرب اللاذقية عام ١٨٧١ وتعلم بالأزهر الشريف على يد الشيخ محمد عبده، وشارك فى ثورة صالح العلى ضد الفرنسيين شمالى سوريا عام (١٩٢٠ - ١٩٢١) لكن حكم عليه بالاعدام ففر إلى حيفا وعاش بها ، واضطلع بدور تعليمى بارز بالإضافة إلى دوره الوطنى المعروف إلى أن استشهد .

ثورة فلسطين الكبرى (١٩٣٦ - ١٩٣٩) :

إندلعت هذه الثـورة فى فلسطين ضـد الإسـتـعـمـار البـريطانى والصهيونية وظلت لمدة ثلاث سنوات مرت خلالها بمرحلتين :

الأولى إستمرت لمدة ستة شهور (أبريل - أكتوبر ١٩٣٦)، ثم استأنفت بعد ذلك حتى عام ١٩٣٩ .

فى أعقاب إستشهاد الشيخ عز الدين القسام تشكلت عصابات مسلحة وبدأت التقارير البريطانية تشير إلى الإقبال على الأسلحة، لذلك فقد بدأت أحداث هذه الثورة من خلال حادثة سطو عادية على يد إحدى العصابات فى الخامس عشر من أبريل عام ١٩٣٦ على طريق نابلس - طولكرم حين جرى إطلاق النار على ركاب عدد من السيارات، قتل أثناءها يهودى، ثم ظهرت عصابة ثانية . وعلى إثر هذه الحادثة تأزم الموقف لاسيما بعد قيام اليهود بإعتداءات على العرب وتم فرض حظر التجول فى مساء التاسع عشر من أبريل وتم تنفيذ قانون الدفاع وقانون الطوارئ .

وهكذا بدأت الأوضاع تسير نحو التدهور فتشكلت اللجان القومية التى أصبحت قاعدة النشاط الوطنى للثورة، وتولت مدينة نابلس قيادة الحركة الوطنية على أساس قومى لاحزبى، على أن تتجه ضد البريطانيين أولاً باعتبارهم أس البلاء وليس الصهيونية وحدها . كذلك فقد تم تشكيل قيادة عليا للثورة من خلال لجنة عرفت باسم (اللجنة العربية العليا) مثلت فيها كافة الأحزاب وهذه اللجنة كانت بمثابة القيادة العليا للثورة ومركزاً للجان القومية وناطقة باسم الأمة وكان على رأسها كل من الحاج أمين الحسينى وعونى عبد الهادى، وراغب النشاشبى وغيرهم .

وقد أعلن الأضراب العام فى فلسطين وتحول إلى ثورة شعبية مسلحة وعمت المظاهرات البلاد، وفشلت كافة الجهود لوقف الإضراب .

وكعادة بريطانيا إزاء الأحداث الكبرى والثورات قامت بتشكيل اللجنة الملكية (أكتوبر ١٩٣٦ - أكتوبر ١٩٣٧) برئاسة اللورد بيل Peel التى أرجعت الثورة إلى خضوع الرأى العام البريطانى لليهود وأن العرب لديهم رغبة فى نيل الإستقلال وليست عندهم ثقة فى بريطانيا، وأوصت باتباع سياسة جديدة فى فلسطين وإحلال نظام المعاهدات بدلاً من نظام الإنتداب كما حدث فى العراق عام ١٩٣٠، ومصر عام ١٩٣٦ لكن العرب رفضوا فكرة التقسيم نظراً لأنها أوجدت دولة يهودية .

وحين نشر تقرير اللجنة الملكية صدر معه بيان رسمى بريطانى يعلن إتفاق الحكومة البريطانية مع ما انتهت إليه اللجنة من آراء وأن مشروع التقسيم يمثل أفضل حل، وترى ضرورة السماح بهجرة حوالى ثمانية آلاف يهودى خلال ثمانية أشهر من أغسطس عام ١٩٣٧ وحتى مارس عام ١٩٣٨ .

وعقب نشر التقرير عم فلسطين غضب واستياء شديدان، فلم يكن العرب ينتظرون هذا الحل بعد ثورتهم التى قاموا بها وأن تصبح الأوضاع أسوأ مما كانت عليه قبل الثورة .

وأمام ذلك كله استأنف الفلسطينيون الثورة، وتطورت الأحداث فدعت الحكومة البريطانية إلى مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن لدراسة المشكلة الفلسطينية ووجهت الدعوة إلى مصر والسودان واليمن وشرقى الأردن ثم إلى الفلسطين والوكالة اليهودية، وتألف الوفد العربى من كل الاطراف السابقة، وبدأ جلساته فى ٧ فبراير عام ١٩٣٩، ورفض العرب الجلوس مع مندوبى اليهود فاضطر البريطانيون إلى الجلوس مع العرب صباحا واليهود بعد الظهر، واستمرت الجلسات حتى ١٨ مارس عام ١٩٣٩، وعرضت بريطانيا إقامة حكومة فلسطينية مستقلة ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا وفرض قيود على الهجرة وانتقال الأراضى لكن العرب

واليهود رفضوا المقترحات البريطانية فانتهت اعمال المؤتمر فى ٢٧ مارس ١٩٣٩ بعد أن فشل فى الوصول إلى حل يرضى كافة الاطراف فأصدرت بريطانيا الكتاب الأبيض فى السابع من مايو عام ١٩٣٩ واعلنت أنه ليس فى خطتها تكوين دولة يهودية فى فلسطين وعدم استعدادها للاعتراف باستقلال فلسطين كدولة عربية، بل إن هدفها تكوين حكومة مستقلة لفلسطين من العرب واليهود خلال عشر سنوات، ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة .

رفض العرب واليهود الكتاب الأبيض، فلم يحقق هذا الكتاب الأمانى القومية للعرب كما أنه جاء غامضا فيما يتعلق بمسألة الإستقلال فاستمرت ثورة العرب الفلسطينيين إلى ما بعد نشوب الحرب العالمية الثانية . أما اليهود فقد احتجوا على هذا الكتاب خاصة فيما يتعلق بموضوع الهجرة .

وفى خلال الحرب العالمية الثانية لم يقبل عرب فلسطين القتال إلى جانب بريطانيا وان كان هناك فريق من الفلسطينيين يتزعمه حزب الدفاع رأى انه لابأس من القتال إلى جانب البريطانيين لأن فى ذلك فرصة لانشاء جيش قوى يدافع عن فلسطين مستقبلا . وكان المفتى الحسينى ضد فكره القتال إلى جانب البريطانيين مما جعل السلطات الفرنسية تجبره على مغادرة لبنان التى كان يقيم بها آنذاك إلى العراق ، فطاردته السلطات البريطانية ايضا بعد ان فشلت ثورة رشيد الكيلانى ففر إلى إيران . أما اليهود رغم رفضهم للكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ فقد انضموا فى صفوف الحلفاء نكاية فى المانيا النازية من خلال فيلق يهودى بلغ تعداده خمسة ألاف جندى أصبح فيما بعد نواة جيش الدفاع الاسرائيلى .

ومن الآثار الهامة التى تمخضت عنها الحرب العالمية الثانية فيما يتعلق بفلسطين وقضيتها تحول الصهيونية إلى أحضان الولايات المتحدة الأمريكية كبديل إستراتيجى لبريطانيا، فقد أدرك الصهيونيون أن بريطانيا

قد وفت بتعهداتها منذ اصدار تصريح بالفور عام ١٩١٧ ومهدت الطريق كى يحقق اليهود احلامهم فى اقامة دولتهم فى فلسطين، ثم أن بريطانيا بدأت تفقد المكانة السياسية التى كانت تتمتع بها من قبل فى المجتمع الدولى وحلت محلها الولايات المتحدة التى خرجت قوية بعد الحرب العالمية الثانية . وبالإضافة إلى ذلك كله فقد كانت الولايات المتحدة تبحث لها عن مجالات جديدة فى الشرق الاوسط فأراد اليهود أن يكونوا بمثابة رأس جسر لهم لتثبيت اقدامهم فى المنطقة [1] . وفى الفترة ما بين ٩-١١ مايو ١٩٤٢ دعا الصهاينة إلى عقد مؤتمر فى فندق (بلتيمور) فى الولايات المتحدة لدراسة الموقف جرى من خلاله شجب السياسة البريطانية تجاه فلسطين التى نص عليها الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ وطالب بإدخال الوف اليهود المهاجرين الذين اضطهدوا من جانب النازيين . ويمكن القول أنه بظهور برنامج بلتيمودر أخذ الصهاينة يبذلون جهداً كبيراً لكسب رجال السياسة الامريكيين . وبالفعل نجحوا فى ذلك فانتقلوا إلى مرحلة الصدام الإرهابى مع سلطات الإنتداب البريطانى فى فلسطين فاغتالوا اللورد موين Moyne فى نوفمبر عام ١٩٤٤ بالقاهرة، ونسفوا فندق الملك داود بالقدس الذى كان مقراً لقيادة القوات البريطانية فى فلسطين فى ٢٢ يوليه عام ١٩٤٦ .

وهكذا بلغ الصهاينة مبلغا كبيراً من كسب المساعدة الدولية والقوة الإرهابية فتدخلت بريطانيا فطلبت عقد دورة خاصة للجمعية العامة للامم المتحدة لبحث مشكلة فلسطين فى الثانى من أبريل عام ١٩٤٧ وعينت الأمم المتحدة لجنة لبحث مشكلة فلسطين فأعدت تقريراً إشتمل على مشروعين : الأول يوصى بتقسيم فلسطين إلى دولتين : عربية ويهودية مع قيام وحدة اقتصادية بينهما . والثانى يوصى بقيام دولة إتحادية مستقلة عاصمتها القدس . وقد تبنت الأمم المتحدة المشروع الأول

---

(١) محمود ملسى : المرجع السابق . ص ٢٢٨ وما بعدها .

وأوصت بتقسيم فلسطين، كما أوصى قرار التقسيم بانهاء الإنتداب البريطانى على فلسطين مع تقسيمها سياسيا إلى دولتين منفصلتين وإبقاء القدس وما حولها منطقة دولية تحت إدارة الامم المتحدة .

لم يقبل العرب قرار التقسيم وبدأ الفلسطينيون هجماتهم ضد اليهود بعد صدور القرار فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ وكان اليهود قد استعدوا تماماً لخوض الحرب منذ فترة طويلة، وقررت الدول العربية دخول جيوشها إلى فلسطين الا أنها أرغمت على وقف القتال لمدة أربعة أسابيع (١ يونيه إلى ٩ يوليه ١٩٤٨) أعاد خلالها اليهود تنظيم صفوفهم، فلما استؤنفت الحرب فى التاسع من يوليه ١٩٤٨ بدت القوات اليهودية اكثر قوة فرجحت كفة اليهود، ثم قبلت الدول العربية بقرار مجلس الأمن وقف القتال فى ١٨ يوليه عام ١٩٤٨ . وانتهت هذه الحرب بتوقيع أربع اتفاقيات : الأولى مع مصر فى ٢٤ فبراير عام ١٩٤٩ ، والثانية مع لبنان فى ٢٣ مارس عام ١٩٤٩ ، والثالثة مع الاردن فى ٣ أبريل عام ١٩٤٩، والرابعة مع سوريا فى ٢٠ يوليه ١٩٤٩ .

مراجع الفصل الخامس

١- إحسان حقي : بروتوكولات حكماء صهيون (مترجم) دار النفائس ,بيروت ، ١٩٩٠ .

٢- عادل غنيم : تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦ حتى الحرب العالمية الثانية .

٣- عبدالرازق محمد أسود : الموسوعة الفلسطينية . المجلد الأول .

٤- فؤاد سيد الرفاعي : النفوذ اليهودي في الأجهزة الإعلامية و المؤسسات الدولية .

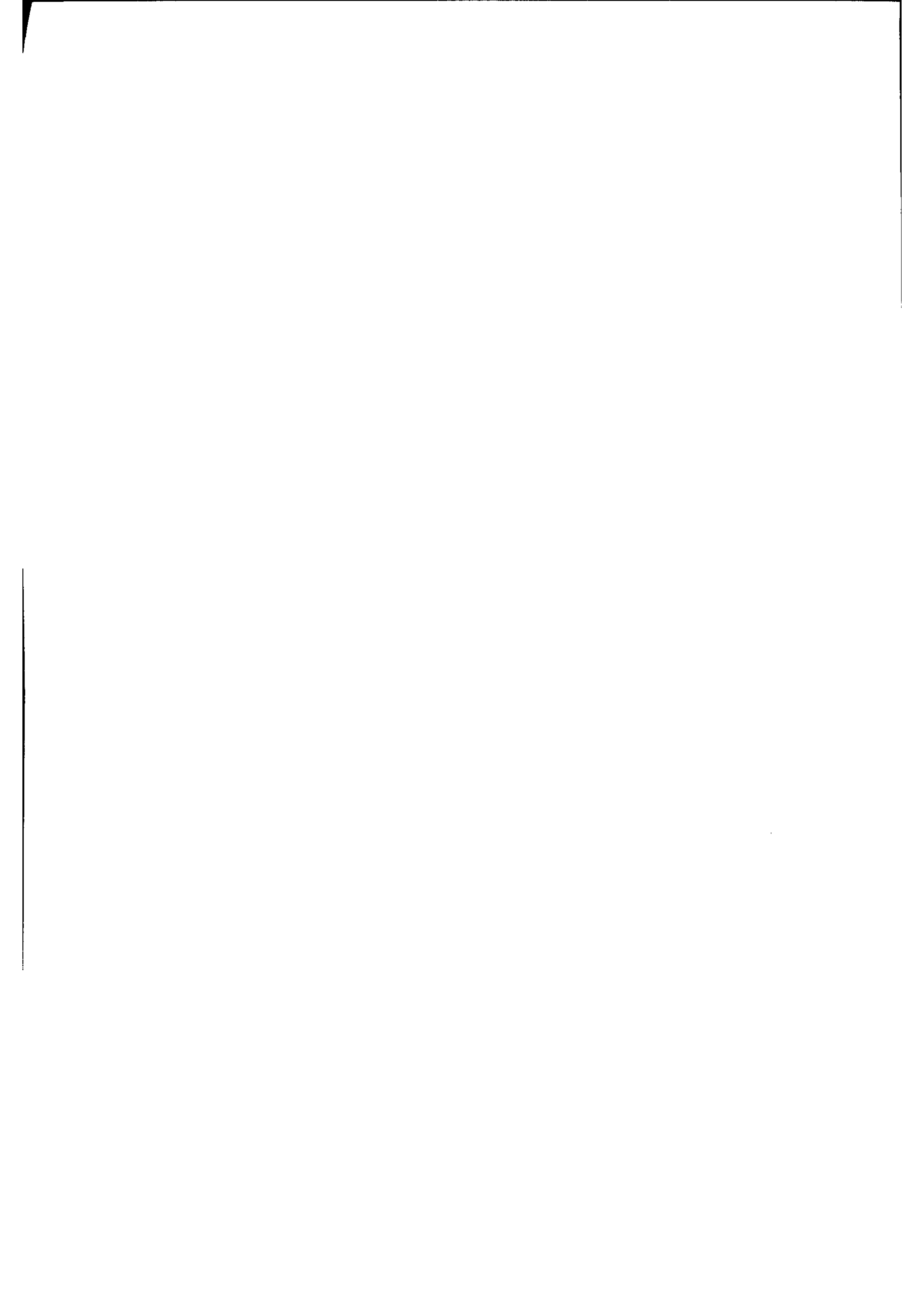
٥- هرتزل ، تيودور : الدولة اليهودية . ترجمة محمد يوسف عدس ,مراجعة د.عادل غنيم.



الفصل السادس

الدول العربية المغاربية

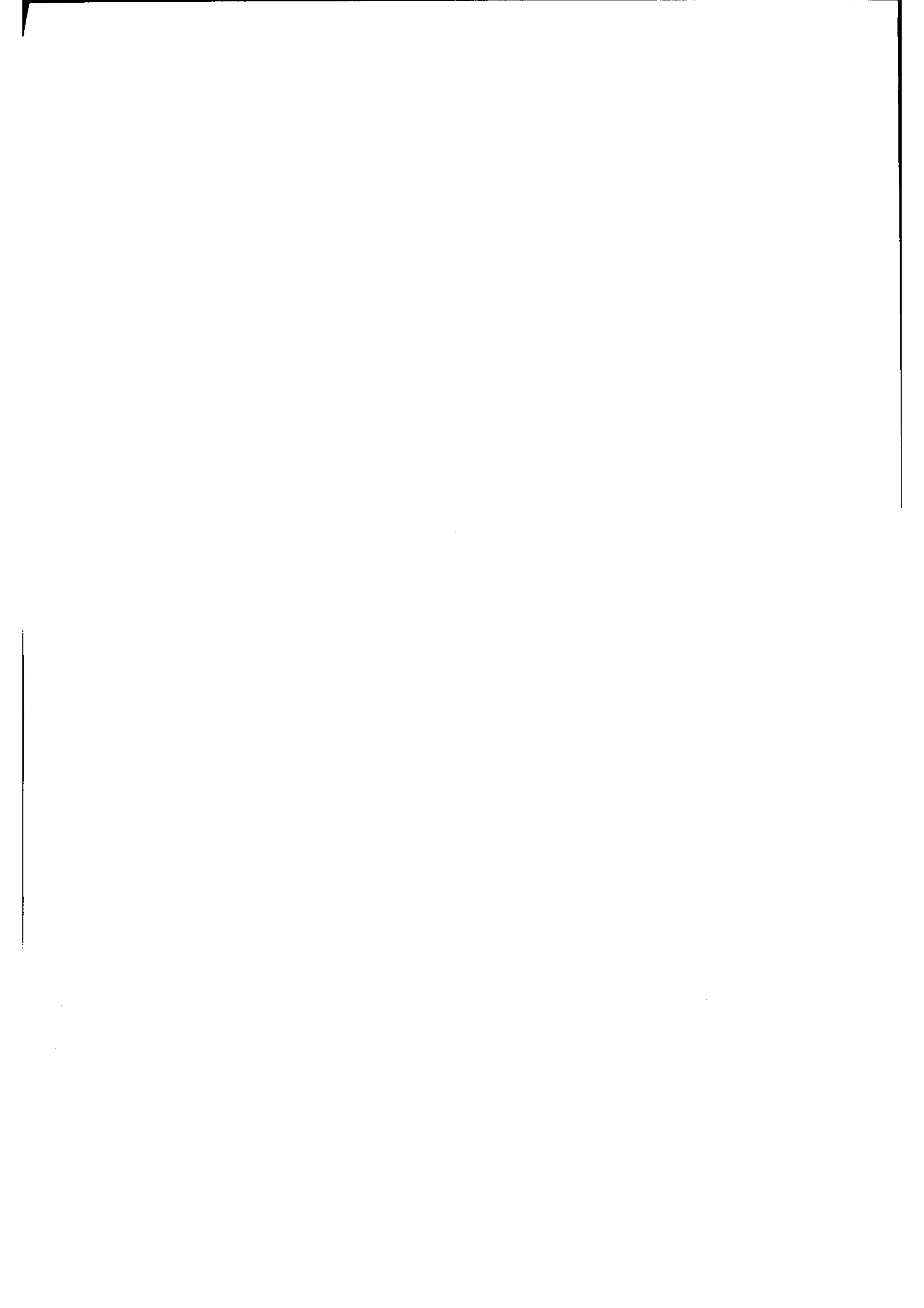
- الجزائر.
- تونس.
- ليبيا .
- المغرب.



الفصل السادس (الدول العربية المغاربية)

<u>الأهداف :</u>

- التعرف على العوامل و الظروف الخارجية التي قادت إلي احتلال الدول المغاربية .
- التعرف على السمات العامة للمستعمر الفرنسي في شمال افريقيا و لاسيما الآثار الثقافية التي ترتبت على ذلك .
- تبيان الدور الوطني الذي قام به الزعماء الوطنيون في شمال افريقيا .



الجزائر

لم يكن إهتمام فرنسا بالجزائر وليد عام ١٨٣٠ الذى تم فيه إحتلال هذا البلد ولكن هذا الإهتمام كان يسبق ذلك بفترة، ذلك أن نابليون كان يعتبر الجزائر بمثابة سوق خارجية هامة لتطوير الصناعة الفرنسية، لذلك فإنه كان دوماً ينظرللجزائر كواحدة من ممتلكاته فى المستقبل حين يتم تجزئة الأمبراطورية العثمانية .

وقد أوفد نابليون مهندساً حربيا يدعى « بوتين » لإجراء مسح طبوغرافى للجزائر وإعداد مخطط للحملة عليها . وبالفعل فقد تم الاستفادة من تقارير بوتين حين أرسلت الحملة لإحتلال الجزائر عام ١٨٣٠ .

ويذكر المؤرخون عدة أسباب لاهتمام فرنسا بالجزائر، منها ضياع الأمبراطورية الفرنسية الإستعمارية إبان حروب الثورة ونابليون، لذا فإن الإستيلاء على الجزائر كان يعد بمثابة محاولة لتأسيس امبراطورية إستعمارية جديدة .

وهناك من يعتبر أن سعى أسرة البوربون - لاسيما لويس الثامن عشر ثم شارل العاشر، والتى عادت بمساعدة الأجانب عقب معاهدة فينا عام ١٨١٥ - أرادت الحصول على نصر خارجي يعيد سمعتها ويقوم بالتغطية على قوانينها الرجعية المنافية للحريات .

وبالاضافة لما سبق فإنه لا يمكن إغفال العامل الدينى والتعصب ضد البحارة الجزائريين الذين كانت لهم نشاطات واسعة فى البحر المتوسط لاسيما وان فرنسا كانت تعتبر نفسها زعيمة للدول الكاثوليكية والمدافعة عنها فى حوض البحر المتوسط، خاصة وأن الملك شارل العاشر (١٨٢٤ - ١٨٣٠) كان يستجيب لأوامر الكنيسة تدعيماً لمركزه للظهور بمظهر دينى فى شن حرب صليبية غربية ضد من أسموهم بقراصنة شمال افريقيا .

أما السبب المباشر لإحتلال فرنسا للجزائر فقد كان يتمثل فيما عرف باسم (حادث المروحة) . وترجع جذور هذا الحادث إلى أن الجزائر كان تبيع لفرنسا القمح بالدين عن طريق بعض الوسطاء اليهود، وكان هؤلاء الوسطاء يشترونه بثمن بخس ويبيعونه بثمن باهظ مقابل إقراض الدايات حسب الطلب . وجرت عدة مباحثات بين الدايات والفرنسيين لسداد الديون وتشكلت لجنة لهذا الغرض لكن يبدو أن الأمور وصلت إلى طريق مسدود الأمر الذى أثار الداى حسين . وقد وصف لنا الداى حسين نفسه حادث المروحة بقوله بأنه وجه إلى الحكومة الفرنسية عدة رسائل بشأن سداد الأموال إلا أنه لم يتلق أى رد، بل إن القنصل الفرنسى فى الجزائر « دفال » قال له إنه من العبث أن ينتظر رداً من حكومة ملك فرنسا على رسائله، فرد عليه الداى بأنه إذا كان غير جدير بتلقى رد فليخرج دفال من حضرته وأشار إليه . بمروحته التى مست جنبه .

لم يقبل الداى حسين تقديم إعتذار، فتعللت فرنسا بهذا الحادث وراحت تحمله إلى ميدان أوسع ، فقدمت مطالب باهظة إلى الداى كان من المتعذر قبولها مثل توقيع عقوبة على رؤساء البحر الذين أتهموا بالقيام بأعمال عدوانية، ودفع أموال مقابل سفن وبضائع تمت مصادرتها، والإعتراف لفرنسا بالحق فى تسليح المؤسسة الفرنسية على الساحل، وإرسال وفد جزائرى إلى فرنسا لتقديم الإعتذار عما لحق بالقنصل الفرنسى، ورفع العلم الفرنسى على الحصون الجزائرية . وأعقبت فرنسا ذلك بإرسال أسطول حمل قائده هذه المطالب التى رفضها الداى فقام الأسطول الفرنسى بمحاصرة ثغر الجزائر وساحلها مدة ثلاثة أعوام .

والجدير بالذكر أن « بوليناك » الذى تولى رئاسة الحكومة الفرنسية عام ١٨٢٩ كان يتوق إلى نصر حربى لتعزيز الملكية الفرنسية فأسعفه خياله بأن يوكل إلى محمدعلى باشا وإلى مصر مهمة إخضاع داى

الجزائر . ويبدو أن هذه الفكرة كانت واحدة من أفكار القنصل الفرنسى بالأسكندرية « دروفيتى »، إلا أن إنجلترا كانت تعارض المشروع بشدة . كذلك فقد أبدت روسيا ترددا ازاءه ثم وافقت بعد ذلك ، كما رفضته النمسا إذ كان « مترنيخ » يعتبر نفسه زعيما لمبدأ المحافظة على الأوضاع الراهنة، كما انه كان قليل الثقة فى فرنسا وشديد الخوف من إحياء الروح العسكرية والتوسعية فيها .

وازاء كل ذلك راح بوليناك يقدم مشروعاً آخر لمحمد على كان يقضى بأن يتقاسم محمد على وفرنسا إخضاع النيابات المغربية بحيث تكون طرابلس وتونس من نصيب محمد على والجزائر من نصيب فرنسا .

وقد حسم محمد على هذه المسألة برفضه القيام بالحملة لأن ذلك سوف يجعله موضع اللوم من حكومته وشعبه . ومن ناحية أخرى أراد محمد على أن يؤكد ولاءه للدولة العثمانية والإسلام وأنه لا يقبل أن يقاتل أخوة له فى الدين .

وهكذا فشلت محاولات فرنسا مع محمد على فقررت أن تكون المهمة فرنسية فأرسلت حملتها التى اقلعت من ميناء طولون فى ٢٥ مايو عام ١٨٣٠ ، وصمم الداى على المقاومة وتضامن معه حكام الأقاليم إلا أنه بسقوط برج الحسن إستسلم الداى فى الرابع من يوليو شريطة أن تفتح المدينة أبوابها للقوات الفرنسية وتقوم بتسليم كافة الحصون، وأن يختار الداى مكاناً يقيم فيه خارج الجزائر . وفى المقابل تتعهد فرنسا باحترام الشعائر الدينية وعدم التعرض للمتلكات أو التجارة . لكن فرنسا لم تحترم تعهداتها فحولت المسجد الكبير إلى كاتدرائية، وصادرت الممتلكات . ودخلت القوات الفرنسية مدينة الجزائر بلا مقاومة واستولت على الأموال، وقامت بنفى الداى إلى نابلى إلى أن تم طرده منها إلى مصر . كذلك فقد جرى ترحيل الجنود العثمانيين إلى الأناضول . وهكذا أسدل الستار على

عـهد النيابة العثمانيـة فى الجـزائر الذى ظل ثلاثة قرون تمتع خلالهـا المسلمـون بالسيطرة والغلبـة والتفوق فـى حوض البحـر المتوسط المواجـه لسواحل شمالى افريقيا .

المقاومة الجزائرية :

ظن الفرنسيون أنه بالإستيلاء على الجزائر قد انتهى كل شئ أو على حد تقرير ، دى بورمون ، الفرنسى الذى قال ، إن البلاد سوف تخضع لنا خمسة عشر يوماً وبدون طلقة واحدة ، لكن خاب ظنهم فلم يستطيعوا السيطرة على البلاد إلا بعد أربعين عاماً خاض خلالها الشعب الجزائرى عدة حروب ومعارك .

ما أن أستولى الفرنسيون على العاصمة حتى هبت القبائل تدافع عن البلاد . كذلك فإن الحاميات العثمانية لعبت دوراً بارزاً فى الداخل لاسيما تلك القوة التى كانت تعسكر فى واحة (بسكرة) فى جنوب شرقى البلاد.

ومن أهم الحـاميات التى أعلنت المقـاومـة ضد المستعمر الفرنسى حامية قسطينة برئاسة أحمد باشا الذى إستطاع تأخير الإحتلال الفرنسى للموانئ الشرقية للبلاد .

أما القبائل العربية التى شاركت فى المقاومة فكانت فى إقليم نينوى بزعامة بومزراق .

وفى غربى الجزائر قاد الأمير عبد القادر الجزائرى المقاومة ضد الفرنسيين . وقد ولد عبد القادر فى عام ١٨٠٧ بقرية (القيطنة) الواقعة على وادى الحمام غربى مدينة (معسكر) من إيالة (وهران) . وقد عقدت البيعه الأولى له فى يوم ١٣ رجب عام ١٢٤٨هـ (٢٨ نوفمبر ١٨٣٢م) . وفى اعقاب مبايعته إتجه هو ومن معه إلى مدينة (معسكر) ودخل المسجد الجامع وراح يخطب الناس ويحثهم على الجهاد وتوحيد الكلمة .

كان الأمير عبد القادر يسير على خطة عسكرية تقوم على عنصر المفاجأة وعدم مواجهة الفرنسيين في ميدان مكشوف أى ما يشبه الآن حرب العصابات، لذلك فقد اضطر الجنرال « دى ميشيل » أن يبرم إتفاقية مع الأمير في ٢٨ فبراير عام ١٨٣٤ اعترفت فيها السلطات الفرنسية بإمارته على كامل البلاد مقابل إقراره بالسلطة على مدن (الجزائر – مستغانم – وهران – ازيو) . وكانت الإتفاقية تنص على الآتى :

١ – ترك الحروب والخصومات بين الفرنسيين والعرب .

٢ – إحترام الدين الإسلامى وعادات أهل البلاد .

٣ – تبادل الأسرى بين الطرفين .

٤ – اعطاء الحرية الكاملة للتجارة .

٥ – الإلتزام بإعادة الفارين من المعسكر الفرنسى، كما يلتزم الفرنسيون بتسليم الفارين إلى وكلاء الأمير .

٦ – السماح للأوربيين بالسفر إلى داخل البلاد شريطة حصولهم على تذكرة من وكلاء الأمير .

وقد أراد الأمير إدخال تعديلات على الإتفاقية إلا أن دى ميشيل لم يقبل ذلك . وعلى هذا النحو لم تكن هذه الإتفاقية سوى هدفه بين الطرفين لاسيما وأن الأمير واجه بعض الصعوبات من جانب القبائل التى رفضت أداء الضريبة التى فرضها الأمير أثناء القتال . ومن جانب آخر لم يتقبل تجار مرسليا إحتكار الأمير لتصدير منتجات الجزائر بالإضافة إلى مطالبة الأمير للقبائل بالسكنى بعيداً عن المراكز الفرنسية الأمر الذى أدى إلى منع إتصال الفرنسيين بهذه القبائل .

وهكذا خلقت المبررات كى يقوم (تريزيل) بنقض المعاهدة حين قام بإغراء قبيلتى الدوائر والزمالة بسكنى المنطقة المحتلة الأمر الذى

اعتبره عبد القادر مناقضاً للمعاهدة التى تنص إحدى بنودها بإعادة وتسليم الفارين، كما قام تريزيل بتسيير قوات إلى المنطقة الداخلية الواقعة تحت سيطرة الأمير فى وادى المقطع، إلا أن الأمير أوقع بها هزيمة نكراء.

وازاء كل ما حدث قامت فرنسا بإعادة « كلوزويل » الذى راح يفكر فى كيفية القضاء على الأمير فحاول إحتلال مدينة معسكر لكن الأمير دخلها مرة أخرى وأعاد ما خربه الفرنسيون . وقد فشل كلوزويل فى حملته على مدينة قسنطينة فى أكتوبر عام ١٨٣٦ لكن قوات أحمد باشا حاكم المدينة ردته على أعقابه . ولما كان الفرنسيون لا يستطيعون محاربة الجزائريين فى كل من وهران وقسنطينة فكروا فى مهادنة الأمير للتفرغ لمقاتلة أحمد بك حاكم قسنطينة فعقدوا معاهدة (تافنا) فى مايو عام ١٨٣٧ التى اعترفت من خلالها فرنسا بإمارة الأمير على مساحة تضم ثلاثة أرباع مقاطعة الجزائر بالإضافة إلى ولاية وهران كلها عدا ما نصت عليه الإتفاقية ببقائه فى أيدى الفرنسيين .

وقد خاضت فرنسا حرب إبادة ضد المقاومة الوطنية الجزائرية بين عامى ١٨٣٩ و١٨٤٧ وكانت حربا وحشية جعلت السكان الجزائريين يتناقصون من أربعة ملايين إلى ثلاثة فى غضون سبع سنوات . وأمام ذلك كله أضطر الأمير إلى دخول الحدود المراكشية مع بعض القبائل لكن السلطان المراكشى كان متردداً فى تقديم المساعدة للأمير وطالبه بالخروج من البلاد وأرسل ضده جيشا بالرغم من إحتجاج العلماء فى فاس ، وجرى الصدام بين الطرفين فى ديسمبر عام ١٨٤٧ فخسر الأمير المعركة وبدأ يفكر فى التسليم مقابل أن تتعهد الحكومة الفرنسية له بالهجرة إلى الإسكندرية أو إلى عكا على أن تلحق به القبائل التى ترغب فى ذلك، ووافق الحاكم الفرنسى دوڤال على ذلك لكنه أخذ الأمير أسيراً إلى فرنسا

فظل أسيراً حتى أطلق نابليون الثالث سراحه بعد توليه الحكم عام ١٨٥٢ فقرر الرحيل إلى دمشق التى ظل يعيش بها حتى توفى عام ١٨٨٣ .

ولم تتوقف المقاومة الوطنية الجزائرية فى أعقاب إستسلام الأمير عبد القادر بل استمرت فى النضال مثل مقاومة أولاد سيدى الشيخ بين عامى ١٨٦٤ و١٩٠٨ فى جنوب غربى الجزائر، وثورة المقرانى عام ١٨٧١ فى أعقاب هزيمة فرنسا فى حرب السبعين .

وحاول نابليون الثالث أن يخفف الوطأة على الجزائريين لكن المستوطنين الفرنسيين كانوا يضغطون على الحكومة الفرنسية فقام بالغاء الإدارات الوطنية ومنح اليهود فى الجزائر صفة المواطن الفرنسى .

وإبان عهد الجمهورية الثالثة التى قامت فى اعقاب حرب السبعين ازداد عدد المستوطنين الفرنسيين فى الجزائر وسيطروا على ثروات البلاد وإدارتها وعلى اختصاصات المحاكم الشرعية التى حولوها إلى محاكمهم المدنية .

وقد تركت الحرب العالمية الأولى آثاراً هامة على سياسة الإستعمار الفرنسى فى الجزائر حيث استرد الجزائريون مساحات كبيرة من الأراضى التى اشتراها المستوطنون، وتناقصت أعداد المهاجرين الفرنسيين، كما انتشر الوعى القومى بين الجزائريين، وظهرت طائفة جديدة من الجزائريين مثل طبقة العمال والمجنديين الذين تحسنت أحوالهم الاقتصادية .

تونس

لاشك فى أن تونس تمتعت بموقع جغرافى ممتاز فى وسط البحر المتوسط وكانت قريبة من صقلية وبقية إيطاليا مما أتاح لها موقعاً إستراتيچيا تتحكم من خلاله فى خطوط الملاحة بين الحوضين الشرقى والغربى للبحر المتوسط الأمر الذى جعلها مطمعاً للدول الاستعمارية .

وإذا كانت تونس خلال القرن الثامن عشر قد تمتعت بسطوة كبيرة فى البحر المتوسط من خلال أسطولها، كما أن اوضاعها الأقتصادية آنذاك كانت مزدهرة نتيجة وصول قوافل التجارة إليها من قلب افريقيا عبر دروب الصحراء الا أنها فقدت أسطولها نتيجة الضغوط الأوربية التى وجهت إليها تهمة القرصنة فى البحر المتوسط الأمر الذى ترك أثاراً سيئة على تجارتها، إضافة إلى أن التجار الأوربيين أنفسهم قد وصلوا رأساً إلى سواحل غربى افريقيا وأقاموا لهم محطات تجارية، ثم جاء الإحتلال الفرنسى للجزائر ليغلق طرق القوافل الواصلة إلى تونس من وسط افريقيا. كل ذلك أدى إلى تدهور أحوال تونس التجارية .

وقد وصلت تونس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر من الناحية الإدارية إلى حالة من الضعف حيث كان الباى يجمع فى كلتا يديه كل أمور السلطة ويحكم باسلوب عتيق بال، كما أن مساعديه من الأمراء لم يكونوا أحسن حالاً منه .

ومع ذلك كله فقد جرت محاولات للإصلاح فى البلاد ولاسيما . إصلاح الجيش والأسطول فراح أحمد باى يحاول إنشاء جيش حديث على النسق الفرنسى بمساعدة ضباط فرنسيين كلف الخزانة أموالاً كثيرة . وقد إتجهت الحكومة إلى الاقتراض من التجار الأجانب المقيمين فى تونس من أصل إيطالى وفرنسى وبريطانى . وحين عجزت الخزانة التونسية عن الوفاء بالتزامتها أعتبر القناصل الأوربيون تونس فى حالة إفلاس فاقترح

القنصل الفرنسى إستقدام بعثة مالية فرنسية لإجراء عملية اصلاح فى البلاد وراحت بريطانيا وإيطاليا تعارضان إنفراد فرنسا بمثل هذا العمل فأتفقت جميعا على العمل لصالح الدائنين الأوربيين وبالتالى تكوين بعثة مالية مختلطة لإصلاح المالية التونسيه . فقامت البعثة بتحويل مجموع الديون التونسية إلى دين موحد ووضعت مشروعاً لتنظيم الماليه التونسية . وهكذا توالت المشكلات على البلاد مما هدد بفقدان الإستقلال، لاسيما مع تدهور الأوضاع المالية رغم المحاولات التى بذلها بعد ذلك خير الدين باشا الشركسى الذى وصل من القسطنطينية إلى قصر أحمد باشا باى تونس وقام ببعض المجهودات لإصلاح أوضاع البلاد فى كافة الأمور السياسية والإقتصادية والإدارية والقضائية والتعليمية، واستطاع أن يوقف القناصل الأوربيين عند حدهم وأن يقلل العبء على الفلاح ويلغى الكثير من الضرائب ويفتتح المدارس الحديثة فاستطاع أن يقدم لتونس تجربة فريدة إلا أن التجاوب كان قليلاً بينه وبين حكام ذلك العصر فلم تستفد تونس إفادة قيمة من هذه التجربة لاسيما وأن الضغط الأوربى كان على أشده للسيطرة على البلاد .

التنافس الدولى على تونس :

كانت تونس مطمعاً لكثير من دول أوربا ولاسيما بريطانيا وفرنسا وإيطاليا، فحاولت كل واحدة منها أن تجد لها موطأ قدم فى البلاد حتى يمكنها فى نهاية المطاف الإنفراد بالإحتلال .

وقد حاولت بريطانيا ألا تدع تونس تقع فى يد دولة قوية كفرنسا التى حاولت فصل تونس عن الدولة العثمانية ومنحها الاستقلال فوقفت لها بالمرصاد ورفضت الإعتراف بالباى كحاكم مستقل . ونشطت بريطانيا حتى عام ١٨٧٨ على ألا تقع تونس تحت النفوذ الفرنسى أو الإيطالى، وتمكن القنصل البريطانى فى تونس من الحصول على إمتياز لإحدى

الشركات البريطانية في عام ١٨٧٤ بمد خط حديدى من تونس وحتى الحدود الجزائرية .

وفيما يتعلق بالنفوذ الفرنسي في تونس فإنه لم يكن قبل عام ١٨٣٠ كبيراً بل اعتمد على بعض الأمور التجارية البسيطة وأمور الصيد على سواحل تونس، لكن فرنسا كانت تضع في مخيلتها تجربة إحتلال الجزائر التي اعتبرتها أساساً للتوسع الإستعماري في شمالي افريقيا، فكان طبيعيا أن ترنو ببصرها إلى تونس التي لا يوجد أي حاجز بينها وبين الجزائر سواء في الحدود أو العرق أو اللغة أو حتى في العقيدة . وراحت فرنسا تسير على سياستها في إعتبار باي تونس مستقلاً عن الدولة العثمانية، وتجلى ذلك في تلك الزيارة التي قام بها الباي أحمد إلى باريس والتي استقبل فيها إستقبال الأمراء المستقلين رغم الاحتجاجات التي أبدتها الدولة العثمانية .

ورغم هزيمة فرنسا في الحرب السبعينية وفقدانها لبعض التفوق في تونس وازدياد نفوذ كل من إيطاليا وبريطانيا، وقيام الثورة في الجزائر إلا أنها صممت على الإحتفاظ بالجزائر ووقفت أمام حملة إيطاليا التأديبية على تونس حتى تراجعت . وفي عام ١٨٧٤ إزداد النفوذ الفرنسي في تونس بحصولها على إمتياز لمد خط سكة حديد من تونس إلى الجزائر وأصبح في مقدور فرنسا الوصول بسهولة إلى العاصمة التونسية .

أما إيطاليا فقد كانت هي الأخرى لها أطماع في تونس وتعيش ذكريات التاريخ القديم لتوحيد تونس مع إيطاليا كما حدث في عهد الفينيقيين وقرطاجة وروما، بالإضافة إلى ذكريات الوندال ودولة الأغالبة التي فتحت صقلية، والسيطرة على جنوب إيطاليا وكانت مملكة سردينيا ترغب في الحصول على تونس التي كان يسكنها الكثير من الإيطاليين وتنتشر فيها أيضا الكثير من المدارس والمنشآت الإيطالية . كذلك فقد شاركت فلورنسا كلاً من بريطانيا وفرنسا في مناوراتها البحرية عام

١٨٦٤ . وفى عام ١٨٦٨ نجح القنصل الإيطالى فى عقد معاهدة مع تونس منحت الإيطاليين الحق فى إمتلاك العقارات والأراضى واستغلال المناجم فازدادت كثافة السكان الإيطاليين فى البلاد . وبالإضافة إلى ذلك كله فإن إيطاليا كانت تعانى من الفقر لاسيما ولايات الجنوب التى أصبحت عبئا على ولايات الشمال بعد إتمام الوحدة الإيطالية، ومن ثم أصبحت مسألة الهجرة ضرورية حلاً لهذه المشكلة ولاسيما الهجرة إلى سواحل شمالى افريقيا وعلى الأخص تونس القريبة منهم . وبالإضافة إلى كل هذه الدوافع فإن بسمارك كان يدفع إيطاليا دفعا لتحقيق مآربها فى تونس وذلك للإيقاع بين فرنسا وإيطاليا، فإذا ما استولت فرنسا على تونس ثارت إيطاليا عليها وإنحازت إلى صف المانيا فى التحالفات التى بدأت تتكون فى أعقاب الحرب السبعينية .

وقبيل واثناء عقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ عقب الحرب الروسية التركية (١٨٧٧ – ١٨٧٨) تشابكت المصالح والأطماع المختلفة فى تونس ولاسيما قبيل عقد المؤتمر حين حصلت بريطانيا على قبرص، والنمسا على البوسنة والهرسك . أما فرنسا فقد قبلت المشاركة فى المؤتمر شريطة عدم مناقشة شئون فلسطين ومصر وتونس لكن استيلاء بريطانيا على قبرص أثار الرأى العام الفرنسى وطالب الفرنسيون بتونس كتعويض لهم مقابل استيلاء بريطانيا على قبرص . وحين أظهر مندوب فرنسا رغبته فى الإنسحاب من المؤتمر أفهمه البريطانيون رغبتهم فى إطلاق يد فرنسا فى تونس وانهم لن يقوموا بتغيير الوضع القائم فى الشرق الأدنى دون رغبة فرنسا . أما المعارضة الإيطالية فلم تكن تخيف فرنسا لاسيما وأن إيطاليا بامكانها التوسع فى طرابلس دون أن يكون لذلك أى تأثير على التوسع الفرنسى فى المنطقة . وعلى هذا النحو راحت فرنسا تسرع الخطى لتحقيق مشروعها الإستعمارى فى إحتلال تونس .

وإذا كانت فرنسا قد واجهت بعض المصاعب للإنفراد بتونس من جانب بعض الدول وحاولت التغلب عليها فإنها راحت تخلق المبررات للسيطرة على تونس مثل تزايد النفوذ الإيطالى فى البلاد حيث قام الملك امبرتو بزيارة لصقلية استقبل خلالها بعض الزعماء التونسيين وممثلى الجالية الإيطاليه فى تونس، بالإضافة إلى ازدياد نشاط العثمانيين فى ليبيا مما يشكل خطراً على تونس والجزائر أيضاً لاسيما وان السلطان عبد الحميد الثانى كان يروج لسياسة الجامعة الإسلامية .

ومن هذه المبررات أيضا ما كان يدور على الحدود التونسية الجزائرية حيث ادعت فرنسا تكرار إعتداءات القبائل (الخامير) على الحدود ولاسيما فى الشعاب الجبلية والغابات . وادعت فرنسا بأن هذه القبائل لم تكن تخضع لعاصمة تونس إلا خضوعاً شكليا، وذلك حتى تظهر للعالم بأنها لم تتدخل فى تونس إلا بهدف الدفاع عن مستعمرتها الجزائرية .

اما الأسباب الحقيقية فكانت تتمثل فى تلك الحدود الطويلة المشتركة بين تونس والجزائر، وامتلاك فرنسا لمائة مليون فرنك من مجموع الدين التونسى الذى بلغ ١٢٥ مليون فرنك، بالإضافة إلى امتلاك الفرنسيين لامتياز ٢٠٠ كيلومتر من الخطوط الحديدية، وامتياز مشروعات البرق والبريد وغير ذلك من المشروعات الفرنسية داخل تونس .

وقد استغلت فرنسا حجة الاعتداءات القبلية فحصلت الحكومة الفرنسية على موافقة البرلمان الفرنسى من أجل تمويل حملة تأديبية ضد هذه القبائل بل وطلبت مساعدة القوات التونسية لتحقيق هذا الهدف رغم أن القبائل التونسية تقدمت بعرض لتسليم بعض افرادها كرهائن إثباتا لحسن النوايا وخضوعهم لسلطة الباى، لكن الفرنسيين أصروا على رأيهم وادعوا بأن التونسيين اعتدوا على عمال أوربيين كانوا يعملون فى إنشاء خط حديدى .

ولم تحرك الدولة العثمانية ساكناً أمام الغزو الفرنسى فقد كانت فى حاله يرثى لها من الضعف فتخاذلت كما تخاذلت من قبل حين غزت فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ . وكان الرأى العام الإيطالى مستنكراً لما يحدث من جانب فرنسا فى تونس التى كانوا يتطلعون إليها . أما بريطانيا فقد أعلن وزير خارجيتها ، جرانفل ، أن فرنسا لم تكن تهدف إلى ضم تونس بل تهدف إلى القيام بحملة تأديبية ضد القبائل .

كانت القوات الفرنسية على أهبة الإستعداد على الحدود التى عبرتها يوم الرابع والعشرين من ابريل عام ١٨٨١ دون مقاومة تذكر . وكانت هذه القوات تسير فى إتجاهين : أحدهما ضد القبائل التونسيه على الحدود، والآخر بواسطة السفن الفرنسية التى نزلت فى ميناء بنزرت فى أول مايو متجهة إلى تونس التى وصلت إلى قصر الباى، والتقى قائد الحملة (بريار) مع القنصل الفرنسى العام فى تونس (روستان) الذى سلم القائد نسختين من المعاهدة وقدمه إلى الباى، وتليت المعاهدة وأعطى الباى مهلة أربع ساعات لإعلان قراره النهائى . وهكذا تحت الضغط والقوة وقع الباى معاهدة (باردو) فى الثانى عشر من مايو عام ١٨٨١ .

وقد اختارت فرنسا لتوسعها فى تونس إسم (الحماية) لعدم إثارة إحتجاج الدول الأوربية ولتهدأ من روع التونسيين بأنها لم تضم بلادهم أو تنزل بها إلى مستوى المستعمرات، وفى نفس الوقت تحمل التونسيين نفقات قوات الإحتلال وللظهور أيضا أمام المعارضة الفرنسية بأنها قامت بعملية لها مكاسبها ولم تكلف الخزانة الفرنسيه شيئاً .

المقاومة التونسية :

أخلفت فرنسا وعودها التى أدعت بأنها لم تجئ إلى تونس كدولة فاتحة، بل لإرشاد الحكومة الوطنية ومساعدتها، الأمر الذى أدى إلى بروز حركة وطنية . ويقال إن الحركة الوطنية التونسية تأثرت بحركة التجديد فى المشرق والتى تمثلت فى إحياء العقيدة الإسلامية أو تجديد النظم

السياسية، كما تأثرت أيضا بالمراكز الإسلامية العريقة فى تونس مثل جامع الزيتونة الذى تخرج منه زعماء وطنيون حملوا على عاتقهم هموم العقيدة والوطن .

ويعتبر الشيخ محمد السنوسى أول زعيم للحركة الوطنية التونسية بعد الحماية، وهو من علماء جامع الزيتونة المستنيرين الذين تزعموا حركة قوية قامت بتأليف وفد تقدم بعريضة موقع عليها من كثير من أبناء الشعب التونسى إلى الباى يحتجون فيها على شكل الحكم المباشر الذى تقوم به السلطات الفرنسية فى البلاد فاستقبلهم الباى وتعاطف معهم، إلا ان السلطات الفرنسية القت القبض على الشيخ السنوسى وأبعدته إلى خارج البلاد .

ولم تتوقف الحركة الوطنية بالقاء القبض على السنوسى بل ظهر عالم جديد فى البلاد هو الشيخ المكى بن عزوز وهو أيضاً من شيوخ الزيتونة السلفيين الذى راح يدعو أولاً إلى مقاومة المشايخ الجامدين الذين وقفوا فى وجه حركة الإصلاح التى قادها خير الدين وغيره، وكانت ثمرة ذلك كله تكوين جماعة من المستنيرين على رأسهم الشيخ عبد العزيز الثعالبى، والتقى هؤلاء الطلاب وكونوا جريدة (المستقبل التونسى) وكانت تنطق بالفرنسية، وأخرى باللغة العربية أسموها (حبيب الأمة)، وثالثة تدعى (سبيل الرشاد) أشرف عليها الشيخ الثعالبى بنفسه (١) .

وفى عام ١٩٠٥ عاد الطلاب الذين أوفدتهم الحكومة التونسية قبل الحماية، وهم من خريجى المعهد الصادقى، بعد أن أتموا دراستهم وبدأوا يحملون أفكاراً تحريرية ويقومون بقيادة حمله تنويرية داخل الرأى العام التونسى . ومن أبرز هؤلاء السيد على أبو شوشة صاحب جريدة (الحاضرة) .

---

(١) أنظر : علال الفاسى : الحركات الإستقلالية فى المغرب العربى . ص ٤٧ وما بعدها .

وكانت هذه الحركة تستقى أفكارها من الدعاية التى قام بها كل من جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده وتقتدى بالحركة الوطنية فى مصر التى قادها مصطفى كامل ومحمد فريد الذى زار تونس والتقى برجال الحركة . وإلى هذه الحركة يرجع الفضل فى تأسيس معهد ابن خلدون .

وفى عام ١٩٠٧ قامت ثورة فى جنوب غربى تونس فى القصرين بزعامة على بن عثمان وهو واحد من مشايخ القبائل، وكانت بسبب اغتصاب المستعمرين للأراضى . واستطاع الفرنسيون اخمادها بالقوة والقبض على زعيمها ورميه بالرصاص .

الأحزاب التونسية والحركة الوطنيه :

أ – حزب تونس الفتاة :

تأسس هذا الحزب عام ١٩٠٨ على يد على باش حمبة الذى جمع بين الثقافتين العربية والفرنسية . وقد اصطدم على باش بقانون « كريميو » الفرنسى الذى جرت محاولة لتطبيقه فى تونس بعد أن طبقوه فى الجزائر، والذى يقضى بتجنيس اليهود التونسيين، فقام اليهود فى عام ١٩٠٧ بشن حمله شعواء للمطالبة بالجنسية الفرنسية وذلك لزيادة عدد الجالية الفرنسية. وقد تزعم ثلة من الشباب التونسى مقاومة هذا التيار بقيادة على باش ونجحوا فى ذلك حتى أوقفت الإدارة الفرنسية فى تونس هذا القانون .

وكانت جريدة (التونسى) التى صدرت بالفرنسية هى الناطقة باسم الحزب، وصدرت منها طبعة عربية قام بتحريرها الشيخ عبد العزيز الثعالبى . وكما يبدو من تسمية الحزب فإنه كان متأثراً بحزب تركيا الفتاة. ويبدو أن أفكار على باش اشد تطرفا من أفكار جماعة (الحاضرة) ، كما أنه كان يهدف إلى توحيد المغرب العربى فى ميدان الكفاح فمد يده للمناضلين الجزائريين، كما اتصل برجال الحركة فى مراكش . وعقب

إحتلال ليبيا عام ١٩١١ كان يقوم مع أنصاره بدور حلقة الوصل بين السفارة العثمانية فى باريس والقيادة العثمانية فى طرابلس، وأصبحت تونس عبارة عن ممر سرى للضباط العثمانيين القادمين من أوربا إلى طرابلس .

وفى عام ١٩١١ وقع حادث (الجلاز) فى تونس حين أضرب عمال الترام عن العمل بإشراف على باش وجماعته . وقد انتهى الحادث بصدام عنيف لاسيما بين التونسيين والإيطاليين بسبب احتلالهم لليبيا الأمر الذى أدى إلى قيام المقيم العام الفرنسى باعتقال الوطنيين ومنهم على باش وعبد العزيز الثعالبى وغيرهم، وقام بحل حزب تونس الفتاة، وتم إبعاد الثعالبى إلى فرنسا ثم ذهب إلى الأستانة وانتقل منها للهند وجاوه حتى عاد إلى تونس قبيل إعلان الحرب العالمية الأولى . وأما على باش فقد بقى فى الأستانة حتى توفى بها .

ب - *الحزب الدستورى* (١٩١٩)

ظهرت قوى جديدة فى تونس كان أغلبها من الذين تلقوا تعليماً فرنسياً وراحت هذه القوى تطالب بإعلان الحياة الدستورية كمقدمة للحصول على الإستقلال، وعلى هدى من هذه الأفكار قاموا بتأسيس (حزب الدستور) فى عام ١٩١٩ بعد أن رفعوا عريضة للداى باسم الشعب فأظهر عطفه عليهم .

أعلن رجال الحزب الدستورى عن غايتهم من هذا الحزب فقالوا إن « الغاية من تأسيس هذا الحزب الجديد هى تبليغ الوطن رشده، وتحريره من الإستعباد كى يصبح الشعب التونسى حراً متمتعاً بكامل الحقوق التى تتمتع بها الشعوب الحرة . وهو يريد أن يصل لهذه الغاية عن طريق التحقيق العاجل لنظام دستورى يسمح لهذا الشعب بحكم نفسه بنفسه وفقاً للأسس التى يسير عليها كل العالم المتمدين » (١) .

---

(١) علال الفاسى : المرجع السابق . ص ٥٩ .

وهناك نقد يوجه إلى هذا الحزب على أساس أنه قام على غير ما كان عليه حزب تونس الفتاة الذى كان يطالب بالإستقلال، الا أننا نعتقد أن الحزب الدستورى لم يغفل الإستقلال أبداً وآثر رجاله عدم الافصاح به جهاراً وكانوا يرون فى هذا الغموض سياسة تسمح لهم بالوصول إلى مرحلة يتمكنون فيها من إعادة تنظيم انفسهم . لذلك نرى ان الزيتونيين من الوطنيين لم ينضموا للحزب فى بادئ الأمر إلا بعد رجوع الثعالبى ورئاسته للحزب .

وقد اشتد الخلاف بين الحزب الدستورى والمقيم العام الفرنسى لاسيما حين زار رئيس الجمهورية الفرنسية تونس وأعلن بأن تونس ستبقى للأبد مرتبطة بفرنسا مما أثار الباى محمد الناصر وتنازل عن العرش ومات فى ظروف غامضة ليتولى من بعده محمد الحبيب الذى وافق على مخططات فرنسا التى أدخلتها من حيث زيادة سلطات المستوطنين بينما رفض الحزب الدستورى هذه الإصلاحات غير الكاملة، لكن المقيم العام الفرنسى وجد من يوافقه على مخططاته ممن ألفوا ما يعرف باسم (حزب الإصلاح) .

وقد سافر الثعالبى رئيس الحزب الدستورى إلى خارج تونس صوب المشرق واستمرت رحلته ما بين عامى ١٩٢٣ و ١٩٣٧ زار خلالها مصر وسوريا والعراق والحجاز والهند .. وقد منعت الصحف الفرنسية التى كانت تنطق بإسمه ونشأت حالة من الركود داخل الحزب ولكن منذ عام ١٩٣٠ نشط الدستوريون وأصدروا جريدة (صوت التونسى) إلا أن فريقاً آخر ممن تشبعوا بالثقافة الأوربية أنشأ جريدة مستقلة فى عام ١٩٣٢ أسماها (جريدة العمل) وكان يكتب فيها الحبيب بورقيبه زعيم الإتجاه الجديد . وقد نجح المقيم الفرنسى فى احداث فرقة بين اصحاب الاتجاه الجديد وبين الدستوريين القدامى وصلت إلى حد القطيعة عام ١٩٣٤، وراح الشبان الجدد يسعون إلى تكوين حزب جديد .

جـ - الحزب الدستورى الجديد (١٩٣٤)

وهكذا نجحت فرنسا فى تفتيت الحزب الدستورى، وظهر إلى الوجود الحزب الدستورى الجديد الذى أنشأ (جريدة العمل) وكان يكتب فيها الحبيب بورقيبه الذى قاد فريقا من الشبان ممن تشبعوا بالثقافة الأوربيه . وتناولت كتاباتهم النهضة الاجتماعية والثقافية والصناعية وقضية تحرير المرأة . وقد أنتخب الحبيب بورقيبه أمينا عاماً للحزب بعد أن فشل الثعالبى فى وقف الخلاف بين الطرفين .

وعلى الرغم من الإعتدال الذى أبداه الحبيب بورقيبه وجماعته الا أن الحزب الدستورى الجديد لم يسلم من ملاحقة الفرنسيين له ولاسيما من بعد عام ١٩٣٤ حتى حصول تونس على الإستقلال فقضى زعماؤه حياتهم ما بين التشريد والنفى والسجن ، لكن الأهم هو أن نفوذ الحزب انتشر فى البلاد وأصبح مهدداً لمصالح المستوطنين .

وخلال الحرب العالمية الثانية كان الحبيب بورقيبة داخل السجن فنقلته السلطات الفرنسية إلى جنوبى فرنسا وأعلنت حل الحزب . وحين تولى الباى محمد المنصف العرش فى عام ١٩٤٢ سعى الحلفاء ورجال المحور إلى كسبه لكنه رفض هذه المساومات لاسيما من جانب المحور الذى كان مركزه العسكرى آخذاً فى التدهور، كما كان الحزب الدستورى القديم يميل – كسائر الأحزب العربية – إلى جانب المحور فاتخذ الفرنسيون من ذلك ذريعة لاتهام الزعماء الوطنيين بالتجسس، وتم خلع الباى محمد المنصف وتولية محمد الأمين .

حاول الثعالبى أن يستفيد من قيام جامعة الدول العربية فى عام ١٩٤٥ فأرسل للحكومة المصرية طالبا تدخل الجامعة فى القضية التونسية، كما إنتقل الحبيب بورقيبه إلى القاهرة وانضم إلى لجنة المغرب العربى التى كان يرأسها الأمير عن الكريم الخطابى . واثناء وجود الحبيب بورقيبه

فى القاهرة تولى صالح بن يوسف قيادة الحزب، إلا أن بورقيبة – وهو فى القاهرة – وجد أن قضية فلسطين كانت تغطى على قضايا المغرب العربى ففكر فى الإتصال بفرنسا مرة أخرى، وقرر فى عام ١٩٤٩ العودة إلى تونس ثم سافر إلى باريس عام ١٩٥٠لكن فرنسا لم تكن تعترف بالحزب الدستورى الجديد منذ حله فى عام ١٩٣٨ .

إتجه التونسيون للمقاومة والجهاد ونظموا « جيش تحرير » ضم آلاف المتطوعين الذين أثاروا الذعر فى قلوب الفرنسيين . واستمر الخلاف بين التونسيين والفرنسيين حتى عام ١٩٥٦ حين وقعت فرنسا مع تونس ميثاقا جديداً اعترف بسيادة تونس الخارجية والداخليه وتألفت أول وزارة برئاسة الحبيب بورقيبه .

ليبيا

ليبيا والحكم العثمانى :

فى أعقاب سقوط الاندلس وغرناطة وعلى وجه التحديد فى عام ١٤٩٢ على يد فرديناند وإيزابيلا إتجه ملوك اسبانيا صوب الشمال الافريقى فاستطاعوا - كما سبق القول - السيطرة على بلدانه ، وكانت طرابلس الغرب واحدة منها وذلك فى عام ١٥١٠م. وظلت هذه السيطرة حتى عام ١٥٢٥م . وفى خلال هذه الفترة قام الإمبراطور شارل الخامس بإيواء فرسان القديس يوحنا منذ عام ١٥٣٠ حتى طردهم الأتراك فى عام ١٥٥١ بقيادة (درغوت) الذى خلف باربا روسا فاتجه هؤلاء الفرسان إلى مالطة حيث استقروا بها .

ويمكن تقسيم فترة الحكم العثمانى فى ليبيا (١٥٥١ - ١٩١١) إلى ثلاث فترات :

أولاً : العهد العثمانى الأول (١٥٥١ - ١٧١١) :

وفيه دخلت ولاية طرابلس الغرب تحت الحكم العثمانى حين سافر وفد منهم إلى عاصمة الدولة العثمانية فى عام ١٥٢٥ فأرسل السلطان مراد على رأس قوة عسكرية لكنه عجز عن القيام بهذا العمل حتى جاء سنان باشا على رأس اسطول فاستطاع الإستيلاء على المدينة عام ١٥٥١ وتم تعيين درغوت باشا أول وال عثمانى عليها .

ثانياً : عهد الأسرة القره مانلية (١٧١١ - ١٨٣٥) :

وتنسب هذه الأسرة إلى واحد من قادة الانكشارية ويدعى أحمد القره مانلى الذى قام بانتزاع السلطة وفرض نفسه على حكومة السلطان العثمانى . ويعتبر أحمد القره مانلى مؤسساً لهذه الأسرة التى ضمت خمسة ولاة حكموا منذ عام ١٧١١ وحتى عام ١٨٣٥ . ورغم المحاولات التى

بذلها ولاة هذه الأسرة إبان هذه الفترة إلا أن البلاد لم تشهد تغييراً جذرياً بحيث يمكن القول إن عهد هذه الأسرة يعد استمراراً لفترة الحكم العثمانى الأول بما حمله من مساوئ فى كافة الأوضاع . كذلك فإن عهد هذه الأسرة قد شهد بداية تدخل أوربا فى ولاية طرابلس وهكذا ظلت هذه الأسرة تحكم حتى عام ١٨٣٥ حين أرسلت الدولة العثمانية أسطولاً بقيادة نجيب باشا إلى طرابلس وتم القضاء على حكم هذه الأسرة وأعيدت طرابلس إلى حظيرة الدولة العثمانية كواحدة من ولاياتها .

ثالثاً : عهد الحكم العثمانى الثانى (١٨٣٥ - ١٩١١)

شهدت هذه الفترة تدخلاً وضغطاً شديدين على الولاية واستمر هذا التدخل والضغط حتى سقطت عام ١٩١١ فى أيدى الإيطاليين. وكان هذا السقوط والإحتلال ضروريا فى نظر الايطاليين ذلك لأن طرابلس الغرب قد أحيطت بحزام شديد من الأوربيين ؛ فتونس جرى إحتلالها عام ١٨٨١ على أيدى الفرنسيين، ومصر أحتلت من جانب بريطانيا عام ١٨٨٢ ، وكذلك تم إحتلال السودان الاوسط عام ١٩٠٢ على يد فرنسا فلم يبق سوى ولاية طرابلس الغرب لتكتمل المأساة فى هذه الولاية وهو الذى حدث فى عام ١٩١١على يد ايطاليا .

وهكذا أصبح الخطر الفرنسى والبريطانى محدقاً بليبيا، ومن مظاهر هذا الخطر نزوح الكثير من المهاجرين التونسيين إلى ولاية طرابلس الغرب الأمر الذى شكل عبئاً شديداً على البلاد. وأمام ذلك كله لم يحرك السلطان عبد الحميد الثانى ساكنا، ويبدو أنه كان يفضل عدم الإصطدام مع فرنسا مفضلاً الإحتجاج الصورى وتشجيع التوانسة على العودة إلى بلادهم أو إيجاد موطن لهم داخل ليبيا بعيداً عن الحدود مع الفرنسيين حتى لايكون ذلك مدعاة لفتح جبهة عسكرية مع فرنسا .

ويبدو أن السلطان العثمانى قد فضل مثل هذه الحلول السلمية لأن الدولة العثمانية خلال القرن التاسع عشر ولاسيما النصف الثانى منه كانت تمر بمرحلة ضعف وتنافس شديدين من جانب الدول الأوربية على تخاطف ولاياتها سواء فى المشرق العربى أو المغرب أو حتى فى أوربا على وجه الخصوص حين ثارت الشعوب البلقانية مطالبة بالإستقلال عن الدولة العثمانية تساندها فى هذا المطلب الدول الأوربية . وعلى هذا النحو وأمام الأمر الواقع لم يكن السلطان العثمانى فى حاجة إلى نكأ جراح جديدة فى جسد دولته المريضة .

وقد رحب الليبيون بالإتحاديين وانقلابهم ضدا السلطان عبد الحميد الثانى وقيام الحكم الدستورى عام ١٩٠٨ لكن أملهم خاب نظراً لسياسة الاتحاديين التى ساروا عليها والتى تمثلت فى نظام المركزية فى الحكم ، فلم يصغوا لمطالب الأهالى فى تعيين الموظفين من أهل البلاد بل عينوا موظفين غرباء عنهم. كذلك فقد نظر الاتحاديون إلى ولاية طرابلس الغرب على أنها ولاية لافائدة من ورائها وينبغى الاقتصاد فى الانفاق عليها، كما شرعوا فى نزع الأسلحة من الأهالى خشية قيامهم بتمرد ضد الخلافة لاسيما إذا ما طولبوا بدفع الضرائب ، كذلك فقد تم تجريد البلاد من الموظفين والقادة ذوى الخبرات الجيدة .

الإحتلال الإيطالي لليبيا :

إرتبط التدخل الإيطالى فى كل من طرابلس وبرقة ومن ثم الإحتلال لهما بمسألة الأطماع الأوربية ولعبة التوازن الدولى وتوزيع الأسلاب بين الأطراف المتنافسة . ففى أعقاب إحتلال فرنسا لتونس عام ١٨٨١ سعت إيطاليا حثيثة إلى إيجاد مستعمرات لها فى شرقى افريقيا على حساب الممتلكات المصرية هناك لاسيما وأن بريطانيا راحت ترنو ببصرها صوب هذه المنطقة التى كانت مواجهة لمحميتها فى عدن. كذلك فقد كانت

فرنسا فى ذلك الوقت قد بدأت التخطيط نحو إيجاد مستعمرة لها فى منطقة جيبوتى .

وهناك جملة عوامل ساعدت إيطاليا فى التوسع فى شرقى افريقيا، ذلك أن الثورة المهدية قد اشتدت فى السودان ، إضافة إلى أن بريطانيا بدأت تضغط على مصر لسحب قواتها من هذه المنطقة وتصفيه امبراطوريتها الافريقية . وهكذا بدأت ايطاليا تتسلل إلى المنطقة وتقيم لنفسها مستعمرة فى ارتريا وأخرى فى الصومال ، كما انتهزت المشكلات والنزاعات الداخلية فى اثيوبيا لمد نفوذها داخلها إلى أن تمكنت من عقد معاهدة « أوتشالى » مع منليك الثانى لتدعى ان هذه المعاهدة تمكنها من فرض الحماية على الحبشة، إلا أن الأمور تطورت ليحدث الصدام الحبشى الإيطالى فى موقعة عدوة عام ١٨٩٦ وتنكسر ايطاليا أمام الأحباش ويحدث تطور خطير فى سياسة التوسع الإيطالى الخارجى وفى علاقاتها مع الدول الكبرى ومن ثم توجيه أنظار الإيطاليين نحو ليبيا . وهكذا خضعت الخطة التى سارت عليها ايطاليا لإحتلال ليبيا للموقف الدولى وعلاقات الدول الكبرى ببعضها البعض .

سعت ايطاليا نحو بريطانيا لإقناعها بأن فرنسا عقب إحتلالها لتونس أصبحت مصدر خطر يهدد كلا من ايطاليا وبريطانيا فى حوض البحر المتوسط الذى أوشك أن يصبح بحيرة فرنسية فاتفقت كل من إيطاليا وبريطانيا فى ١٢ فبراير عام ١٨٨٣ سراً على أن تقوم إيطاليا بتأييد أعمال بريطانيا فى مصر مقابل تأييد بريطانيا لأعمال ايطاليا المستقبلية فى شمال افريقيا ولاسيما فى طرابلس الغرب وبرقة . وفى عام ١٩٠٢ اعترفت بريطانيا بحق ايطاليا فى أن تقوم بإحتلال طرابلس الغرب وبرقة، كذلك فقد تخلت إيطاليا عن مساندة المانيا فى مؤتمر الجزيرة عام ١٩٠٦ واتفقت مع روسيا على أن تؤيد كل منهما الأخرى فى مخططاتهما تجاه

الدولة العثمانية ، كما حاولت إيطاليا كسب تأييد المانيا بعدم التدخل فى حالة قيام إيطاليا بغزو طرابلس ، كما حصلت ايطاليا أيضاً على موافقة النمسا فى احتلال طرابلس شريطة ألا تمتد الحرب الإيطالية إلى تركيا و البلقان.

أما فرنسا فقد بذلت إيطاليا أقصى جهودها للحصول على تأييدها فى مخططها نحو ليبيا لاسيما عقب سياسة العداء التى اتبعتها تجاهها بعد إحتلال فرنسا لتونس حيث اعترفت إيطاليا فى ٢٨ سبتمبر عام ١٨٩٦ بإحتلال فرنسا لتونس وحصول ايطاليا على امتيازات متنوعة للجالية الإيطالية فى تونس . وفى عام ١٩٠٠ عقدت أيضاً إتفاقية سرية اعترفت خلالها ايطاليا بحقوق فرنسا فى مراكش مقابل موافقة فرنسا على ماتقوم به ايطاليا من مخططات فى ليبيا.

وهكذا استطاعت ايطاليا أن تكسب رضا كل من دول التحالف والوفاق فى أوربا تجاه المسأة الليبية وضمنت فتح طرابلس الغرب من خلال الاتفاقيات السرية على حساب الشعوب الضعيفة ، وكانت مساندة بريطانيا لايطاليا على أساس أن التوسع الإيطالى فى ليبيا – التى تفصل بين مصر وتونس – هو توازن للتوسع الفرنسى والألمانى فى ليبيا لاسيما وأن المانيا كانت قد تقدمت بمشروع لإنشاء قاعدة عسكرية بحرية فى طبرق عام ١٩١١ . كذلك فقد دفعت المانيا وامبراطورية النمسا والمجر لإيطاليا الثمن نظير إسهامها فى التحالف الثلاثى ، كما دفعت فرنسا لايطاليا ثمناً أيضاً مقابل تخليها الفعلى عن التحالف الثلاثى وعدم تدخلها فى الشئون المراكشية .

وبالإضافة إلى النشاطات الدبلوماسية السالفة قامت إيطاليا بنشاط مكثف فى ليبيا حيث زارها فى عام ١٩٠١ وفد برلمانى ايطالى، كما جاء إليها وفد من ضباط الأسطول الايطالى متخفياً فى لباس صيادين قاموا

بمسح شامل للسواحل الليبية ، وبدأت الصحافة الايطالية منذ عام ١٩٠٠ تدعو إلى فتح طرابلس الغرب باعتبارها امتداداً طبيعياً لإيطاليا ، كما أخرج أحد الجغرافيين الإيطاليين من سجلات الماضى مصطلح « ليبيا » لإطلاقه على ولاية طرابلس الغرب، وجرى افتتاح فرع لأكبر البنوك الإيطالية فى طرابلس ، وراح الايطاليون يقومون بشراء الأراضى وإنشاء المشروعات الزراعية ، وإفتتاح المدارس الإيطالية وغير ذلك من وسائل التدخل والسيطرة الإيطالية التى تمهد لإحتلال البلاد.

الحرب الإيطالية التركية والاحتلال عام ١٩١١ :

بعد أن تهيأ المناخ الدولى لإيطاليا راحت تبحث لها عن مبرارات لاحتلال طرابلس الغرب من خلال مذكرة قدمتها للحكومة البريطانية تتحدث فيها عن عمليات الاستفزاز والإساءة التى لحقت بالإيطاليين فى أرجاء الأمبراطورية العثمانية، كحادث الفتاة الإيطالية التى اعتنقت الإسلام ، بالإضافة إلى موقف السلطات التركية المعادى للمصالح الإيطالية فى البحر الأحمر والعقبات التى توضع أمام النشاط التجارى فى طرابلس الغرب وغيرها من العراقيل. وبناءً على ذلك راحت الحكومة الإيطالية تقدم انذاراً للباب العالى فى ٢٨ سبتمبر عام ١٩١١ تعلن فيه أنها قررت احتلال طرابلس وبرقة لوضع حد للفوضى وطلبت من الحكومة العثمانية رداً خلال اربع وعشرين ساعة . وأمام تواطؤ الدول ردت تركيا على الإنذار بأسلوب مسالم جداً حين قالت بأن حكومة تركيا الفتاة الجديدة لاتستطيع أن تتحمل المسئولية عن أوضاع تمت فى عهد حكومة سابقة وأنها لاتضمر أى عداء ازاء المشروعات الإيطالية فى طرابلس الغرب وبرقة لكنها فى ذات الوقت ترفض بشدة الإحتلال الإيطالى . وعقب تسلم الرد قامت ايطاليا فى نفس اليوم باعلان الحرب فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١٩١١ .

وهكذا فوجئت تركيا بالحرب ولم تكن طرابلس الغرب فى حالة من الإستعداد اذ لم يكن بها سوى فرقة واحدة تضم سبعة آلاف فرد، فقام الأسطول الإيطالى بحصار طرابلس الأمر الذى لم يدع للأتراك فرصة نقل الإمدادات وفى ذات الوقت رفضت بريطانيا السماح للقوات التركية بالمرور عبر الأراضى المصرية .

وهكذا احتل الايطاليون طرابلس الغرب فى الخامس من اكتوبر عام ١٩١١، ودرنه فى الثامن عشر منه، وبنغازى فى التاسع عشر، والخمس فى العشرين من نفس الشهر . وبذلك استطاعت ايطاليا الإستيلاء على المدن الساحلية الأربع لتعلن حكومة روما ضم ولاية طرابلس الغرب إلى ايطاليا فى الخامس من نوفمبر عام ١٩١١، ثم جرى من بعد ذلك إطلاق اسم ليبيا على البلاد .

مراكش (المغرب)

إستطاعت مراكش أن تحتفظ بإستقلالها وعزلتها حتى القرن التاسع عشر ، وصعب على الأجانب قبل هذه الفترة التغلغل داخله فاكتفوا ببعض المناطق الساحلية، وكانت الاتصالات الدبلوماسية لمراكش بالخارج ضعيفة إذ كان القناصل يقيمون فى طنجة وبعيدين عن السلطان ومن ثم فإنهم كانوا يجهلون مايدور داخل البلاد. ومن ناحية أخرى كان عدد المغاربة المقيمين فى أوربا قليلاً أيضاً ؛ فقد منع المولى سليمان سفر المسلمين إلى الاقطار المسيحية الا بتصريح خاص ، كما وضع قيوداً على سفر اليهود خوفاً من تهريب رؤوس الأموال .

وكانت هناك عدة حوادث أدت إلى توتر العلاقات المراكشية الفرنسية مثل خضوع تلمسان لمراكش ، ثم حركة الامير عبد القادر الجزائرى ولجوئه إلى مراكش، ثم إحتلال الفرنسيين لمدينة وجدة الأمر الذى جعل السلطان عبد الرحمن يدافع عن كيان سلطنته حين انضمت قواته إلى قوات الامير عبد القادر والقبائل الشرقية حيث دارت بينها جميعاً وبين القوات الفرنسية معركة تسمى معركة (وادى إيسلى) فى اغسطس عام ١٨٤٤ انتصرت فيها القوات الفرنسية، وقبلت مراكش الشروط الفرنسية وأهمها تسريح الجيش المراكشى من منطقة الحدود وإعلان عبد القادر خارجاً على القانون والقبض عليه وطرده، والارتباط مع فرنسا ببعض الاتفاقيات .

وقد ظلت مشكلة الحدود بين الفرنسين والمراكشيين مستمرة، ففى يونية عام ١٨٤٥ وقعت اتفاقية لترسيم الحدود ، وفى عام ١٨٦٢ عقدت فرنسا معاهدة مع مراكش أعطت لنفسها الحق فى تتبع القبائل الجزائرية داخل الأراضى المراكشية، كذلك فقد حصلت فرنسا على حق حماية المغاربة القائمين على خدمة التجار الفرنسيين مثلما حصلت كل من بريطانيا واسبانيا على هذا الحق .

وفى عهد السلطان الحسن (١٨٧٦ - ١٨٩٤) جرت محاولة لتسليح الجيش وتقويته بعد أن هزم مرتين : الأولى فى وادى إيسلى على أيدى الفرنسيين والثانية على ايدى الأسبان فى تطوان، كما قام بتوطيد سلطته فى الداخل ووضع حد للأطماع الأجنبية ، وفى سبيل ذلك حاول إيجاد توازن بين مصالح الدول.

فى عام ١٧٨٩ انعقد مؤتمر لممثلى الدول الأجنبية فى طنجة لوضع نظام خاص لحماية الأجانب فى مراكش عقب حادث إعتداء على أحد اليهود فى فاس . وقد اصدر المؤتمر عدة قرارات عام ١٨٨٠ حيث أقر القضاء القنصلى، والإعفاء من الضرائب ، وجواز تملك الأجانب للعقارات. وهكذا فتح هذا المؤتمر الباب أمام جميع الدول المشاركة فيه تطبيقا لمبدأ المساواة فى الإمتيازات بحيث لم تعد مقصورة على فرنسا واسبانيا وبريطانيا. وأمام الخوف من هذا التغلغل الأجنبى راح السلطان يوثق علاقاته مع الدولة العثمانية حيث طلب تبادل التمثيل الدبلوماسى معها والموافقة على تعيين سفير لها فى طنجة.

توفى السلطان الحسن عام ١٨٩٤ ليخلفه ابنه عبد العزيز الذى تسلم الحكم فعلياً فى عام ١٩٠٠ نظراً لصغر سنة . وقد اتجه هذا السلطان فى مستهل حكمه إلى اللهو وسيطر عليه الوزراء ، فلم يعط اهتماماً لشئون الدولة، وازداد الضغط الأوربى على البلاد، وراح الوزراء ينقسمون بين اتجاهين : أحدهما تقليدى محافظ يقوده سى محمد التازى وزير المالية، والآخر يقوده وزير الحربية سى المهدى المنبهى الذى كان يسير فى طريق الإصلاح ويشجع السلطان على الإتصال بأوربا ولاسيما انجلترا للوقوف فى وجه النفوذ الفرنسى. وقد انتصر الفريق الثانى الذى يحبذ التعاون مع أوربا وخضع السلطان عبد العزيز لنفوذ الأجانب الذى راحوا يستقدمون له

المصنوعات الأوربية الفاخرة من دراجات وسيارات وآلات تصوير وغيرها حيث تحول قصره إلى متحف كبير الأمر الذى أوقعه فى الديون.

وبالرغم من ذلك كله فقد حاول السلطان عبد العزيز أن يقوم ببعض الإصلاحات الداخلية فعمل على تقوية الجيش واستقدام مدربين أجانب من انجلترا وفرنسا ، كما حاول تحسين طرق المواصلات وإصلاح الموانى والجمارك. ومن اهم مشروعاته الاصلاحية مشروع الإصلاح الضرائبى الذى تمثل فى استحداث ضريبة جديدة تسمى « الترتيب » وكان مؤتمر مدريد قد أشار إليها كى تحل محل الضرائب القديمة من زكاة وعشور. وكان السلطان يهدف من ذلك إلى مساواة الجميع. أشراف وعوام واغنياء وفقراء وتجار أوربيين وتجار وطنيين، لكن النتيجة كانت المعارضة من جانب الجميع فثار الرأى العام وأيده العلماء الذين اعتبروا ان هذه الضريبة مخالفة للشرع . كذلك فقد عارضها الأجانب لانهم كانوا لايريدون دفع ضرائب أخرى. وهكذا فشل السلطان فى عام ١٩٠٤ فى فرض هذه الضريبة.

وقد وقفت فرنسا فى وجه خطة الإصلاح التى تبناها السلطان على أساس أنها تعمل على زيادة النفوذ البريطانى فى البلاد. واندلعت الثورات فى شرقى المغرب وشماله، فاستغلت فرنسا مثل هذه الثورات والاضطرابات لتقنع البريطانيين بعدم المغامرة بأموالهم فى مراكش، وفى ذات الوقت كانت تشجع بنك فرنسا على تقديم الأموال، فوقع السلطان قرضه الأول مع فرنسا عام ١٩٠٣ بقيمة ٧,٥ مليون فرنك، وحصلت البنوك الفرنسية على حق تسلم حصيلة جمارك طنجة شريطة أن يكون الدفع بالذهب . كما وقعت فرنسا القرض الثانى عام ١٩٠٤، وراحت فرنسا تستغل مشكلة الحدود لمزيد من الضغط على مراكش واحتلال بعض الواحات المعروفة باسم (توات) .

الازمة المراكشية (١٩٠٢ - ١٩١٢) .

فى السنوات الأولى من القرن العشرين ونتيجة لتقدم الصناعة وعدم إشتراك فرنسا فى حروب منذ عام ١٨٨٥ تزايد نمو الحركة الاستعمارية الفرنسية . وعلى هذا النحو ارتفعت بعض الأصوات من بناة الامبراطورية الفرنسية بضرورة التوغل فى المغرب الأقصى لاسيما وان مراكش تعتبر امتداداً للجزائر التى استولت عليها فرنسا وكان ديلكاسية الذى تولى وزارة الخارجية الفرنسية بين عامى ١٨٩٩ و ١٩٠٥ قد لعب دوراً كبيراً فى عقد اتفاقيات ثنائية مع كل من إيطاليا واسبانيا وبريطانيا وهى الدول التى لها مصالح وأهداف توسعية فى مراكش .

فبالنسبة لإيطاليا إستغلت فرنسا ظروف إيطاليا الإقتصادية السيئة ومدى حاجتها إلى رأس المال الفرنسى فوقعت الدولتان اتفاقا تعهدت فرنسا من خلاله بأن تكون طرابلس الغرب وبرقة خارجة عن منطقة نفوذها ، وفى حالة استيلاء فرنسا على مراكش فعلى ايطاليا التصرف بحرية فى طرابلس الغرب .

اتجهت فرنسا بعد ذلك صوب اسبانيا للاتفاق معها بشأن مصالحها فى مراكش لاسيما وأن اسبانيا فقدت بقايا مستعمراتها فلم يبق لها فى شمال افريقيا سوى بعض المراكز على سواحل اقليم الريف ، وبعض الحقوق على (سانتا كروز) ، والصحراء الجنوبية وجزر كناريا، لذلك فإن زيادة مناطق نفوذها فى المغرب الأقصى كان يساهم فى تدعيم حكومتها ، وبدأت فرنسا فى تقديم مذكرة لأسبانيا فى ١٥ يولية عام ١٩٠٢ نصت على أن ملكية أسبانيا لبعض الممتلكات فى شمال المغرب سوف تجعل من أسبانيا الدولة التالية لفرنسا فى الأهتمام بالمسألة المراكشية، وأن فقدان أسبانيا لمستعمراتها يجعلها تتطلع نحو مراكش للمحافظة على الوضع القائم، أو إن تصل إلى تحديد مناطق النفوذ والعمل

لكلتا الدولتين فى حالة تفكك السلطنة المراكشية والوصول إلى وضع برنامج عمل دبلوماسى لهما .

وفى اغسطس عام ١٩٠٢ تقدمت فرنسا لاسبانيا بمشروع اتفاق يعطيها منطقتى نفوذ، الأولى فى الشمال تشمل منطقة الريف وتطوان وفاس وغيرها. والثانية فى الجنوب تلحق بالممتلكات الإسبانية فى ريودى أورو ، وتشمل ميناء أغادير وبعض الأودية مثل وادى السوس وغيره . اما منطقة طنجة فبقيت على الحياد . كما إشتمل المشروع على ضرورة تفاهم الطرفين قبل القيام بأى عملية فى مراكش وعدم تعطيل مرور التجارة وتقديم التسهيلات لكلا الطرفين. ورغم هذا العرض السخى من جانب فرنسا فقد ترددت أسبانيا ربما لأن بريطانيا قد فرغت من حرب البوير وخشيت منها ومن أسطولها، لذلك فقد سعت اسبانيا إلى روسيا لضمان هذا الإتفاق لاسيما وان روسيا كانت حليفة لفرنسا منذ عام ١٨٩٢ إلا أن فرنسا لم تكن ترغب فى ذلك .

وعلى الرغم من استمرار المفاوضات بين فرنسا واسبانيا قررت فرنسا أن تبدأ المفاوضات مع الحكومة البريطانية للوصول إلى اتفاق حول المسألة المراكشية لأن بريطانيا كانت خصماً استعماريا عنيداً ووقعت كثير من المشكلات بسبب التنافس بينهما وكان آخرها حادث فاشودة عام ١٨٩٨ ، وبالإضافة إلى ذلك كانت بريطانيا تحتل مركزاً متقدماً فى تجارة مراكش الخارجية ، وكان يهم بريطانيا أن تبقى طنجة على الحياد ، وأمام ذلك كان على بريطانيا الإعتراف بتفوق المصالح الفرنسية فى مراكش وعلى هذا النحو سلمت فرنسا بجميع مطالب بريطانيا مثل حياد طنجة وحرية التجارة البريطانية فى مراكش ، وترك يد بريطانيا فى مصر، وفى سبيل ذلك اتفقت الدولتان على ماعرف بالاتفاق الودى فى ابريل عام ١٩٠٤ حيث تعهدت فرنسا بعدم تحيد موعد لخروج القوات البريطانية

من مصر مقابل اعتراف بريطانيا بإطلاق يد فرنسا فى مراكش . وبالإضافة إلى ذلك اتفق الطرفان على مبدأ حرية التجارة فى مصر ومراكش، وضرورة حياد مضيق جبل طارق.

عادت فرنسا بعد ذلك إلى إتمام إتفاقها مع اسبانيا فوقعت إتفاقية معها فى اكتوبر عام ١٩٠٤ إحتوت على جزئين : علنى وسرى. ففى الجزء العلنى أتفقتا على حرمة الأراضى المراكشية تحت سيادة السلطان وضرورة الدفاع عنها . وفى الجزء السرى قسمت الأراضى إلى منطقتى نفوذ فرنسية واسبانية وجرى تخطيط حدود كل منطقة ، كما نصت على إشتراك الدولتين فى المشروعات الاقتصادية وحرية إنشاء المدارس واستخدام العملتين الفرنسية والأسبانية فى المنطقتين.

أما المانيا هى الأخرى فقد كانت لها مطامع فى مراكش، ففى أعقاب الاتفاقيات التى عقدتها فرنسا مع إيطاليا وبريطانيا واسبانيا أرسل السلطان المراكش وفداً إلى برلين يطلب المساعدة والوقوف فى وجه الدول الأخرى. وحين كان الأمبراطور الألمانى ولهلم الثانى يقوم برحلة فى البحر المتوسط توقف فى طنجة فى مارس عام ١٩٠٥ والقى خطابا أمام عدد من المراكشيين قال فيه إنه جاء لزيارة صديقه السلطان وأنه سيدافع عن سيادته وعن مصالح المانيا فى مراكش.

ولم يرض هذا الخطاب فرنسا فأرسلت إلى السلطان تطلب منه قبول بعض الإصلاحات التى يحق لفرنسا الإشراف عليها لكن السلطان رفض وأيدته المانيا مستندة إلى مبدأ الباب المفتوح لجميع الدول.

وبناءً على إقتراح السلطان المراكشى عقد مؤتمر الجزيرة فى يناير عام ١٩٠٦ وهى مدينة صغيرة قرب جبل طارق على الساحل الجنوبى لاسبانيا، وحضرته كل من فرنسا والمانيا وبريطانيا وروسيا والولايات

المتحدة وايطاليا واسبانيا وامبراطورية النمسا والمجر وبلجيكا وهولندا والبرتغال ومراكش، واستمر هذا المؤتمر طوال ثلاثة اشهر وانتهى فى ابريل عام ١٩٠٦ . ويبدو من طول مدة انعقاده ان الخلاف كان مستعراً بين أعضائه كما أن اغلب الدول أيدت فرنسا، ولم يكن ميزان القوى فى صالح المانيا، فتبنى مؤتمر الجزيرة برنامج الإصلاحات الفرنسية وفوضها فى إنجاز هذا البرنامج .

أعلن مؤتمر الجزيرة تأليف قوة وطنية لأمن الموانئ . يشترك فى تدريبها وقيادتها فرنسيون وأسبان بحيث تكون هذه القوة خاضعة للسلطان. كما تقرر إنشاء بنك لمراكش يتبع القانون الفرنسى فى أعماله ، كما أعلن المؤتمر ضرورة المساواة التامة بين الدول فى المشروعات الإنشائية .

وقد شرعت فرنسا فى أعقاب مؤتمر الجزيرة باحتلال المناطق الرئيسية فى مراكش ووجهت أسطولها فى نهاية عام ١٩٠٦ إلى طنجة بحجة حماية الأوربيين ، كما بعثت اسبانيا باسطولها ايضا. واستغلت فرنسا مقتل طبيب فرنسى فى عام ١٩٠٧ فاحتلت مدينة وجدة وشرقى مراكش كله .

وفى اغسطس عام ١٩٠٧ عقد مؤتمر فى مدينة مراكش أعلن فيه تنصيب عبد الحفيظ سلطاناً على البلاد بدلاً من أخيه السلطان عبد العزيز لكن الأخير حصل على فتوى بأنه السلطان الشرعى وأخذ يتقرب من فرنسا فسقطت هيبته وأعلن خلعه رسميا فى يناير عام ١٩٠٨ . وقد بدأ عبد الحفيظ فترة حكمه بأن طلب من الحكومة الفرنسية الإنسحاب من المناطق التى إحتلتها ، لكن تحت الضغط خضع عبد الحفيظ لفرنسا ففقد هيبته وتركه انصاره وعمت الثورة البلاد، وعجزت قوات السلطان فى مقاومتها، ففكرت فرنسا فى إحتلال فاس عاصمة البلاد.

تدخلت المانيا عقب إحتلال فرنسا لفاس وأرسلت إحدى بوارجها واسمها الفهد (Panther) وطلبت من فرنسا وأسبانيا سحب قواتهما من مراكش، لكن فرنسا استطاعت إحتواء غضب المانيا وقامت بإرضائها فمنحتها جزءً من الكونغو الفرنسى عام ١٩١١ مقابل إطلاق يد فرنسا فى مراكش . وهكذا استطاعت فرنسا - بعد أن ازاحت كل مطامع الدول الأخرى - أن تعلن الحماية على مراكش فى ٣٠ مارس عام ١٩١٢ .

المقاومة الوطنية في مراكش:

ما أن أعلنت الحماية على مراكش حتى اندلعت ثورة فاس فى أبريل عام ١٩١٢ ، وانقضى جنود فاس على ضباط البعثة الفرنسية وقتلوهم وانضم إليهم الجمهور ثم القبائل ، لكن القوات الفرنسية استطاعت - بعد وصول الإمدادات - دخول فاس فاستسلمت الحامية الوطنية ، وفك الجنرال (ليوتى) الحصار عن فاس . وقد أدت هذه الأحداث إلى انتقال السلطان عبد الحفيظ إلى الرباط حيث جعلها مقراً دائماً له لاسيما وأن مصالحه أصبحت مرتبطة بالفرنسيين، لكنه لم يستطع البقاء سلطانا تحت الحماية فتنازل عن العرش عام ١٩١٢ ليخلفه السلطان يوسف.

وفى جنوبى البلاد قاد المقاومة الشيخ هبةالله ماء العينين فتابع جهود والده فى الجهاد فالتف أهل السوس حوله . ولما اشتد الضغط الفرنسى عليه انسحب هبة الله إلى موريتانيا رغم إستمرار المقاومة فى السوس التى لم يستطع الفرنسيون الاستيلاء عليها إلا فى عام ١٩٣٤ .

وفى جبال أطلس ثار الأمير عبد الكرم الخطابى ضد الاسبان فى الفترة مابين عامى ١٩٢١و ١٩٢٦ فى منطقة الريف . ورغم إندلاع الثورة فى هذه البقعة إلا أن ثورة الخطابى تجاوزت فكرة الدفاع عن المنطقة إلى فكرة الدفاع عن شمال افريقيا بل والعالم الإسلامى ضد

المستعمر الأوربى الأمر الذى كان له أثره فى كثير من الأقطار الإسلامية. وقد احرز الخطابى إنتصاراً فى معركة (الأنوال) عام ١٩٢١ حيث قضى على حملة فرنسية كاملة . وعقب خروج الأسبان من الريف حاول الخطابى تأسيس دولة فى الريف أثارت جدلاً فى الأوساط السياسية عما إذا كان الخطابى يعترف بسيادة السلطان لأن هناك اعتقاداً بأنه ضد العرش المراكشى. وكان الخطابى لايقر الحماية الفرنسية على البلاد ويطالب بجلاء الأسبان عن كل المناطق التى احتلوها عدا (سبته ومليلة)، وفى المقابل كان على استعداد لإقامة علاقات طيبة مع الدول الأوربية . وفى عام ١٩٢٤ قرر الخطابى القيام بهجوم للإستيلاء على تطوان واقتربت قواته من المدينة فأخلاها الاسبان، وهنا تحرك الفرنسيون لتقديم المساعدة للاسبان . وفى سبتمبر عام ١٩٢٥ إستطاع الأسبان بمعاونة البحرية الفرنسية دخول الريف ثم الاستيلاء على أغادير عاصمة الأمير عبد الكريم . وجرت مفاوضات بين الاطراف الثلاثة لكن القتال استؤنف فى مايو ١٩٢٦ فاستعدت كل من فرنسا واسبانيا وأعدتا ثلاث حملات اتجهت صوب ثلاثة اماكن واستولت على مقر الخطابى الذى سلم نفسه للفرنسيين فنفوه إلى جزيرة (رينيون) فى المحيط الهادى فظل بها حتى عام ١٩٤٧ حيث سمح له بالاقامة فى فرنسا. وحين وصلت الباخرة التى كانت يستقلها إلى بورسعيد فى طريقه إلى فرنسا قرر اللجوء الى مصر التى رحبت به وقام برئاسة لجنة المغرب العربى بالقاهرة .

ومن الجدير بالذكر أن فرنسا حاولت دق اسفين بين العرب والبربر من خلال مرسوم عرف باسم (الظهير البربرى) فى ١٦ مايو عام ١٩٣٠ . لكن رد الفعل كان مغايراً حيث تكتل العرب والبربر حول إطار القومية مماجعل فرنسا تضطر إلى التراجع .

ومع نشوء ، كتلة العمل الوطنى ، وتزعمها للمعارضة السياسية

أخذت المقاومة ثوباً جديداً واصبحت تتصف بالوعى حيث أصبح قوامها جماعة من المثقفين قاموا بتنوير الرأى العام فى فرنسا والخارج من جهة وتنبيه الشعب واعداده لتحمل أطوار المقاومة من جهة أخرى . وأصدرت الكتلة فى عام ١٩٣٢ مجلة (مغرب) بالفرنسية قامت بنشر المقالات التى كتبها الوطنيون المغاربة وغيرهم من الفرنسيين لشرح مغزى الحركة الوطنية والآمال التى تعلقها على الديمقراطية الفرنسية .

وفى اعقاب حل الكتلة فى مارس عام ١٩٣٧ تكتل أعضاؤها تحت اسم جديد هو (الحزب الوطنى) الذى تزعمه (علال الفاسى) وذلك فى ابريل عام ١٩٣٧ . كما كان هناك إلى جوار الحزب الوطنى حزب «الحركة القومية » بزعامة محمد الوزانى .

وقبل انتهاء الحرب العالمية الثانية الف الوطنيون عام ١٩٤٤ حزب الاستقلال بقيادة (أحمد بلافريج) وبدأ الحزب نشاطه بتقديم وثيقة الاستقلال إلى السلطان الذى تبناها هو وحكومته مقابل إعلان الحزب ولاءه للنظام الملكى الدستورى لكن (بلافريج) أعتقل ونفى إلى جزيرة كورسيكا فاشتعلت الثورة فى البلاد .

وقد ساهم المراكشيون فى الحرب العالمية الثانية حين تم تجنيدهم فى صفوف الجيش الفرنسى وراحت حكومة فرنسا الحرة تغدق وعودها بالاستقلال لكنها لم تفعل . وقد ارتفعت الأصوات فى المحافل العالمية والعربية لنيل الاستقلال وخاصة فى هيئة الأمم حين طولبت فرنسا بمنح مراكش الحكم الذاتى عام ١٩٥١ لكن فرنسا اقالت الملك وتم انتخاب محمد بن عرفة عميل فرنسا ونفت الملك محمد بن يوسف إلى كورسيكا ثم إلى مدغشقر . وأمام تأزم الأوضاع ونشوء حركة منظمة سميت باسم (جيش التحرير) إضطرت فرنسا إلى إعادة الملك فى ٢ مارس ١٩٥٦ ، ثم الغت معاهدة الحماية واعترفت باستقلال مراكش .

مراجع الفصل السادس

- أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر (القاهرة ١٩٥٦) .
- جلال يحي : المغرب الكبير (القاهرة ١٩٦٦) .
- الحبيب ، تامر ، هذه تونس (القاهرة ١٩٤٨) .
- زاهر رياض : شمال إفريقيا في العصر الحديث (القاهرة ١٩٦٧) .
- صلاح العقاد : المغرب العربي (القاهرة ١٩٦٢) .
- ــــــــ : مغرب الاستعمار الفرنسي .
- ــــــــ : الجزائر المعاصرة .
- عادل الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي .



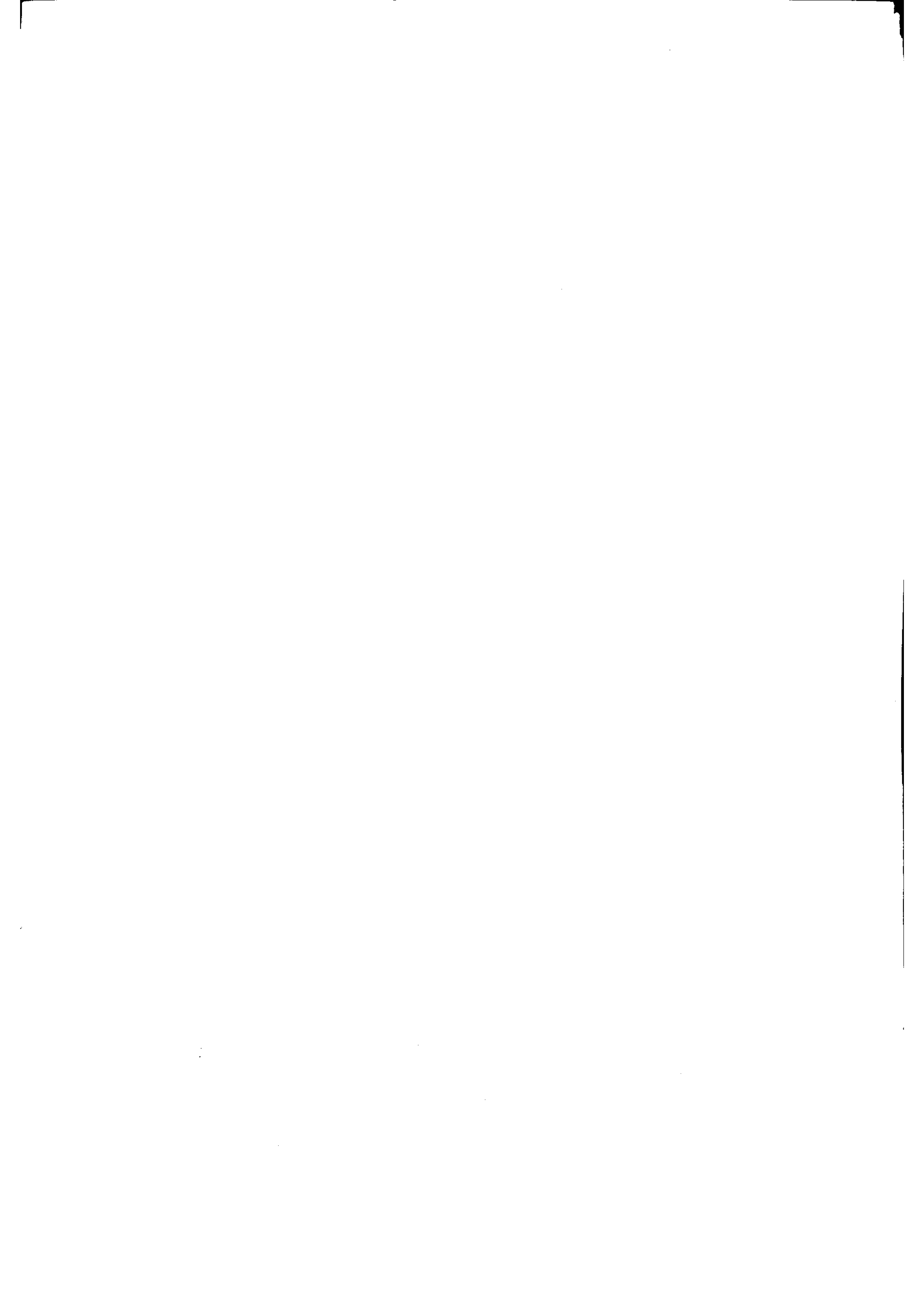
قائمة المصادر

- ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ٣ أجزاء . تحقيق محمد مصطفى . القاهرة ١٩٦٠،١٩٦٣ .
- ابن زنبل الرمال : أخرة المماليك . تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٢ .
- أحمد توفيق المدني : هذه هي الجزائر ، القاهرة ١٩٥٦ .
- أحمد عبدالرحيم مصطفي : في أصول التاريخ العثماني ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام و مقدماته من واقع الوثائق و المصادر التركية و العربية المعاصرة له ، القاهرة ١٩٩٥ .
- إسماعيل باغي ، و أخر : العالم الإسلامي الحديث و المعاصر ، الجزء الأول ، الجناح الآسيوي . الرياض ، ١٩٩٣ .
- إحسان حقي : بروتوكولات حكماء صهيون (مترجم) دار النقاش . بيروت ، ١٩٩٠ .
- جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، بيروت ١٩٧٧ .
- جلال يحيي : المغرب الكبير ، القاهرة ١٩٦٦ .
- الجمعية المصرية للدراسات التاريخية :الأرض و الفلاح ، القاهرة ١٩٧٤ .
- الحبيب ، تامر : هذه تونس . القاهرة ١٩٤٨ .
- حمدنا الله مصطفي : التطور الاقتصادي و الاجتماعي في السودان ١٨٤١-١٨٨١ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٥ .
- زاهر رياض : شمال إفريقيا في العصر الحديث ، القاهرة ١٩٦٧ .
- سعد الزبير : الزبير باشا رجل السودان ، القاهرة ١٩٥٢ .
- السيد مصطفي سالم : الفتح العثماني الأول لليمن (١٥٣٨-١٦٣٥) معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٧ .
- صلاح العقاد : المغرب العربي ، القاهرة ١٩٦٢ .
- ــــــــ : مغرب الاستعمار الفرنسي (د.ت) .
- ــــــــ : الجزائر المعاصرة . القاهرة ١٩٦٣ .
- عادل غنيم : الحركة الوطنية الفلسطينية من ١٩١٧ إلي ١٩٣٦ ، القاهرة ١٩٧٤ .
- ــــــــ : تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية من ثورة ١٩٣٦ حتى الحرب العالمية الثانية القاهرة ، ١٩٨٠ .
- عبدالرازق أسود : الموسوعة الفلسطينية – المجلد الأول .(د.ت) .
- عبدالرحيم عبد الرحمن : تاريخ العرب الحديث و المعاصر . القاهرة ١٩٨٦ .
- ــــــــ : الدولة السعودية الأولي . معهد الدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٩

- عبدالعزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها . (جزءان) . القاهرة ١٩٨٢
- عبدالعزيز نوار : تاريخ العرب الحديث (العراق) ، القاهرة ١٩٧٦ .
- عبدالمنعم ماجد : طومان باي آخر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٨ .
- عمر عبدالعزيز : دراسات في تاريخ العرب الحديث و المعاصر ، بيروت ، ١٩٩٠.
- علال الفاسي : الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٤٨ .
- فائق بكر الصواب : العلاقات بين الدولة العثمانية و إقليم الحجاز ، الرياض .
- فؤاد سيد الرفاعي : النفوذ اليهودي و الأجهزة الإعلامية و المؤسسات الدولية، الكويت ، ١٤٠٧ هـ .
- لوتسكي : تاريخ الأقطار العربية الحديث ، دار التقدم موسكو (بدون تاريخ) .
- ــــــــ : تاريخ الأقطار العربية المعاصر . دار التقدم ، موسكو ، ١٩٧٥ .
- محمد أنيس : الدولة العثمانية و الشرق العربي (١٥١٤-١٩١٤) القاهرة ١٩٧٧.
- محمد إبراهيم أبو سليم : منشورات المهدية ، الخرطوم ١٩٦٩ .
- محمد حرب : السلطان عبدالحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار ، دمشق ١٩٩٠ .
- محمد فؤاد شكري : السنوسية دين و دولة ، القاهرة ١٩٤٨ .
- محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية . ترجمة د.أحمد السعيد سليمان ، القاهرة ١٩٦٧ .
- محمود صالح منسي : تاريخ العرب الحديث و المعاصر . المشارقة والمغاربة، القاهرة، ٢٠٠٠ م.
- هرتزال ، يتودور : الدولة اليهودية . ترجمة : محمد عدس . مراجعة د. عادل غنيم .
- نعوم شقير : تاريخ السودان . ترجمة د.جميل عبيد ، مراجعة د.أحمد عبدالرحيم مصطفي ، القاهرة ١٩٧٨ .
- هولت .ب.م : المهدية في السودان . ترجمة الدكتور / جميل عبيد مراجعة د. أحمد عبد الرحيم مصطفي ، القاهرة ١٩٧٨ .

المحتوى

الموضوع	الصفحة



دار الحريرى للطباعة ت: ٣٢٠١٢٨٥